تفسير من هدى القرآن

الجزء الثامن عشر

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : (من كانت قراءته في فرائضه بالسماء و الطارق كانت له عند الله يوم القيامة جاها و منزلة ، وكان من رفقاء النبيين و أصحابهم في الجنة)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٤٩

الاطار العام

لكي يتسع قلب الانسان للحقائق الكبرى فيعيها و يتكيف معها يرغبه الوحي في النظر والتفكر في آفاق السماء وما فيها من النجوم الثاقبة و الشهب الطارقة ، و في أغوار النفس وما انطوت عليه من عالم كبير ، و في نشأته الأولى حيث خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلبوالترائب ، و مصيره الاخير حيث يواجه اعماله بلا حجاب ولا قوة ولا ناصر.

ولكي لا يتهرب البشر من الحقائق العظيمة ، كواقع الرجع و الحساب بتكذيب الرسالة أو تأويل انبائها بما يتناسب و اللامسْؤولية ، يذكره الوحي بأن القران قول فصل ، وليس بالهزل .. و ينذر المكذبين و الكافرين بأن الله يكيد لهم كيدا ، ولكن يمهلهم ، وأنت أيها الانسان اصبر وامهلهم رويدا.

إنه لقول فصل وما هو بالهزل

بينات من الايات

[1]أرأيت النجم الذي يطرق بنوره الثاقب في عرض السماء ! أرأيته كيف يدفع الله به شر إبليس و جنوده عن السماء و اهلها و الارض و سكانها ! إنه مثل واحد لحفظ الله ، فقسما به و بالسماء التي يحفظها : ان الله هو الحفيظ ، ولولاه لما استطاع الانسان ان يعيش لحظة ولا غيره من الاحياء.

]و السماء و الطارق[

قالوا :الطرق يعني الدق ، وانما سمي السبيل طريقا لان الانسان يدق عليه برجله ، و زائر الليل سمي طارقا لانه بحاجة االى دق الابواب لتفتح ، ولعل كل قادم تسميه العرب طارقا لانه هو الآخر يدق الأبواب باعتباره غريبا عن المنطقة.

و القسم بالسماء وما يطرق فيها من النجوم الثاقبة يستثير عقل الانسان ، و يستقطب اهتمامه ، و ينفض عن قلبه غبار الغفلة و السبات .. و بالذات حينيكون القسم بالسماء البعيدة عن متناول أيدينا وعن مرامي فكرنا ، و بالطارق الذي يخشاه الانسان ، فليس كل طارق يطرق بخير.

وقد قال الشاعر:

يا راقد الليل مسرورا بأوله ان الحوادث قد يطرقن أسحارالا تفرحن بليل طاب أولـــه فـرب آخـر ليـل أجـج النـاراوحين يرتفع الانسان الى افق التفكير و التدبر في آيات الله في السماء و الارض يقترب من معرفة الحقائق الكبرى، بينما الذي يعيش في زنزانة مشاكله اليومية ، و هواجس نفسه و وساوس

قلبه، فانه يحرم التفكر في الآفـاق ، و يحرم بالتالي بلوغ الحقائق.

ولعل هذا من اهداف القسم في القران : الارتفاع بالانسان الى آفاق الحقائق بعيدا عما يحيط بفكره من قضايا خاصة لا تنفك تستقطب اهتماماته.

و القران منهج تفكير قبل أن يكون دائرة للمعارف ، ولذلك فهو لا يهدف مجرد تعليم الانسان ، بل جعله قادرا على التعلم بذاته، فهو يفتح مغاليق الفكر بمفاتيح الذكر ، و يبصر الانسان الحقائق برفر الغشاوات عن قلبه ، و يخرق الحجب التي تستر بصيرته عن رؤية الحقائق باستثارة العقل و نفض غبار الغفلة عن الفؤاد.

و سورة الطارق تتجلى بين السور القصار بهذه الميزة . انها كما النجم الثاقب بنوره الوضيء تطرق أبواب القلب حتى تفتحه امام شلال النور المنبعث من الوحي.

[2]ماهــو الطارق ؟ دع فكرك يجوب في آفاق الخليقة لعله يكتشف ما هو الطارق.

]و ما أدراك ما الطارق[

هذه الكلمة تستثير عقل الانسان ، كما تبين له أهمية القضية . و قال بعض المفسرين : كلمــا ذكرت هذه الجملة في القرآن عرف موضوعها ، مثـل قولــه سبحانــه : (وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر (، بينما اذا استخدمت جملة (وما يدريك) فانالموضوع يبقى مجهولا في النص.

[3]ما هو الطارق اذا ؟ انه النجم العالي الذي يثقب ضوؤه الباهر جدار الظلام.

]النجم الثاقب[

قالوا : الثاقب المضيء ، ومنه شهاب ثاقب ، و العرب تقول : اثقب نارك أي أضئها ، و الثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان.

و اختلفوا في تأويل هذه الكلمة .. والذي يبدو لي أن الطارق هي الأقدار التي تتواصل في الليل و النهار بخيرها و شرها ، ولذلك نستعيذ بالله من طارق السوء حسب النص المأثور عن النبي - صلى الله عليه واله - : (أعوذ بك من شر طوارق الليل و النهار إلا طارقايطرق بخير يا رحمن) (١. (

وفي الدعاء : " بك أستجير يا ذا العفو و الرضوان من الظلم و العدوان ، ومن غير الــزمان ، و تواتر الأحزان ، و طوارق الحدثان ، ومن إنقضاء المدة قبل التأهب و العدة " (٢. (

و حسب هــذا الرأي فإن النجم الثاقب هو بيان لهذا الطارق الذي يشبه النجم الثاقب ، كما قال سبحانه : " إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (٣. (

(1)القرطبي/ ج ٢٠ - ص 3

(2)مفاتيح الجنان / دعاء يوم الاحد

(3)الصافات/ ١٠

و يكون القسم - إذا - بتلك الشهب التي يحفظ الله بها السماء من الشياطين الذين يسترقون السمع ، و يكون السياق متناسبا مع الحديث عن حفظه سبحانه لأهل الارض.

و قيل : ان كل نجم يسمى طارقا باعتباره يطلع بالليل ، و عليه فان القسم بكل نجوم السماء او النجوم اللامعة ، و قال البعض: بل النجم هنا هو زحل ، وقد روي ذلك عن الامام الصادق - عليه السلام - (١ (، وقال بعضهم : بل هو الثريا ، وقال الآخر: بل هو الزهرة.

وقد تتسع العبارات لكل تلك التطبيقات ، ذلك لأن آية نتلوها في سورة الملك يظهر منها أن مصابيح السماء هي رجوم الشياطين أو مراكــزهم لرجمهــم ، قال ربنا سبحانه : " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح و جعلناها رجوما للشياطين " (٢. (

فمن المحتمل ان تكون النجوم هي ذات الشهب الطارقة أو أنها مصادر للشهب. يبقى أن نقول: ان المراد من النجم يمكن أن يكون جنس النجم فيشمل سائر الانجم وليس واحدا منها.

[4]حينما ينظــر الانسان الى متانة بناء السماء ، و كيف جعلها الله سقفا محفوظا ، و زرع في أرجائها مراجم للقوء الشيطانية التي تسعى لافساد النظام فيها ، يطمئن الى تلك اليد العظيمة التي تمسك السماوات و الأرض أن تزولا ، و يعرف أنه في كنف رب عظيم ، يحفظه من طوارق السوء.

]ان كل نفس لما عليها حافظ [

(1)راجع نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٤٩

(2)الملك / ٥

عشرات الألوف من الحفظة يحرسونك من الأخطار المحدقة بك ، فى يصيبك إلا ما تستحق أو ما تقتضيه حكمة الرب.

انظر الى نظام حماية الجسد تتركب من اجهزة عديدة:

ألف : فجهاز التكيف مع المحيط المتشكل من العين و الأذن و الذوق و سائر الأحاسيس ، و أبرز ما فيه شبكة الأعصاب العجيبة.

باء : و جهاز الدفاع امام الأخطار و أبرزها الرجل و اليد.

جيم :و جهاز الحماية من الجراثيم ، وفي طليعتها امتناع الجسد من استقبال مالا يناسبه من الطعام والشراب ، كما إذا كانا عفنين أو مرين.

دال : و جهاز المناعة الذاتية ضد الجراثيم ، التي لولاها لغزت الفيروسات و الميكروبات أرجاء الجسد بسهولة . أرأيت الذي يفقد هذه المناعة و يبتلى بمرض الإيدز ، كيف يموت بأبسط ميكروب لأن جسده لا يقاومه.

هاء : و العواطف و الشهوات التي تدفع الانسان دفعا قويا نحو المحافظة على الجسد.

واو : و العقل الذي يقود الجسد في خضم صراعه المرير ضد الطبيعة و ضد سأئر الأخطار.

و عشرات الأجهزة المحيطة بالجسم التي لو أردنا شرحها لملأت أسفارا كبيرة.

و مثل نظام حماية الجسد عشرات الأنظمة الأخرى المبثوثة في الطبيعة تحمي الانسان من التلاشي ، مما نعرف بعضها و نجهل الكثير ، كلها شاهدة على ان اللهسبحانه هو الحفيظ الذي أحاط الانسان بحمايته ، قال سبحانه : " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله " (١) وفي هذه الآية

جاء الحديث المأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - قـال : " يقول : بأمر الله من أن يقع في ركي " بئر " ، او يقع عليه حائط ، او يصيبه شيء ، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه و بينه ، يدفعونه الى المقادير ، و هما ملكان يحفظانه بالليل ، و ملكان بالنهار يتعاقبانه " (٢) و بالذات المؤمنين وكل بهم ملائكة يحفظونهم ، فقد روي عن النبي - صلى الله عليهواله - أنه قال " : وكل بالمؤمن مائة و ستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه ، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ، ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " (٣. (

و يظهر من هذا الحديث : أن الملائكة يذبون الشياطين عن المؤمن لكي لا يؤثروا عليه ماديا و معنويا ، و يقوم الحفظة بحفظ أعمال العباد وما تبدء منهم ، من نية و كلمة و فعلة ، قال الله سبحانه : "و إن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون بما تفعلون" (٤. (

و هكذا لا يصيب الانسان مصيبة او أذى الا بأذن الله ، إذ لولا ذلك لمنعت عنه الحفظة ، وقد قال ربنا سبحانه : " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم. "

[5]ولكي يتأكد الانسان من الحفظة فليفكر في نشأته : كيف كان نطفة (في صلب أبيه ثم رحم أمه) مهانة ضعيفة . من الذي حفظها في مسيرتها الصعبة ؟ أوتدري كم هي الانظمة الدقيقة التي تحيط بالنطفة وهي تتقلب من طور الى طور في رحم الأم ؟ وهل كان من الممكن لك وأنت نطفة أن تحفظ نفسك من

(1)الرعد / ١١

(2)نور الثقلين / ج ٢ -ص ٤٨٧

(3)تفسير البصائر / ج - 54ص ٣٥٤

(4)الانفطار / ١٠ - ١٢

الأخطار ؟

]فلينظر الانسان مم خلق[

إن هذا النظر يفتح أمام الانسان آفاقا من المعرفة ، لأنه يهتدي بذلك الى حقيقة نفسه و مدى ارتكاسها في العبودية و الحاجة فيخرج من ظلمة الغرور و الكبر و التعالي الى نور الواقعية و التواضع ، كما انه (بالنظر الى بدء نشأته) يعرف مستقبله . اوليس الانسانيعود كما بدأ ؟

[6]من الصعب علينا تصور العدم حيث أنشأنا الباري لا من شيء كان ولا مثال احتذاه ، ولكن افلا نقدر على تصور المسافة بين النطفة و بين الانسان المتكامل ؟ إذا لنعرف أن المسافة بين النشأة الأولى حينما خلقنا الله من تراب و حتى جعلنا في صورة نطفة أبعد و أعظم . أما المسافة بين العدم و الوجود فإنها لا تقاس بأية مسافة اخرى ، لأن تصور العدم من قبلنا يشبه المستحيل.

دعنا إذا ننظر الى حيث كنا قطرات من ماء دافق ، و نتساءل : كيف كنا ، والان كيف صرنا ؟ افليس الذي حولنا من تلك الحالة الى حيث نحن بقادر على ان يعيدنا بعد الموت ؟ بلى . إنه على كل شيء قدير.

]خلق من ماء دافق[

ينبعث من الصلب الى الرحم ليستقر في مقام أمين حيث ينشؤه خلقا آخر.

ولعل كلمة " من " هنا تشير الى أن هذه القطرة المتواضعة ليست كلها منشأ خلق البشر بل شيء

منها ، بلى . فإن خلية واحدة بين ملايين الخلايا هي منشأ خلقة هذا العالم الكبير الذي يختصر في بناء الانسان فإنها حين تستقر في الرحم تبدأ بامتصاص الغذاء لتنشطر الى خلايا ثم تتكون كل خلية في زاوية ليصنع الله منهاجزء من وجود الانسان بدقة و لطف حتى تكتمل نشأته.

و يجدر بنا ان نستمع هنا الى تذكرة ايمانية على لسان الامام الصادق - عليه السلام - في حديثه المفصل الى تلميذه المفضل بن عمر حيث يقول:

"نبتدئ يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به ، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم ، وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، و ظلمة الرحم ، و ظلمة المشيمة ، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ، ولا دفع أذى ، ولا إستجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة ، فانه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات ، فلا يزال ذلك غذاؤه حتى اذا كمل خلقه ، و استحكم بدنه ، و قوي أديمه على مباشرة الهواء ، و بصره على ملاقات الضياء ، هاج الطلق بامه فأزعجه أشد ازعاج و أعنفه حتى يولد ، و إذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه الى ثدييها ، فانقلب الطعم و اللون الى ضرب آخر من الغذاء ، وهو أشد موافقة للمولود من الدم ، فيوافيه في وقت حاجته اليه ، فحين يولد قد تلمظ و حرك شفتيه طلبا للرضاع ، فهو يجد ثدي أمه كالأدواتين المعلقتين لحاجته اليه ، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن ، رقيق الأمعاء ، لين الأعضاء ، حتى اذا تحرك و احتاج الى غذاء فيه صلابة ليشتد و يقوي بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس ليمضغ به الطعام فيلين عليه ، و يسهل له اساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك ، فاذا ادرك وكان ذكرا طلع الشعر في وجهه ، فكان ذلك علامة الذكر و عز الرجل الذي يخرج به من حد الصبا و شبه النساء ، وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقيا من الشعر ، لتبقى لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجال لما فيه دوام النسل و بقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الانسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى يمكن أن يكون بالإهمال ؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم ألم يكن سيذويو يجف كما يجف النبات اذا فقد الماء ؟ ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالموؤود في الأرض ؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعا ، او يغتذي بغذاء لا يلأئمه ولا يصلح عليه بدنه ؟ ولو لم تطلع عليه الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام و إساغته ، أو يقيمه على الرضاع فلا يشد بدنه ولا يصلح لعمل ؟ ثم كان تشتغل امه بنفسه عن تربية غيره من الاولاد ، ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيقى في هيأة الصبيان و النساء فلا ترى له جلالة ولا وقارا ؟! " (١. (

[7]وهذه النطفة المتدفقة من صلب الذكر تلتقي على ميعاد بأخرى من ترائب الأنثى لتلقحها.

]يخرج من بين الصلب و الترائب[

قالوا : الترائب نواحي الصدر ، واحدتها تريبة ، وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب . أما الصلب فهو عظم الظهر و مخه.

و السٌؤال : ماذا يعني أن يكون الانسان هو بين الصلب و الترائب ؟ يجيب عن ذلك بعضهم بالقول:

إن صلب الانسان هو عموده الفقري ، و ترائبه هي عظام صدره ، و يكاد معناه يقتصر على الجدار الصدري الأسفل ، و يضيف : في الاسبوع السادس و السابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ ما يسمى (جسم و ولف وقناته) على كل جانب من جانبي العمود الفقري ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلي و الجهاز البولي ، ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل و المبيض في المرأة ، فكل من الخصية و المبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلي ، و يقع بين الصلب والترأئب أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٣ - ص ٦٢.

و مقابل أسفل الضلوع ، و يضيف : وكل من الخصية و المبيض بعد كل نموه يأخذ في الهبـوط الى مكانه المعروف ، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن) وعاء الخصية) و يهبط المبيض ، حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم . (1)

[8]الحقائق الكبرى تنزلق من قلب البشر لما فيها من ثقل و فخامة ، و لذلك يحتاج الانسان الى العروج اليها عبر سلم الحقائق الجزئية التي هي مفرداتها و تجلياتها ، كما أن أشعة الشمس هي ظلال لعينها . إنما يسمو الفؤاد الى مستوى الحقائق الكبرى إذا اتخذ سلمااليها ، اما لو تركز فيها النظر و تسمرت عليها القدم فانها ستكون عقبة دون الصعود و حجابا دون الرؤية ، وهذه هي مشكلة البشر الرئيسية انه يتوقف عند الحقائق الجزئية . أفلا نرى اثار قدرة الرب في كل خلية و ذرة ، مع كل لحظة من لحظات الحياة ؟ بلى . ولكن لماذاالقلب لا يزال مرتابا في الآخرة ، ولا يزال محجوبا عن وعيها ؟ و حتى المؤمن بها بصورة مبدئية تراه يتعامل معها بشك ، لانه لا يسمو بعقله و وعيه عبر الحقائق التي تتجلى فيها قدرة الرب سبحانه ، وهكذا لا يستطيع طرد وسوسة الشيطان من قلبه . كيف يعيد الله الانسانبعد أن أضحى ترابا ؟ تعالوا نفترض : ان الخلية الحية التي خلق الانسان بها تبقى كذلك دون ان تفنى ، وانما تتلاشى الخلايا الاضافية التي اجتمعت حولها في الرحم بعد اللقاح ، و ان الله يحفظ تلك الخلية في وعاء القبر أو في أي وعاء آخر ، كما حفظها في صلب الرجل من قبل ، ثم انه سبحانه يهيء الارض لنموها من جديد كما نمت في رحم الام . او نجد في ذلك غرابة ؟ كلا .. ونحن نعرف أن الخلية الحية يمكن أن تعيــش في ظروف مختلفة و بصور شتى ، و بعض الخلايا تعيش في ظروف صعبة جدا ، فلماذا نستغرب مثلا ان تكون تلك الخلية الرئيسية من أمثالها ؟

هذه الفكرة التي قلنا آنفا انها نظرية نجدها تكفينا لحل اللغز التالي : كيف(١) تفسير البصائر / ج - 54 ص ٣٦٧.

يعيد الله الانسان بعد الموت ؟ و أقول : (تكفينا) لان قيمة النظرية حل اللغز ، ولعل نظريات أخرى تكون موجودة ، ولكن وجود نظرية واحدة تغني عن غيرها لنفي حالة التشكيك في الحقيقة.

على ان هذه ليست مجرد نظرية ، وانما وردت عليها رواية مأثورة عن الامام الصادق - عليه السلام - ، انه سئل عن الميت يبلى جسده ؟ قال : " نعم . حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها ، فانها لا تبلى ، تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كماخلق أول مرة " (١. (

وهكذا قال ربنا بعد ان ذكرنا بالنشأة الأولى أنه قادر على رجعه.

]إنه على رجعه لقادر[

[9]ولكن عودة الانسان ليست في دورة طبيعية كما يعود النبات في فصل الربيع ! كلا .. إنها عودة مقصودة كما ان خلقه في الدنيا جاء بحكمة بالغة . فما هو الهدف من عودته ؟ إظهار حقيقته.

]يوم تبلى السرائر[

الدنيا دار ابتلاء واختبار ، و من طبيعة الدنيا انها خليطة فيها الخير و الشر ، ولا يميز خيرها عن شرها بسهولة ، بينما الآخرة دار جزاء ، وكل شيء فيها ظاهر ، و يعطي الله الانسان من قوة الإحساس ما يستوعب الكثير مما لم يقدر عليه في الدنيا ، بصره يومئذ حديد ، و يذوق نار جهنم على انه لا يستطيع ان يذوق جزء من مليون جزء منها في الدنيا ، و يتنعم بنعم الجنة التي لا يمكنه ان يتنعم بجزء يسير منها في الدنيا.

(1)تفسير البصائر / ج - 54ص ٣٥٥.

و في الأحاديث المأثورة عن السرائر : انها أعمال العباد ، فقد روي عن معاذ بن جبل انه قال : سألت رسول الله : ما هذه السرائر التي إبتلى الله بها العباد في الآخرة ؟ فقال : " سرأئركم هي أعمالكم من الصلاة و الصيام و الزكاة و الوضوء و الغسل من الجنابة و كل مفروض ، لان الأعمال كلها سرائر خفية ، فان شاء الرجل قال : صليت ، ولم يصل ، وان شاء قال : توضأت ولم يتوضأ ، فذلك قوله : " يوم تبلى

السرائر" (١. (

[10]في ذلك اليوم الرهيب يقف الانسان عاريا من اي ستر ، بعيدا عن اي عذر ، لا يمكنه التبرير و النفاق و لا الكذب و الدجل . و اني له ذلك وقد اجتمعت عليه الشهود مما حوله و مما فيه ، و قلبه مفضوح على كفه نياته ، و عقائده كلها مكشوفة ؟ ! فأين المهرب ؟

قد يزعم البعض انه يقدر على منع بعض الشر عن نفسه ، كلا .. فهو اضعف من ذلك . انه منح في الدنيا القوة لكي تجرب إرادته ، و يمتحن ايمانه ، اما ذلك اليوم فهو مستسلم ذليل . وقد يزعم البعض انه يستعين بحزبه و عشيرته و والديه و أسرته ، كلا .. انهم يومئذ مشغولون بأنفسهم . وهب انهم أرادوا نصره فهل يقدرون ؟ هيهات.

]فماله من قوة ولا ناصر[

و اليوم قبل ذلك اليوم دعنا نجأر الى ربنا لعله يغفر لنا الذنوب التي اجترحناها قبل الفضيحة الكبرى أمام الملأ العظيم وقبل العذاب الشديد.

[11]و عذاب الآخرة ليس العذاب الوحيد لمن انحرف عن مسيرة الحق ، ففي(١) نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٥٢.

الدنيا عذاب أخف منه ، ولكنه في مقاييسنا عذاب شديد . إنه الهزيمة النكراء التي تلحق الكفار و المنافقين .. ذلك لأنهم شذوا عن سنن الله في السماء و الارض ، و كفروا بالحق الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وآله.

فقسما بالسماء و بالارض : ان الوحي حق ، و النذير حق ، و ليس بالهزل.

]و السماء ذات الرجع[

قالوا : الرجع يعني المطر ، و استشهدوا بقول الشاعر:

أبيض كالرجع رسوب إذا ما ثاخ في محتفل يختلي

وقال بعضهم : بل الرجع الشمس و القمر و النجوم يرجعن في السماء ، تطلع في ناحية و تغيب في الأخرى.

و قيل : بل الملائكة يرجعون بأعمال العباد.

و يبدو لي ان الأنسب الى السياق هو رجوع الأفلاك الى مراكزها بتناسب و نظم ، دون أي تغيير في مسارها ، مما يدل على رجوع الانسان الى أمر الله في يوم شاء أم أبى.

[12]و قسما بالارض التي تتصدع.

]و الارض ذات الصدع[

قالوا : تصدع بالنبات ، كما قال ربنا سبحانه : " ثم شققنا الارض شقا. "

و يبدو لي ان الارض قد جعلها الله ذلولا بحيث تستقبل المطر ، و تخرج النبات ، و تمكن الفلاح من حرثها ، و البناء من حفرها ، و طالب الكنز من استثارتها .. و كلذلك يدل على حكمة الله البالغة من خلقها.

[14 - 13]كما الطبيعة تجليات لسنن الله ، و مظاهر أسمائه الحسنى ، كذلك الوحي تجل لآياته ، و بيان لسننه ، و مظهر لأسمأئه.

]انه لقول فصل * وما هو بالهزل[

يفصل بين الصواب و الخطأ و الحق و الباطل ، كما ان يوم القيامة يوم الفصل.

وقد روي عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - عن النبي - صلى الله عليه واله - أنه قال : " سمعت رسول الله يقول : كتاب فيه خبر ما قبلكم ، و حكم ما بعدكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله " (١. (

وقد جاءت هذه الكلمة في هذا السياق لكي لا يلجأ الانسان من هول ما يسمعه الى التكذيب ، و يقول في نفسه :لعل هذا الوعيد نوع من التخويف المبالغ فيه.

كلا .. فليس في القرآن كلمة كاذبة او مبالغة ، ولا حرف ولا إيفاء حرف . انه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و هكذا يسد السياق كل منافذ الفرار النفسي من مواجهة الحقيقة الكبرى التي تنتظر الجميع (حقيقة الجزاء) فلا إخفاء و لا تبرير ولا محاورات الإستنصار بالآخرين او التهرب من الحقيقة بتكذيبها.

[15]ولا يقتصر الكفار على تكذيب رسالات الله للتهرب من الحقائق التي(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص . 11

تذكر بها ، و انما يحاربونها بشتى ألوان الحرب حتى يصنعوا حجابا نفسيا و اجتماعيا بينهم و بينها فلا يتأثروا بها أبدا.

]انهم يكيدون كيدا[

و الكيد هــو : التلطف لبلوغ الهدف بأساليب مختلفة ، و يستخدم في الشر و الخير ، و ان كانت الكلمة توحي بالشر . و الكلمة المرادفة لها في أدبنا اليوم : الخطة ، و يبدو ان مجمل مساعي الكفار و من هم في خط النفاق و الفسق تتجه نحو تغيير مسار الحق ، و إخفائه بالباطل الذي يبتدعونه ، و الصد عنه بالمكر و الكيد . انه الخط الاستراتيجي للكفر.

ومن خصائص الكيد التوسل ببعض الخطط الخفية التي لا تبلغ الهدف إلا عبر مراحل عديدة ، و قد يضع الكفار خطة خمسية او عشرية او حتى بعيدة المدى لعلها تبلغ هدفها بلا عقبات ، لانها في زعمهم خطة محكمة سرية و متواصلة الحلقات.

بيد ان خططهم لا تهدف الرسول كشخص ، ولا المؤمنين كطائفة ، بل تهدف الرسالة التي يدعون اليها ، و غريمهم في ذلك لن يكون المؤمنون او الرسول و حسب بل رب العزة جبار السماوات و الارض سبحانه تعالى.

[16]و إذا كان الكفار يسعون لبلوغ هدفهم عبر خطط متناهية في الدقة بزعمهم فان كيد الله متين . كيف يكيد الله لهم ؟ انه سبحانه يهيء اسباب تدميرهم على حين غفلة منهم . أرأيت كيف يدبر الشرطة مثلا خطة للايقاع بالمجرمين (مما قد تصوره الأفلام البوليسية) ،و يخطط المجرمون لجريمتهم باتقان و يخطط الشرطة ، و المجرمون لا يعرفون شيئا عن خطط الشرطة ، بينما رجال الشرطة يعرفون ما يجري هناك ؟!

وفي ساعة الصفر حينما تبلغ خطط الكفار مرحلة التنفيذ ، و يكادون يسطون بالنبي و المؤمنين ، تكون

أسباب تدميرهم قد تهيأت ايضا ، و تتجلى ساعتئذ قدرة الله . إنها تأخذهم أخذا وبيلا.

]و اكيد كيدا[

[17]بيد ان هذه الخطة و تلك و كل خطة تأخذ عامل الزمان في الحسبان ، و لذلك فان من يكيد كيدا لا يمكنه ان يلغي الزمان ، و ينبغي ان يعرف المؤمنون ذلك ,ولا يستعجلوا في تنفيذ خطط الرسالة ، ولا يقلقوا من تأخير النصر ، لان هناك مهلة معينة لابد ان تنتهيقبل أخذ الكفار.

]فمهل الكافرين[

مهلة بعد مهلة ، و فترة بعد فترة ، فلعل تغييرا يطرأ على تنفيذ الخطة ، و لكنها بالتالي لن تكون مهلة طويلة.

]امهلهم رويدا[

مهلة قليلة و لطيفة و بلا صخب او ضوضاء ، و لكن لماذا يمهل الله الكفار ؟

اولا : لأنهم ايضا بشر مخلوقون ، و ان الله سبحانه يريد امتحانهم كما يمتحن بهم ، و لعلهم يرجعون.

ثانيا :لان للصراع بين الحق و الباطل فوائد شتى في بلورة رؤية المؤمنين ، و تزكية قلوبهم ، و تمحيص نفوسهم ، و تطهير صفوفهم ، من المنافقين.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ " سبح اسم ربك الأعلى " في فرائضه او نوافله قيل له يوم القيامة : أدخل الجنة من أي أبواب الجنة شُئت. "

و روي عنه - عليه السلام - انه قال : " الواجب على كل مؤمن اذا كان لنا شيعة ان يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة و سبح اسم ربك الأعلى "نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٥٣

الاطار العام

كما خلق الله الكائنات فسواها و أتم صنعها ، كما قدر لها شؤونها ، و ألزمها بسنن ، و هداها اليها ، كذلك قدر للانسان ما يصلحه ، و جعل له سبل السلام التي تهديه الى غاياته الكريمة ، و بعث اليه رسالته التي تهديه اليها.

و لا تحدد غاية الانسان بما في الدنيا من عافية و أمن و تقدم و سعادة ، بل و ايضا بما في الآخرة التي هي خير و أبقى.

بماذا يهدي الله الانسان الى الفلاح ؟ بالقرآن الذي يقرؤه الرسول فلا ينسى منه حرفا ليذكر به الناس ، و لكن من الذي يتذكر ؟ انما الذي يخشى ، بينما الذي يسد منافذ قلبه من دون التذكر فهو الأشقى الذي يصلى النار الكبرى فلا يموت فيها و لا يحيى.

و اذا استطاع الانسان الإقلاع من جاذبية الدنيا و التحليق في أفق الآخرة التي هي خير و أبقى فانه يخطو الخطوات الأولى على طريق الفلاح ، أما الثانية فالخشية فالتذكر ، و بعدهما تأتي التزكية كخطوة

ثالثة تحمله الى الصلاة و الزلفى الى رب العزة.

هكذا تتواصل آيات سورة الأعلى لتذكرنا ببلاغة نافذة بذات الحقائق الكبرى التي لابد ان نعيهـا حتى نبلغ الفلاح . و إنها لمعجزة القرآن ان كل سورة منه تذكر بذات الحقيقة ، و لكن بطريقة متميزة جديدة .. بلى . ان الحقائق الكبرى تتجلى في مظاهر شتى لانها غير ما نشهده من الحقائق الجزئية ، وهي خلاصة صحف الله التي بعثها الى انبيائه العظام كإبراهيم و موسى عليهما السلام.

سبح اسم ربك الأعلى
بينات من الايات

[1]لإسم الله عظمة مشتقة من عظمته ، لانه يدل عليه و يذكرنا به ، و يشهد على جلاله و جماله و مجده و كبريائه ، و لأن ربنا المتعال خلق في البدء إسمه الأعظم ، و جعله على أربعة اختص بواحد فجعله مكنونا عنده لا يطلع عليه أحد من خلقه ، و جعل الثلاثة في كلمات : الله ، و تعالى ، و تبارك ، ليهدينا الأول الى ذاته ، و الثاني الى صفاته ، و الثالث الى أفعاله ، ثم خلق الله الأشياء بإسمه ، و ما نراه في الخليقة من آثار عظمته ليست سوى تجليات لأسمائه.

وهكذا أمرنا بأن ندعوه بأسمائه فقال سبحانه : " و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها. "

وما نقرؤه في الأدعية المأثورة تأويل لهذا الأمر الالهي حيث نتوسل الى الله سبحانه بأسمائه الحسنى ، و نقول : " أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات و الأرضون و انكشفت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الأولين و الأخرين ، منفجاءة نقمتك ، و من تحويل عافيتك ، و من زوال نعمتك " (١. (

"اللهم إني أسألك بإسمك العظيم الأعظم ، الأعز الأجل الأكرم ، الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت ، و إذا دعيت به على مضائق أبواب الأرض للفرج إنفرجت و إذا دعيت به على العسر لليسر تيسرت ، و إذا دعيت به على الأموات للنشور إنتشرت ، و إذا دعيت به على كشف البأسآء و الضرآء انكشفت " (٢. (

و في ادعيتنا الماثورة عن النبي و اهل بيته الطاهرين - عليه و عليهم صلوات الله - تشكل اسماء الله الحسنى ركنا اساسيا فيها ، مثل دعاء الجوشن الكبير الذي يشتمل على ألف اسم وصفة من أسماء الله وصفاته ، و دعاء البهاء ، و دعاء كميل ، و ما اشبه (٣. (

أرأيت ما هذه الأسماء ؟ حقا : ان عقولنا لا تحيط علما بها ، كيف و هي لم ولا تستطيع الاحاطة علما بكل خلقه ، و خلقه مظهر من مظاهر أسمائه ؟ ولكن الله آتانا من العلم ما نشير به الى اسمائه و ندعوه بها .. ثم عرفنا بها بما اوحى الى نبيه من كتاب و اجرى علىلسان اوليائه من علم كان بمثابة تفسير للكتاب ، و هكذا كانت الأسماء مظاهر عظمته ، و آيات شهادته و هيمنته ، لا نقدسها الا بهذه الصفة ، ولا نسبحها الا بهذا الاعتبار ، فلانها الوسيلة اليه تقدس ، و لانها السبيل الى معرفته تسبح.

و من قدس الاسم دون المسمى او مع المسمى فقد اشرك بربه سبحانه ، انما تقديسنا للاسم بصفته إسما للمعنى و وسيلة اليه لا اكثر.

(1)مفاتيح الجنان / دعاء الرسول ليلة النصف من شعبان.

(2)المصدر / دعاء السمات.

(3)راجع مفاتيح الجنان للمحدث الشيخ عباس القمي.

هكذا نجد في بعض آيات الذكر تسبيحا لله وفي بعضها لاسمه ، فاذا سبحنا الله فانما بوسيلة أسمائه ، لانه لا سبيل لنا الى معرفة ذاته ، و اذا سبحنا اسم الله فانما لانه اسم لله ، و سبيلنا لمعرفة الله ، ولاننا لا نقدر على معرفته الا بإسمه سبحانه.

قال الله تعالى : " سبح لله ما في السماوات و الارض وهو العزيز الحكيم " (١) ، " يسبح لله ما في السماوات و ما في الارض الملك القدوس العزيز الحكيم " (٢) ، و قال : " و سبحوه بكرة و اصيلا " (٣) ، كما قال : " بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق (4) "، "تبارك اسم ربك ذي الجلال و الاكرام " (٥) ، و هكذا جاءت صفتا الجلال و الاكرام للرب بينما نجد في آية اخرى جائتا صفة لوجهه سبحانه ، فقال : " كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام " (٦. (

فهل في ذلك تناقض ؟ كلا .. لان وجه الله لا يراد الا لله ، فهو مجرد وسيلة ، كما ان الجلال و الاكرام الالهيين يتجليان بوجهه لنا.

وهكذا أمرنا الله في فاتحة سورة الأعلى بتسبيح اسم الله الذي هو تسبيحه سبحانه:

]سبح اسم ربك الأعلى[

و لذلك روي عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه و اله - : كان النبي(١) الصف / ١.

(2)الجمعة / ١.

(3)الاحزاب / ٤٢.

(4)العلق / ١.

(5)الرحمن / ٧٨.

(6)الرحمن . 27 - 26

-صلى الله عليه و اله -اذا قرأ " سبح اسم ربك الأعلى " قال : " سبحان ربي الأعلى " و كذلك روي عن علي عليه السلام (١. (

و روي عن الامام الباقر - عليه السلام - : " اذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى " فقل : سبحان ربي الأعلى ، و ان كنت في الصلاة فقل فيما بينك و بين نفسك. (2) "

و روي عن ابن عامر الجهني انه قال : لما نزلت " فسبح باسم ربك العظيم " قال رسول الله - صلى الله عليه و اله - : " اجعلوها في ركوعكم " و لما نزل : " سبح اسم ربك الاعلى " قال : " اجعلوها في سجودكم. (3) "

وهذه النصوص تدل على ان تفسير الآية تسبيح الله لا مجرد تقديس إسمه ، لذلك حذف الاسم عند تسبيحة الركوع و السجود ، او عندما يسبح الله بعد قراءة هذه الاية.

و قال بعضهم : تنزيه اسم الله تعالى و تسبيح إسمه يتم بان يجرد القول عن ذكر مالا يناسب ذكره مع ذكر إسمه تعالى ، فلا ينبغي ان يذكر الأنداد مع إسمه ، كما كان يفعل المشركون الذين لا يذكرون الله الا مع الشركاء من دونه اما إذا ذكر وحده اشمأزت قلوبهم ،كما قال سبحانه : " و إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة و إذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون " (٤. (

ولكن يبدو ان هذا التفسير لا يتناسب مع السياق ولا مع سائر البصائر القرانية(١) نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٥٣.

(2)المصدر / ص ٥٥٤.

(3)المصدر / ص ٥٥٤.

(4)الزمر / ٤٥.

حول اسم الله ، فاذا كان اسم الله يعني كلمة الله و ليس المسمى و هو الله سبحانه فما معنى " بسم الله الرحمن الرحيم " ؟ هل الاستعانة تتم بالله ام بكلمة الله ؟ سبحان الله و تعالى ان تتم الاستعانة بغيره أنى كان.

و جاءت صفة " الأعلى "للشهادة على ضرورة تسبيح الله اذ انه ربنا و انه الأعلى و هل يسبح احد سوى الرب الأعلى ؟

[2]ما الذي يدعونا الى تسبيح الله و تقديسه ؟ حينما يرفع الانسان عن عينيه غشاوة الغفلة ، و عن إرادته حجب الجحود ، و ينظر الى ما حوله في أبعاد الكائنات ، و يستمع الى همساتها ، و يندمج مع ايقاعات تسبيحها ، و يلتقط اشارات حركتها .. هنالك ينتقل الى افاق معرفة ربه فلا يتمالك الا ان يسبح بحمد ربه . انه يرى سماء حفيظة تحيط به ، و أرضا و ديعة تحمله و تتذلل له ، و كائنات نباتية و حياتية تنشط بين أرجاء الارض و آفاق السماء ، كل منها خلق بصورة مختلفة عن نظيراتها ، و لكنها جميعا تتناغم و كأنها فرقة انشودة، من أبعد نجمة الى أصغر ذرة ،، من أضخم شجرة الى أصغر نبتة ، من الحوت حتى أصغر سمكة ، من الفيل حتى أنعم حشرة ، من العقاب حتى البعوضة .. كلها و كلها قد خلقت بدقة متناهية . هل سمعت نبأ الذرة التي لا ترى ، و كيف بنى الله في عالمها الكبير الصغير مملكة عظيمة ؟ لو قستها بالمجرة التي لا نستطيع ان نتخيل عظمتها لراياهما قد خلقتا جميعا بقدر عظيم من الدقة و التنسيق ... و لكن المجرة هي - في الواقع - مجموعة عظيمة من الذرات ، و هي هي ذات الحقيقة تتجلى مرة في شكل ذرة و مرة في صورة مجرة .. وما بين الذرة و المجرة ملايين الملايين من المخلوقات المتنوعة ، قد خلقها الله خلقا سويا في ذاتها ، و قدر لكل واحد واحد منها هدفا و مسيرة ، و هداها الى هدفها و مسيرتها ، و كذلك قال ربنا العزيز:

]الذي خلق فسوى[

و الخلق قد يكون بمعنى الانشاء او الصنع بعد الانشاء ، و تسويته بمعنى تكميله حتى لا يحتاج الى شيء لتحقيق ما خلق له الا وقد أعطاه ، و لا تجد ثغرة في خلق الله تعالى و لا فطورا ، و لا نقصا كبيرا او صغيرا.

[3]و قدر لكـل خلق من الكائنات جمادا او نباتا او حيوانا او انسانا هدفا الزمه به ، و جعله يسعى اليه ، و حدد لكل هدف وسيلة ، ولكل غاية سبيلا ، وهدى كل شيء إلى ما قدر له .. أما الجمادات فقد هداها بما أوجد فيها من قوة و إمكانية ، و بما أوجد فيما حولها من ضغوط ، مثلا : لعل التفاحة لا تحس لماذا خلقت ؟ و لا تهتدي بذاتها الى هدفها المتمثل في إغناء جسد الانسان بما يحتاجه من فيتامين و روحه بما تتطلع اليه من جمال و روعة ، و لكن الله جعل التفاحة هذه الخصائص ، و جعـل فـي الانسان حاجة اليها ، فجعل سعيالانسان اليها بمثابة سعيها اليه ، على اننا لا نملك معرفة بما في واقع التفاحة او اي جماد او نبات او حيوان من تحسس.

ولكي تزداد معرفتنا بالله و تسبيحنا له ننقل فيما يلي مقاطع من كتاب (العلم يدعو للايمان) الذي ينقل إلينا الكاتب الأمريكي (كريسي موريسون) رُئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فيه بعض آيات الله في الطبيعة:

)ان الطيور لها غريزة العودة الى الموطن ، فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبا في الخريف ، و لكنه يعود الى عشه القديم في الربيع التالي ، و في شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا (في أمريكا) الى الجنوب ، و قد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق البحار ، و لكنها لا تضل طريقها.

و النحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب و الأشجار ، كلذلك دليل يرى ولا بد

ان للحشرات الدقيقة عيونا ميكروسكوبية (مكبرة) لا ندري مبلغها من الاحكام ، و ان للصقور بصرا تلسكوبيا (مقربا. (

و يضيف : ان العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الاحجام في المشط الذي يستخدم في التربية ، و تعد الحجرات الصغيرات للعمال ، و الأكبر منها لليعاسيب (ذكور النحل) ، و تعد غرفة خاصة للملكات الحوامل . و النحلة الملكة تضع بيضا غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور ، و بيضا مخصبا في الحجرات المعدة للعاملات الإناث و الملكات المنتظرات و العاملات اللائي هن إناث معدلات بعد ان انتظرن طويلا مجيء الجيل الجديد تهيأن ايضا لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل و اللقح و مقدمات هضمه ، ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور و الإناث ، ولا يغذين سوى العسل و اللقح ، و الإناث اللائي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات) (١. (

من الذي قدر للنحل أمره و هداه اليه ، و من الذي علم الطيور رزقها و مسراها ، و هدى كل حي الى ما يصلحه و ما قدر له . أليس الله ؟ فسبحان ربي الأعلى.

دعنا نستمع الى قصة لعنكبوت مائي : يقول الكاتب المذكور:

)ان إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد (بالون) من خيوط بيت العنكبوت ، و تعلقه بشيء ما تحت الماء ، ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها ، و تحملها الى الماء ثم تطلقها تحت العش ، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش ، و عندئذ تلد صغارها ، و تربيها آمنة عليها من هبوب الهواء . فهاهنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة و تركيب و ملاحة جوية. (

(1)في ظلال القران / ج - 6ص ٣٨٨٥.

وهكذا يقدر الله لهذا الحيوان او ذاك النبات ما يصلحه ثم يهديه اليه ، فسبحان ربنا الأعلى ، و لكن ذلك لا يختص بالحيوان المتكامل او النبات التام بل حتى الخلايا هداها الله لما قدرت له بطريقة غريبة ، يقول المؤلف:

)كل خلية تنتج في اي مخلوق حي يجب ان تكيف نفسها لتكون في موقعها المناسب و الذي قدرت له مثلا ان تكون جزء من اللحم او ان تضحي بنفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى يبلى ، و عليها ان تصنع ميناء الأسنان ، و ان تنتج السائل الشفاف في العين ، او ان تدخلفي تكوين الأنف او الأذن ، ثم على كل خلية ان تكيف نفسها من حيث الشكل و كل خاصية اخرى لازمة لتأدية مهمتها ، ومن العسير ان نتصور ان خليـــة ما هي ذات يد يمنى او يسرى ، و لكن احدى الخلايا تصبح جزء من الأذن اليمنى ، بينما الاخرى تصبح جزء من الأذن اليسرى ،و ان مئات الآلاف من الخلايا تبدو كانها مدفوعة لان تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب و في المكان الصواب) (١. (

وهكذا الخلية الواحدة تصلح ان تكون مدرسة توحيدية شريطة ان تصبح تلميذا فيها ، فهل أنت مستعد ؟

[4]و لكن هذه القدرة الهائلة التي تتجلى في الكائنات ليست قدرة ذاتية فيها ، بل هي من عند ربها ، و هكذا تعيش كلها دورة حياتية معينة لا تلبث ان تساق نحو الفناء حسب تقدير ربها ، و ان في ذلك لآية على ان ما بها من قدرة و قوة و حول و طول فهي من عند الله، و ان ما فيها من نقص و عجز و حد و قيد لشاهد على تعالي بارئها منها ، و انه قدوس سبحانه بلا نقص ولا عجز و لا حد ولا قيد.

و يضرب القرآن لنا مثلا ظاهرا لهذه الدورة الحياتية السريعة ، و يقول:

(1)المصدر / ص ٣٨٨٧.

]و الذي أخرج المرعى[

فلقد كانت الأرض حبلى بالمواد التي جعلها الله بالماء و أشعة الشمس نباتا ، فاذا باديمها يخضر بالعصف و الريحان ، و لكن كم يدوم ذلك ؟ ليس إلا أياما معدودة.

[5]و بعد أيام تتحول الأرض الى بساط أصفر ، و تتراكم أوراق الشجر و بقايا الحصاد الى غذاء للاحياء بعد المواسم . و إذا بقت المراعي هكذا و تراكمت عليها طبقات من التراب أصبحت فحما حجريا تنتفع منه الأجيال القادمة . لا شيء من خلق الله يذهب باطلا . انه يصبح مادة لخلق جديد او ما ينفع الخلق الجديد.

]فجعله غثآء أحوى[

قالوا :أصل كلمة الغثاء زبد السيل و ما يتجمع في اطراف المياه من بقايا النبات و القماش ، و يقال للبقل و الحشيش إذا تحطم و يبس . أما الأحوى فانه الأسود ، و إذا تراكم النبات و اشتد اخضراره تراءى كأنه سواد ، و من هنا سميت أرض العراق بأرض السواد.

ما هذه القدرة التي تقلب الأرض كيف تشاء ، فحينا تستخرج نباتها ، و آخر تدعها بلقعا تتجمع حولها الغثاء الأحوى ؟

و كما الدورة النباتية السريعة كذلك دورة الحياة عند الانسان انها تدور بسرعة فاذا باخضرار الحياة تتحول الى سواد الموت ، و هكذا الاخرة هي خير من الاولى لمن بصر و عقل.

[6]لا تنفصل رسالات الله عن السياق العام لمسيرة الكائنات . انه الله الذي تشهد الخلائق بقدسه و عظمته يبعث الينا رسولا و يحمله كتابا و هدى ، فأيتهاالسماء اخشعي ، و يا أرض قري ، و يا ايها الانسان استعد لتلقي رسالة الله اليك و التسليم للرسول الكريم.

]سنقرئك فلا تنسى[

أولــم يأتك نبأ حراء حيث هبط الروح جبــرئيل على محمد الصــادق الأمين فقال له اقــرأ .. و تـواصلت آيات اللــه : " إقرأ باسـم ربك الذي خلق * خلق الانســان من علق ... " ، هكذا أقرأ الله نبيه قراءة واضحة مبينة ، فلم تكن وساوس في صدره ، ولا افكار بقلبه ، و لم تكن حقائق مجردة يعرف بعضها و يجهل الكثير ، كلا .. انها كلمات واضحة تلقاها الرسول ، و نطق بها بوضوح ، و هذا هو معنى إقراء الله له جملة بجملة و كلمة بكلمة و حرفا بحرف.

و حين يكون المقرىء هو الله و المتلقي من اختاره بعلم لحمل رسالته المهيمنة على كل الرسالات فان الرسول لا ينسى باذن الله ، ليس لانه يخرج من حد البشر الذي يجوز له النسيان ، بل لان ربه أبى ان ينسى ، فالضمانة هنا من عند الله ، ومن كان الله ضامنا له كيف ينسى ؟! انها حقيقة العصمة كما يفهمها أهل البصائر ، ان يقي الله عبدا من عوامل الانحراف و مزالق الضعف و مراكز الهوى و الشهوات.

[7]و لكي لا يزعم البسطاء من الناس ان الرسول يصبح بالرسالة إلها أو نصف إله لم يدع كتاب الله هذه التذكرة .. في أغلب ما حدثنا عن رسله الكرام انه إما بين نقاط ضعفهم التي يجبرها الله بعصمته او حالتهم البشرية أو ان لله المشيئة في أمرهم حتى عند وعده اياهم ، فلا يقدر أحد ان يحتم عليهم أمرا ، بلى . ان الله صادق الوعد و لن يخلف وعده أبدا ، و لكن فرق واسع بين ان يكون كذلك و ان يحتم عليه أحد من خارج إطار فضله و رحمته و مشيئته شيئا.

هكذا نستوحي من الآية الكريمة هذه التذكرة.

]إلا ما شاء الله[

كما قال ربنا سبحانه في قصة شعيب : " قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنــك يا شعيب و الذين آمنــوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها و ما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الفاتحين " (١. (

فهل يشاء الله ان يعود المؤمنون الى ملة الكفر ؟ و كما قال ربنا سبحانه في اصحاب الجنة : " و اما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات و الارض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ " (٢. (

و يتساءل القارىء : إذا ما هي علاقة علم الله بالسر و العلن بهذا الاستثناء ؟ حيث يقول ربنا:

]إنه يعلم الجهر و ما يخفى [

و الجواب : اننا نجد مثل هذه العلاقة في آية الأعراف في قصة شعيب إذ انه قال " :إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما " ، ذلك أن من بيده المشيئة و القدرة على الإستثناء هو العليم الذي لا ينسى ، و هو الذي يحفظ النبي من النسيان ، حسب حكمته البالغة.

و لعل هذه الكلمة تتصل بقوله "سنقرؤك " فهو يقرىء ما يشاء لانه عالم الجهر و ما يخفى.

(1)الاعراف / ٨٨ - ٨٩ .

(2)هود / ١٠٨.

وقد فصل المفسرون القول في هذه الكلمة ، و ذهب بعضهم مذاهب بعيدة حيث انه قال :ان المــراد بما شاء الله نسيانه هو ما نسخ من الكتاب نصا . و لكن الآية لا تدل عليه ، و لم يثبت تاريخيا ان في القرآن آية منسوخة (بهذا المعنى من النسخ) ، بل و سياق آيات القران و هذه الاية بالذات ينفي ذلك تماما . كيف ؟

اولا : ان الله سبحانه يصف كتابه بانه كتاب عظيم ، و انه هدى للعالمين ، و انه نور مبين ، و انه آخر رسالة إلهية الى خلقه ، فكيف يسمح ربنا لمثل هذا الكتاب ان يتعرض للدس و التزوير و التحريف و النسيان ؟

ثانيا :ان النبي آمن بهذا الكتاب و آمن به المؤمنون و آمنوا جميعا بهذه الصفات التي نجدها فيه فكيف تركوه عرضة للنسيان و التحريف ، علما بانهم اصبحوا بناء حضارة رائدة ، فلم يتعرض المسلمون - كمجموع - لحرب إبادة حتى يمكن الافتراض ان ظروف العمل السري أنستهم بعض ما في كتابهم.

ثالثا : شاعت القراءة و الكتابة في عهد الاسلام الاول ، و قد اهتم المسلمون بكل تفاصيل تاريخهم ، و حتى ببعض ما يهمله عادة الكتاب و المؤرخون ، و قد رغب القران في ذلك ، و أقسم بالقلم و بما يسطرون ، فكيف ضاعت عليهم كلمات ربهم مع ذلك الاهتمام الذي أولوهلها ؟

رابعا : هنا القرآن يقول للرسول - صلى الله عليه واله - " سنقرؤك فلا تنسى " فأية حكمة كانت وراء الاقراء و عدم النسيان ؟ أليست بقاء رسالة الله التي هي خاتمة رسالاته للعالمين ؟ فكيف يمكننا ان نفترض تعرض هذه الرسالة للتحريف ؟

إنني اعتقد - انطلاقا من هذه الشواهد و غيرها - ان القرآن الذي بلغنا هوالذي أنزل من عند الله و بهذا الترتيب ، و ان الذي جمعه هو شخص الرسول - صلى الله عليه و اله - عبر الذي كان يأمرهم بان يضعوا الآية في موقعها من السورة حتى ولو نزلت آية في اول البعثة في مكة و الأخرى في المدينة وفي آخر أيام حياته.

لانني لا أتصور كيف يمكن للرسول ان يترك كتاب ربه العظيم بلا ترتيب و قد أمر بإبلاغه للعالمين ؟!

[8]كما قدر الله لكل شيء تقديرا و هداه الى تقديره كذلك قدر للانسان تقديرا ، و جعل لحياته سننا و مناهج ثم هداه اليهما و لكن بصورة مختلفة عن سائر الأشياء و الأحياء .. فلقد زوده بالعقل و استثار عقله بالوحي ، و حمله الإرادة و المسؤولية ، حتى يكتشف ببصيرة عقله و هدى الوحي اي السبل تؤدي به الى اهدافه ، فان سار على سبل السلام تيسرت أهدافه ، و إذا تنكب عنها وقع في حرج عظيم . أرأيت الذي يترك الطريق المعبد الى المتاهات الوعرة ، انه لا يبلغ أهدافه ، و لو بلغ شيئا منها فانما بجهد مضاعف.

]و نيسرك لليسرى[

لم يخلق الله الانسان ليعذبه ، أو ليلهو و يلعب بخلقه سبحانه ، و لكنه خلقه ليرحمه ، و ليتفضل عليه بمنه و كرامته ، كما لم يخلق حيا ليعذبه أو يلهو به ، و أما الذي يقع على البشر من عذاب و من مشاكل فبما كسبت أيديهم . هكذا فسروا اليسرى بالشريعة السمحاء التي وفق الله النبي و أمته اليها لكي يعيشوا بأمان و سكينة.

انها الشريعة التي تبعث رؤى و بصائر الانسان من وجدانه ، و تتناسب مع فطرته و حاجاته ، و تنسجم مع الطبيعة من حوله.

إن دين الله يختار بين مناهج المرفة ذلك المنهج القائم على أساس إستثارة الفطرة و مخاطبة الوجدان دون لف و دوران ، و يرغب الانسان للنظر بنفسه في الأشياء ، و ملامسة الحقائق بالسير في الأرض و التفكر في آثار الغابرين و مراقبة ظواهر الطبيعة.

و يتبع هذا المنهج في سائر ما يحتاج اليه الانسان من معارف ، في عقائده و أحكامه ، في معاملته مع الآخرين ، لان الإطمئنان و الثقة و العرف و شهادة العدول و رأي الخبراء هي موازين التعامل بين الناس ، و هي إذا قيست الى غيرها من المناهج المعقدة في سائر الأديان سهلة و ميسرة.

كما ان احكام الدين في المواقيت و المكيال و الميزان تتصل بالحالة الظبيعية للانسان . أرأيت كيف أوجب الصلاة قبل طلوع الشمس و بعد الغروب و عند دلوكها ، و أوجب الصيام مع الهلال الذي يشهده الجميع ؟

و لم يهمل أي حاجة من حوائج البشر ، فلا حرم الزواج ، و لا نهى عن زينة الحياة الدنيا ، ولا ضيع العواطف ، و لا أهمل تطلعات الروح .. و اي شريعة ايسر من التي تتناسب و حاجات البشر ؟

ولعل هذا هو سر انتشار الاسلام عبر القرون بصورة مطردة ، و لا يزال الدين الاسلامي هو الاول في نسبة زيادة عدد المنتمين اليه كل عام.

وقد وفق الله رسوله - صلى الله عليه وآله - لتقبل الوحي ، و يسره له ، و يسر معارف القرآن لمن أراد بتوفيق منه ، ولولا ان الله يسر ذلك لما استطاع العقل معرفة كلمة واحدة من كلمات الرب.

[9]لان الله يسر شريعته للناس ، و يسر الحياة لهم بها ، أمر بالدعوة اليها عبرالمنهاج الميسر المتمثل في التذكرة . أليست التذكرة تستهدف إثارة العقل و إيقاظ الضمير ليبصر الانسان الحقيقة بنفسه و من دون حجاب او وسيط ؟

]فذكر[

ولكن هل التذكرة تنفع الناس جميعا شاؤوا الإنتفاع بها أم أبوا ؟ كلا .. إنها لن تنفع من لا يخشى ، لانها إثارة العقل من داخل الانسان ، و شرط نفعها استعداد الانسان للتأثر بها ، أما القلب الجامد الجاحد المتصلب فانه أشد من الصم الصياخيد ، و هكذا قال ربنا:

]ان نفعت الذكرى[

يعني ان تذكرتك نافعة مع وجود الشروط الموضوعية لها ، اما بدونها فهي لا تنفع ، لا لنقص فيها و انما للصد من قبلهم ، و هذا لا يعني الكف عن التذكرة ان لم تنفع إذ لا يفهم نفعها او عدم نفعها إلا بعدها ، و هذا مثل ان نقول : طلعت الشمس إن رأيتها ، هذا واضحإن فكرت.

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية ، قال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع ، و المعنى : فذكر ان نفعت الذكرى وإن لم تنفع فحذف ، كما قال : " سرابيل تقيكم الحر " .. ، وقال ابن عباس : تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي ، و قال البعض : " ان " هنا بمعنى إذ كقوله : " و أنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين " .

و الأقرب : ان كلمة " إن " هنا الشرطية في الظاهر ، و لكن المراد منها هنا ليس ظاهرها ، كما ان أداة الإستفهام تطلق و يراد بها التقرير او الإنكار او ما اشبه ، و لان الذكرى تسبق معرفة نفعها و عدم نفعها فان الشرط انما هو لبيان فائدة التذكرة لااصلها ، و يستفاد ذلك من السياق الآتي.

[10]التذكرة للجميع . انها موعظة للمؤمن ، و حجة بالغة على الكافر ، و الدليل ان المؤمن يتذكر بها ، بينما الأشقى يتجنبها.

]سيذكر من يخشى[

الخشية ميراث المعرفة ، فمن لم يفكر في المستقبل و لم يعش وعيه لا يستعد له ، فلا يبحث عما ينفعه فيه ، ولا يتحذر ما يضره فيه.

و هكذا جعلت الخشية التي هي فعل الانسان نفسه شرطا لنفع الذكرى . لنعرف ان علينا ألا ننتظر الهدى من دون سعي منا اليه ، بلى . لو تقدمت الى الله شبرا تلقاك رب الرحمة بفضله مترا و أكثر.

[11]اما الكافر الذي بلغ من الشقوة درجة سدت أبواب المعرفة أمامه فانه يتجنب التذكرة.

]و يتجنبها الاشقى[

فهو يهرب منها كما لو انها تضره ، و يضع أمامه حواجز لكي لا تصل اليه ، و يلفق حول صاحبها التهم عساه يقنع نفسه بانه على حق ، و هو الأشقى لانه لا يرجى له علاج ، فقد يكون الأقل منه شقوة ينتفع بالذكرى في بعض ساعات حياته.

[12]ومثل هذا الانسان لا يصلح إلا للنار ، لانه أعدم كل عناصر الخير في ذاته.

]الذي يصلى النار الكبرى[

ليست كهذه النار التي نراها في الدنيا . انها أشد و أبقى ، و قد بين الحديثالمأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - مدى الفرق بينهما بالقول " :ان ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم ، وقد أطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت ، ولولا ذلك لما استطاع آدمي أن يطيقها " (١. (

[13]و السؤال : كيف يتحمل جسم الانسان هذه النار العظيمة فلا يحترق و يصبح رمادا او غازا كما أصبحت الأشياء التي أحترقت بنار القنبلة الذرية ، و التي لا ريب انها اقل بكثير من نيران جهنم ؟

بلى . ربنا يعطي الجسم المزيد من الامكانات تمهيدا لتألم صاحبه . أولم يقل ربنا سبحانه : " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العداب " ؟

و هكذا يبقى الأشقى في النار بين الموت و الحياة ، فكل اسباب الموت موجودة ، و كل عوامل الحياة

مفقودة ، و لكنه لا يموت بقدرة الله.

]ثم لا يموت فيها ولا يحيى [

و مثال ذلك في الدنيا ان بعضهم يبتلى بعذاب الدنيا من فقر و مرض و سجن و قلق و .. و .. ولكنه لا يموت فيستريح ، فيقول مع الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها و لا تحيا حياة لها طعم ؟

[14]تلك كانت عاقبة الذي يتجنب التذكرة ، اما الذي تذكر فانه يتدرج في معارج السمو حتى يبلغ الذروة ، كيف ؟ انه بعد التذكر يزكي نفسه من رواسب الشرك بالله ، فلا يقدس أحدا سواه ، بل لا يخاف أحدا حق الخوق ولا يرجوه حق الرجاء ما سوى ربه الأعلى ، و يسعى لتطهير قلبه من حب الدنيا ، و التكاثر منها ، و التنافس على حطامها ، و يتحرر من الغل تجاه إخوانه ومن الحسد(١ (تفسير نمونه / ج ٢٦ - ص ٤٠٠ نقلا عن موسوعة البحار ج ٨ - ص ٢٨٨.

و الحقد و العصبية ، و هكذا يبلغ الفلاح الذي يعني وصول الانسان الى هدفه الأسمى.

]قد أفلح من تزكى[

انه يبحث عن الطهارة ، طهارة قلبه من رواسب الشرك و أخلاقه الرذيلة ، و تطهير ماله من الحرام ، و حقوق الفقراء (بما يسمى زكاة بوجه عام) ، و تطهير جسده من النجاسات.

و من هنا جاء في الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه و آله - انه قال (في تفسير الآية " : (أخرج زكاة الفطر " (١. (

وبهذا التفسير لكلمة التزكي نجمع بين الآراء المختلفة في تفسيرها من زكاة القلب من الشرك الى زكاة المال من حق الآخرين.

[15]و بعد ان يتزكى القلب يتلقى نور ربه ، فيذكره بإنشراح ، و يصلي له بخضوع.

]و ذكر اسم ربه فصلى[

و هنا ايضا ذكر الاسم واريد المسمى ، أوليست الصلاة منه و ليست لاسمه سبحانه.

و القلب من دون تزكية لا يتلقى نور الذكر ، فان كل عقدة نفسية أو ضلالة شركية أو انحراف خلقي يشكل حجابا بين العبد و ربه ، فأنى لمن يشرك بالله ان يعرفه ، و أنى لمن غمر قلبه بحب الدنيا و زينتها ان يتفرغ لرُؤية جمال الخالق ونعيمه(١) القرطبي / ٢٠ - ص ٢١.

في الآخرة ؟! أولم يقولوا : حب الشيء يعمي و يصم ؟

و الصلاة هنا كل حالة خشوع لله و لرسوله و لمن أمر الرسول . انها التسليم التام لله ، و لذلك جاء في بعض النصوص تأويلها بصلاة العيد ، و في بعضها تأويلها بالصلاة على النبي - صلى الله عليه و اله - بلى . إنهما معا مظهران لحالة واحدة ، فمن سلم لله سلم لرسوله ، و من صلى صلاة العيد فانما يصليها خلف إمام نصبه الله ، و أمر باتباعه الرسول . أليس كذلك ؟

هكذا سئل الامام الصادق - عليه السلام - عن قول الله عز وجل : " قد أفلح من تزكى " قال : " من أخرج الفطرة " ، قيل له : " و ذكر اسم ربه فصلى " ؟ قال " :خرج الى الجبانة فصلى " (١. (

و جاء في حديث مأثور عن الامام الرضا - عليه السلام - انه قال (في تفسير الآية) : " كلما ذكر اسم ربه صلى على محمد و آله " (٢. (

[16]ما الذي يمنع الانسان من تواصل ذكر اسم الله و الصلاة له و الدعاء اليه ؟ أليس الله أقرب شيء اليه ؟ أوليس أرحم الراحمين ؟ أولم يدعه الى نفسه و رغبه في نعيمه ؟ بلى . و لكن حب الدنيا رأس كل خطيُئة ، و الدنيا قد أحضرت له بكل زينتها و شهواتها و غرورها و أمانيها ، بينما الآخرة قد غيبت عنه و ادارك علمه فيها فنسيها و أقبل على ضرتها.

]بل تؤثرون الحياة الدنيا[

فهذه طبيعة بني آدم جميعا إلا من عصمه الله ، و أقلع نفسه من جاذبية الدنيا ، (1)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٥٦ (و الجبانة : الصحراء لان صلاة العيد تصلى فيها. (

(2)المصدر.

و حلق في سماء المعرفة ..و انما ذكرنا القرآن بهذه الحقيقة لنعرف أين مكمن الخطر في أمرنا ، و كيف يمكننا تجنبه ؟

جاء في حديث جامع مأثور عن الامام السجاد - عليه السلام - انه قال بعد ان سئل : اي الأعمال أفضل عند الله ؟

"ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل و معرفة رسول الله - صلى الله عليه وآله -أفضل من بغض الدنيا ، فان لذلك شعبا كثيرة و للمعاصي شعب ، فاول ما عصي الله به الكبر معصية إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين ، ثم الحرص و هي معصية آدم و حوا - عليهما السلام - حين قال الله عز وجل لهما : " كلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " فأخذا ما لا حاجة بهما اليه ، فدخل ذلك على ذريتهما الى يوم القيامة . و ذلك ان أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به اليه . ثم الحسد وهي معصيةابن آدم حيث حسد أخاه فقتله ، فتشعب من ذلك حب النساء و حب الدنيا و حب الرياسة و حب الراحة و حب الكلام و حب العلو و الثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن في حب الدنيا ، فقال الأنبياء و العلماء بعد معرفة ذلك : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، و الدنيا دنيائان : دنيا بلاغ ، و دنيا ملعونة و أمل لا يدرك و رجاء لا ينال " (١. (

[17]بلى . انما نتسلى عن الدنيا و زبرجها بذكر الآخرة و نعيمها ، فاذا دعتك الى الجنس الحرام شهوة و شبق فتذكر الحور العين فانهن خير و أبقى ، و إذا استطبت مالا حراما أو طعاما ضارا فتذكر فواكه الجنة و لحومها فانها خير لك و أبقى.

]و الآخرة خير و أبقى[

انها الأكمل ، و قدرة الانسان يومُئذ كاملة . انك لا تستطيع ان تستمر في(١) نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٥٧.

الأكل إلا ريثما يمتلأ بطنك ، و إذا أسرفت فسوف تصاب بالتخمة و الغثيان ، و لكن أهل الجنة يجلسون على كل مائدة أربعمائة عام لا يملون ولا يسأمون.

و ان شبق الجنس محدود عند البشر ، فاذا قضوا منه الوطر عافوه ، بينما لكل واحد من أهل الجنة عشرات بل مئات النساء و اكثر و يعطى القوة لإيتائهن بلا تعب ولا كلل.

و ان المرض و الهرم و الكسل و الضجر و الموت يهدد أهل الدنيا ، بينما الآخرة باقية مع الأبد.

روي عن أبي جعفر الباقر - عليه السلام - أنه قال : " ان أهل الجنة يحيون فلا يموتون أبدا ، و يستيقظون فلا ينامون أبدا ، و يستغنون فلا يفتقرون أبدا ، و يفرحون فلا يحزنون أبدا ، و يضحكون فلا يبكون أبدا ، و يكرمون فلا يهانون أبدا ، و يفكهون ولا يقطبون أبدا ، و يحبرون و يسرون أبدا ، و يأكلون فلا يجوعون أبدا ، و يروون فلا يظمؤون أبدا ، و يكسون فلا يعرون أبدا ، و يركبون و يتزاورون أبدا و يسلم عليهم الولدان المخلدون أبدا ، بأيديهم أباريق الفضة و آنية الذهب أبدا ، متكئين على سرر أبدا ، على الأرائكينظرون أبدا ، تأتيهم التحية و التسليم من الله أبدا ، نسأل الله الجنة برحمته انه على كل شيء قدير " (١. (

[18]و هذه الحقائق و بالذات حقيقة الدنيا ، و انها ليست بدار بقاء ، و ان الآخرة خير منها و أبقى ، إنها لا تخص رسالة النبي بل هي في صحف الأنبياء جميعا ، و لا سيما صحف إبراهيم - عليه السلام - الذي يحترمه العرب كما اليهود و النصارى ، و موسى - عليه السلام - الذي يزعم اليهود انهم أنصاره ثم ترى العرب و اليهود يعبدون الدنيا ، و يزعمون ان ذلك من دين الله.

(1)موسوعة بحار الانوار ج ٨ - ص ٢٢٠.

]إن هذا لفى الصحف الأولى[

فلم يكن الرسول بدعا بين إخوانه.

] [19]صحف إبراهيم و موسى[

وقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه و آله - بعض ما في هذه الصحف.

جاء في كتاب الخصال : عن أبي ذر - رحمه الله - قال : دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله - وهو في المسجد جالس وحده فاغتنمت خلوته .. ، قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة كتاب و أربعة كتب ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة ، و انزل التوارة و الإنجيل و الزبور و الفرقان ، قلت : يا رسول الله و ما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها ، و كان فيها : أيها الملك المبتلى المغرور إني لم أبعثك تجمع الدنيا بعضها على بعض ، و لكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها و ان كانت من كافر، و على العاقل ما لم يكن مغلوبا ان يكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، و ساعة يحاسب فيها نفسه ، و ساعة يتفكر فيها صنع عز و جل اليه ، و ساعة يخلو فيها لحظ نفسه من الحلال ، فان هذه الساعة عون لتلك الساعات ، و استحمام للقلوب و توديع لها ، و على العاقل ان يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، فانه من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعينه ، و على العاقل ان يكون طالبا لثلاث : مرمة لمعاش ، أو تزود لمعاد ، أو تلذذ في غير محرم " قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبرا كلها ، عجبا لمن ايقن بالموت كيف يفرح ؟ و لمن ايقن بالنار كيف يضحك ؟ و لمن يرى الدنيا و تقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، و لمن يؤمن بالقدر كيف ينصب ؟ ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل ؟ " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٦١.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من أدمن قراءة " هل أتاك حديث الغاشية " في فريضة او نافلة غشاه الله برحمته في الدنيا و الآخرة ، و آتاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار."

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٦٢

الاطار العام

الدنيا و الآخرة مثل كفتي ميزان ما رجحت احداهما الا على حساب الثانية ، خصوصا إذا فسرنا الدنيا بانها الحياة الفارغة عن القيم الإلهية ، فمن أختارها ، و ترك الفرائض ، و تهرب من المسؤوليات ، و كفر بالرسالة ، فان له وجها خاشعا في الآخرة ، و عملا ناصبا، و كدحا متواصلا ، شرابهم في النار من عين آنية ، و طعامهم من ضريع.

ومن اختار الآخرة فان وجهه هناك ناعم ، و قلبه راض ، و عيشته في الجنة ذات سلام و أمن و عين جارية ، و سرر مرفوعة ، و أكواب موضوعة ، و نمارق مصفوفة ، و زرابي مبثوثة.

يبدو ان هذا هو محور سورة الغاشية التي تختم بذكر الحساب الإلهي الذي ينتظر الناس بعد إيابهم.

هل أتاك حديث الغاشية ؟

بينات من الايات

[1]لولا الوحي ، ولولا آياته التي تطرق أبواب القلب طرقا عنيفا ، أنى كان لقلب الانسان الذي أشغلته هموم حياته و أحلامها ان يعي القيامة و اهوالها ؟ ان صفات ذلك اليوم تملأ القلب كله و تزيد .. و لكننا مشغولون عنها بالحاضر الذي تتراءى قضاياه كبيرة ، وهي بالقياس الى ذلك اليوم تافهة جدا.

]هل أتاك حديث الغاشية[

للاستفهام وقع كبير في النفس ، و السؤال هنا عن حديث هام يفرض نفسه و يأتيك سعيا لضخامته ، بينما الاحاديث التافهة تبحث عنها و قد لا تجد لها أثرا .. بلى .انه الحديث عن الغاشية ، حقيقة تغشى كل شيء . البر و البحر و الجبال و الأحياء .. تحيط بها القيامة ، و السموات وما فيها تنوء بها ، فأنى لهذا الانسان .. ماذا يغشانا من القيامة ؟

ادخانها كما قال ربنا " : يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس " ، أم نارها : " و تغشى و جوههم النار .. " ، أم زلزالها : " إذا زلزلت الأرض زلزالها * و أخرجت الأرض أثقالها .. " ، أم صيحتها ، أم قارعتها ، أم صاختها ،أم كل اهوالها ؟ بلى . انها الغاشية التي لا تدع أحدا يهرب منها ، و انها الغاشية التي لا تترك جزءا من الانسان فارغا.

[2]و أبرز ما يغشاه ذلك اليوم الوجه الذي هو مظهر الانسان.

]وجوه يومئذ خاشعة[

يعلو وجوههم قتر و هوان ، و خشوع الخيبة و الذل ، لانهم لم يخشعوا في الدنيا خشوع الكرامة و العزة ، و لذلك نقرا في الدعاء : " اللهم إني أسألك خشوع الايمان قبل خشوع الذل في النار " (١. (

[3]ولانها تكاسلت في الدنيا ، و أهملت واجباتها ، و تهربت من المسؤوليات ، فانك تراها في ذلك اليوم في كدح و تعب.

]عاملة ناصبة[

قالوا :هذا في الدنيا ، إذ لا عمل في الاخرة ، و فسروا العمل بالداب في السير و النصب بالتعب ، و لكن من قال لا عمل في الآخرة و لا نصب ؟ بلى . و تحركهم في صحراء المحشـــر وسـط ظلام دامس تسوقهم ملائكة العذاب ، و يشهد عليهم ملائكة الحساب .. انه عمل ناصب.

إنما عملهم ثمة بلا فائدة ترجى لهم ، و نصبهم بلا ربح و مكسب ، و لو انهم(١) مفاتيح الجنان / من ادعية السحر في شهر رمضان.

أجهدوا أنفسهـم في الدنيـا قليــلا لأعقبتهـم راحــة طويلة في العقبــى ، كما قال الامـام أمير المؤمنين - عليه السلام - في صفة المتقين : " صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. "

وفي طائفة من النصوص المأثورة تفسير هذه الآية بأولئك الذين يعملون في الدنيا و ينصبون و لكن فـي طريق خاطىء فلا يكسبون من عملهم نقيرا ، لانهم يوالون الطواغيت ، و ينصبون لأئمة الهدى ، و تابعيهــم (١) ، و روي عن الامام امير المؤمنين - عليه السلام - انهؤلاء هــم أهـل حــروراء ، يعنـي الخوارج الذين ذكرهم رسول الله - صلى الله عليه و اله - فقـــال : " تحقـرون صلاتكم مع صلاتهم ، و صيامكم مع صيامهم ، و اعمالكم مع اعمالهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " (٢. (

و هذا تــأويل حسن للآية ، بيد ان تفسيرها - فيما يبدو من السياق - أعم و أشمل.

روي عن ابن عباس انهم يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب ، بمعالجة السلاسل و الأغلال و الخوض في النار ، كما تخوض الإبل في الوحل ، و ارتقائهم في صعود من نار ، و هبوطهم في حدور منها . (3)

وفي بعض الروايات انهم يجدون في طرف جهنم بابا الى الجنة فما يألون جهدا للوصول اليه حتى إذا اقتربوا منه أغلق دونهم.

(1)راجع نور الثقلين / ج ٥ ، ص ٥٦٣ - ٥٦٤.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 28

(3)القرطبي / ج ٢٠ - ص 27وفي المصدر : ارتقائها هبوطها و اظنها خطأ.

و أنى كان عملهم و نصبهم فانهم لو عملوا عشر معشار ذلك في الدنيا لكفاهم عملا و نصبا ، و رزقهم الله جنة و نعميا.

[4]ما عاقبة هذا الفريق الخاسر ؟ النار الحامية يذوقون حرها مباشرة و من دون وقاية . أليسوا قد فجروا في الدنيا و لم يتقوا نار جهنم فيها ؟

]تصلى نارا حامية[

صلى بالنار : لزمها و احترق بها ، و الحامية : حارة (شديدة الحر. (

و لعل كل هذه الصفات ذكرت لكي لا تحتمل النار التأويل ، فيقول البعض ان النار لا تحرق ! أوليست بحارة ! او بينها و بين الانسان حجاب ! كلا .. لا مفر منها و من لهبها أبدا.

[5]شدة الحر و تواصل الاحتراق بالنار يجعل أهلها من عطش شديد فيطلبون الماء فلا يعطونه ألف عام و

بعده يعرضون على عين آنية.

]تسقى من عين انية[

قد بلغت من الحرارة أناها و منتهاها ، و قيل : ان جهنم أوقدت عليها منذ ان خلقت . هكذا يدفعون اليها وردا شرابا و ساءت شرابا و ساءت مرتفقا.

[6]وإذا طلبوا طعاما قدم لهم شيء أمر من الصبر يسمى بالضريع.

]ليس لهم طعام إلا من ضريع[

طعام يتضرع أكله من شدة خشونته و مرارته و نتنه . انه حسبما روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - : " شيء يكون في النار يشبه الشوك ، أشد مرارةمن الصبر ، و أنتن من الجيفة ، و أحر من النار سماه الله ضريعا " (١. (

فهل هو نبتة نارية كالزقوم ، ام هو عرق اهل النار و ما يخرج من فروج الزواني كالغسلين ، أم هو شيء آخر ، وإذا كانت نبتة فكيف لا تحترق بالنار ، و اذا كان عرقا كيف لا يتبخر ؟

ان العالم الآخر يختلف عن عالمنا ، و انما تتشابه الألفاظ لكي ندرك ما يمكن ان ندرك من ذلك العالم ، وإلا فان كل شيء هناك مختلف عما لدينا ، فالنار غير نارنا ، و جلود أهلها غير جلودهم هنا ، و العقارب و الحيات و شجرة الزقوم ليست كأمثالها في الدنيا التيتحترق في لمحة بصر لو تعرضت لنيران جهنم ، كلا .. انها جميعا خلقت لذلك العالم و بمقاييسه ، كما ان الزمن هناك غير الزمن هنا .. وإذا فسرنا كلمة من كلمات القران التي توضح الآخرة فليس الا تفسيرا قريبا من واقعها ، و ليس تفسيرا دقيقا.

وهكذا الضريع ، و هو في الدنيا - كما قالوا - : نبت ذو شوك لاصق بالأرض ، تسميه قريش الشبرق اذا كان رطبا ، فاذا يبس فهو الضريع ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ، و هو سم قاتل ، وهو أخبث الطعام و أشنعه ، و أنشدوا لبعضهم:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى و عاد ضريعا بان منه النحائص (٢)[٧] و هذا الطعام نوع من العذاب لانه ليس فيه أية منفعة من الطعام ، فهو لا يعوض خلاياهم المفقودة ، و لا يطفىء لهيب الجوع.

(1)القرطبي / ج ٢٠. 30 -

(2)ذلك صفة إبل هزيل سيء المرعى - راجع المصدر / ص ٣٠.

]لا يسمن ولا يغني من جوع[

ولو انهم اجتنبوا السحت في الدنيا لاتقوا الضريع في الآخرة.

[8]وفي الجهة الأخرى تجد أهل الجنة كأفضل ما يكونون..

]وجوه يومئذ ناعمة[

منعمة قد أشرقت وجوههم بآثار النعمة حتى تجلت نضارتها لكل عين . أوليست النعمة إذا بلغت كمالها ظهرت في الوجه ؟

[9]و يظهر من وجوههم رضاهم القلبي بما عملوا في الدنيا ، لانهم وجدوا عاقبة أمرهم الحسنى.

]لسعيها راضية[

[10]أوتدري أين هم ساكنون ؟ هناك في الأعالــي حيث يتفيئون ظلال الأشجار.

]في جنة عالية[

ان الجنة في المقام العالي ، بينما النار في الدركات السفلى.

[11]و اذا اطمأنت النفس بالرضا ، و الجسد بالفواكه ، و الظلال الوارفة ، و المقام السامي فان الانسان بحاجة الى الأمن الذي يجده هؤلاء في أتم صوره ، فلا اعتداء ولا بغي و لا ظلم و لا غش و لا احتيال ، بل و لا كلمة نابية تنال مقدساتهم (مثل كلمات الشرك التي آذتهم في الدنيا) أو تنال اشخاصهم)مثل الفحش و السب و الغيبة و التهمة و ما أشبه) و لا حتى كلمات عبثية) كالتي يتناولها البطالونفيتلفون أوقاتهم بلا فائدة) كلا .. إنهم في سلام شامل.

]لا تسمع فيها لاغية[

اي لا تسمع فيها كلمة لغو.

كذلك كانوا في الدنيا ، اذا مروا باللغوا مروا كراما ، كانوا لا يتعرضون لاحد بكلمة بذيئة ، و يتحملون اذى الناس كاظمين عافين محسنين ، فجزاهم الله بحياة زاخرة بالسلام و الرضا.

بلى . المؤمنون يصنعون لانفسهم و ضمن بيئتهم الخاصة و في حدود امكانات الدنيا صورة مصغرة للجنة ، يتنعمون فيها قبل ان ينتقلوا الى جنة الخلد الأبدية.

[12]اما شرابهم فانه من عين تتدفق بين جناتهم الخضراء.

]فيها عين جارية[

ما أروع منظر العين المتدفقة التي تجري على الأرض أو فوقها بلا أخدود - كما قالوا - فيها ألوان الشراب من عسل مصفى ، الى لبن سائغ ، الى شراب طهور ، و ماء مزاجه من تسنيم .. أذلك خير أم العين الآنية!

ان وعي هذه النعم في الدنيا يسمو بالمُؤمن الى عدم الاستسلام لإغراء شراب الدنيا الحرام ، والترفع عن ملذاتها المحدودة ، انتظارا لما هو أشهى و أطيب مذاقا و أعظم.

[13]أعظم لذات البشر مجالس المؤانسة مع خلان الصفا بتبادل المحبة و الود و الكلمات السامية و المعارف الجديدة ، و يبدو ان السياق يحدثنا عن جانب من هذه المجالس ، فبالاضافة الى الشراب الذي يدار بينهم يصور لنا السرر المرفوعة التييتقابلون فيها.

]فيها سرر مرفوعة[

[14]لقد أغناهم تعب الدنيا و الكدح فيها عن التعب هناك ، فاشتغلوا بمجالس الأنس عن النصب الذي يشتغل به اهل النار ، فتراهم يتنازعون كؤوس الشراب الطهور الموضوعة امامهم بلا عناء و لا نصب.

]و أكواب موضوعة[

مليئة بالشراب الطهور.

[15]و هم يتكّؤون على وسائد لطيفة.

]و نمارق مصفوفة[

قالوا : النمرق اي الوسادة ، و انشدوا:

كهول و شبان حسان و جوههم على سرر مصفوفة و نمارق[١٦] و في كل جهة تجد البسط التي لا خمل لها كالسجاد ، أنى شُئتها وجدتها و أخذتها لبساطك.

]و زرابي مبثوثة[

قالوا : إنها الطنافس التي لها خمل رقيق.

[17]ليس بين الانسان و بين فهم الحقائق إلا حجاب الغفلة ، فاذا ما كشف عنه هذا الحجاب إذا به يجدها ظاهرة أمامه .. و القران يساعده على ذلك . ألا تريكيف يرغبه في النظر الى تلك الحقائق المألوفة حوله و التي يغفل عادة عن غيبها و دلالاتها البعيدة ، فيقول:

]أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت[

فاذا نظروا تماوجت بحار المعرفة أمام أنظارهم . حقا : ان هذه الإبل التي اندمجت بحياتهم حتى جعلت حياتهم و اياها نسيجا واحدا ، و ابتدعوا لها ألف اسم يصفون فيه كل مراحل وجودها و اغلب صفاتها و حالاتها ، و ربما لم يبتدعوا للانسان مثل هذا العدد من الأسماء.. هذه الإبل التي يمتطون ظهرها ، و يشربون لبنها ، و يأكلون لحمها ، و يتداوون ببولها ، و يصنعون من أشعارها و أوبارها بيوتا خفيفة و ثيابا و زينة . افلا ينظرون اليها ليعرفوا كيف خلقت لتكمل حياتهم خصوصا في تلك الصحاري القاحلة ؟

انها من اصعب الحيوانات مراسا و قدرة على تحمل المشاق . انها تحمل اثقالا عظيمة ، و تخوض غمار البراري القفر ، و تصبر اياما عديدة ربما بلغت اسبوعا او عشرة أيام بلا زاد و لا شراب ، و تتحدى الأعاصير الرملية بما خلق فيها من قدرة و من أهداب لمقاومتها!

إن أرجلها المفلطحة تستطيع ان تطفو على الرمال الرخوة حتى سميت بسفينة الصحراء.

ثم تراها تقتات الأشواك الحادة ، و تختزنها لحين اجترارها في الوقت المناسب ، كما تختزن الماء لفترات طويلة . من الذي خلقها بهذه الطريقة العجيبة ؟

و مع ضخامة جثتها ، و عظم قدرتها ، تراها خاضعة للانسان الضعيف أليفة وديعة ، حتى حكيت قصة الفارة التي سحبت حبل بعير ، فتبعها ظنا منه انهاصاحبه.

و اذا قارنت الابل بما يشابهها من الحيوانات كالفيل و وحيد القرن لرأيت الإبل أعظم منفعة و أقل مؤنة فان الفيل مثلا لا يؤكل لحمه ، و لايشرب لبنه .

و ننقل هنا بعضا مما قاله الدكتور احمد زكي في كتابه) : في سبيل موسوعة علمية) حين تحدث عن الجمل:

)و من تصاميم الخلق مواءمة بين حيوان و بيئته ان حمل الجمل على ظهره سناما ، هــو من عضل و شحم ، و هو يزداد لحما و شحما على الغذاء عندما يكثر و يطيب ، حتى إذا خرج الجمل الى سفر و عزه الغذاء و كاد ينذره الجوع بالفناء وجد الجسم فيما حمل من شحم في سنامه غذاء يطول به العيش أياما .

ومن زاد الصحراء الماء ، و لعله اول زاد ، و في جسم الجمل من الاحتياط ما يحفظ به عليه الماء ، من ذلك انه لا يعرف او لا يكاد ، و من ذلك ان أنفه متصل بفمه ، و الفم يحبس ما يخرج مع هواء التنفس من ماء .. و قد يبلغ ما يشربه به الجمل ستين لترا من الماء!

افليس بمعدته خزائن ثلاث ؟

و يضيف : و ما كان لغير الجمل من الحيوانات ان يقطع الصحاري ، و تهيأ الجمل لذلك بخفه ، فهو لا يغرز في الرمل ، و تغرز الحوافر في حمر و خيل.

و تهيأ الجمل بقوائمه الطويلة القوية ، فيه صلبة صلدة تحمل جسدا ضخما فوقه سنام . و أعان ارتفاع قوائم الجمل على تخطي ما يعترضه في الصحراء من ارض قليلة الإستواء.

و عينا الجمل عليهما رموش ثقيلة ، و هي لمنع الرمال ان تدخل الى عينيه عندمايغمضها ، و أذنا الجمل كثيرة الشعر ، و لعل هذا لمنع دخول الرمل فيهما ، و انف الجمل انما هو شقان ضيقان ، يسهل أغلاقهما عند الحاجة ، و الجمل يغلقهما حبسا للرمل ان يدخلهما .. كل شيء في خلق الجمل يهدف الى الرمل يتوقاه ، من الخف الى الرأس. (

فسبحان الله الذي خلق الإبل ، و تبا لمن نظر اليها و لم يعتبر.

[18]حين نقرأ آيات الذكر يخيل الينا انها ترسم لوحة فنية ، فاذا ذكرت الإبل تذكر بعدها السماء ثم الجبال فالأرض حتى تكتمل الصورة ، بلى . هكذا كتاب ربنا يصف الحقائق الواقعية كما هي و يجعلنا نعتبر بها.

]و الى السماء كيف رفعت[

عندما ينبلج الفجر من الأفق ، و ينتشر الضياء فوق الروابي ، و تسرع أسراب الطيور بالتحليق بحثا عن رزقها ، و تستيقظ الطبيعة لتسبح ربها ، هنالك انظر الى السماء كيف جعلها الله سقفا محفوظا ، و زرقة وادعة ، و روعة و جمالا.

و عند المغيب حينما تتماوج الألوان الزاهية فوق قطعة سحاب تسمرت في الأفق شطر المغرب ، انها تذهب حقا بالألباب ، و ينتبه الانسان يومئذ الى هذا البناء العظيم فوقه كيف بناه الله و رفعه بلا عمد نراه .

وفي الليل عندما يسير زورق فضي في بحر من الظلام ، و تنتثر على امتداد البصر النجوم الثواقب ، لا تكل العين من جمالها وروعتها .. هنالك يقول الانسان : سبحانه الله.

أما إذا جلس المرء وراء جهاز تلسكوب لينظر من خلاله الى الأجرام السابحة فيالفضاء الرحيب ، و استمع الى عالم فلكي يشرح له المسافات الضوئية بينها والى دقة نظامها فلا يملك إلا ان يسجد لله القدوس و يكفر بالأنداد من دونه.

[19]و تنساب العين من السماء الى الجبال ليجد الكتل الصخرية الهائلة قد نصبت في مراكزها لتقي الارض شر الهزات و العواصف ، و لتكون خزائن المياه ، و المعادن ، و يتساءل : ما هده الدقة المتناهية في وضع هذه الصخور في مواضعها لو تقذمت عنها او تأخرت سببت مشاكل عظيمة!

و لو فكرت كيف تكونت الجبال لازددت عجبا.

]و الى الجبال كيف نصبت[

[20]و نظرة الى الأرض و طريقة انبساطها و تذليلها و كيف مهدها الله للانسان بفعل الأمطار الغزيرة التي غسلت اطراف الجبال و سوت الأرض لتكون صالحة للسكنى و الزراعة.

]و الى الأرض كيف سطحت[

و هذه الكلمات تذكرنا بضرورة البحث عن الكيفية ، و ميزات و خصائص كل الموجودات حولنا ، و ايضا

البحث عن العوامل المؤثرة فيها : كيف و بأية عوامل ملموسة كانت السماء و كانت الجبال و كانت الارض بهذه الكيفية ، و هكذا يحرضنا كتاب ربنا على البحث و التنقيب سواء على صعيد العلماء و الخبراء ام على مستوى كل فرد فرد منا علينا جميعا ان نتفكر و نعقل و لا نكون غافلين عما يجري حولنا .. ان ذلك هو السبيل الى معرفة الخالق اكثر فاكثر ، و معرفة الخالق هي اصل كل خير و فلاح.

[21]الأدلة مبثوثة في أرجاء الخليقة ، و عقل الانسان يكفيه حجة ، و يأتي النبي - صلى الله عليه و آله - و من يتبع نهجه ليقوم بدور المذكر . انه ليس مكلفا عنهم ولا مكرها لهم ، و لا يتحمل مسؤولية افكارهم ، و انما هم المسؤولون.

]فذكر إنما أنت مذكر[

فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، حتى معرفة الله لا تتم إلا بعقل الانسان الذي يستثيره النبي بتذكرته.

[22]وليس الرسول عليهم بجبار ، انما يذكر بالقرآن من يخاف وعيد.

]لست عليهم بمصيطر[

السيطرة هي التسلط و معناها الجبر و الإكراه.

[23]بلى . الكفار الذي يقاومون الرسالة ، انهم يتعرضون لسخط الله و عذاب عباده المؤمنين ، لانهم يسيؤون التصرف في الحرية الممنوحة لهم.

]إلا من تولى و كفر[

و قد اختلف المفسرون في معنى الآية ، و لكن يبدو ان سائر آيات القرآن تفسر هذه الآية حيث أن من تولى عن الحق و كفر به ، و مخالف الرسول و ناصبه العداء ، يجاهد حتى يعود الى رشده ، و هذا ما نقرؤه بتفصيل في آيات الجهاد وفي سورة الممتحنة بالذات.

وقد روي عن الامام علي - عليه السلام - أنه جيء إليه برجل إرتد فاستتابه ثلاثة أيام فلم يعاود الاسلام فضرب عنقه ، و قرأ : " إلا من تولى و كفر " (١)(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ٣٧.

[24]اولئك الكفار المنابذون العداء للرسالة يجاهدهم المسلمون فيعدبهم الله في الدنيا بأيديهم ثم يعذبهم في الآخرة العذاب الاكبر.

]فيعذبه الله العذاب الأكبر [

[25]و في نهاية السورة يذكرنا ربنا بالمصير اليه ، و كيف لا يستطيع ان يهرب أحد من مسؤولية أعماله.

]ان إلينا إيابهم[

أي عودتهم.

] [26]ثم إن علينا حسابهم[

يحاسبهم جميعا كما رزقهم في الدنيا على كثرتهم ، فطوبى لمن حاسب نفسه هنا قبل ان يحاسب هناك ، و تاب الى الله من ذنوبه قبل ان يجازى بها . جاء في الحديث المأثور عن الامام الرضا - عليه السلام - : " إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه فيكون هوالذي يلي حسابه ، فيعرض عليه عمله

، فينظر في صحيفته فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه ، و ترتعد فرائضه ، و تفزع نفسه ، ثم يرى حسناته فتقر عينه ، و تسر نفسه ، و تفرح روحه ، ثم ينظر الى ما اعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه ، ثم يقول الله لملائكة : هلموابالصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها ، قال : فيقرؤونها فيقولون : و عزتك انك لتعلم انا لم نعمل منها شيئا ، فيقول : صدقتم لكنكم نويتموها فكتبناها لكم ، ثم يثابون عليها " (١. (

أفليس هذا هو المصير الأفضل ، فلماذا الغفلة ؟

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٧٠.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال " : اقرؤوا سورة الفجر في فرائضكم و نوافلكم فانها سورة للحسين بن علي - عليهما السلام - من قرأها كان مع الحسين - عليه السلام - يوم القيامة في درجته ان الله عزيز حكيم "نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٧١

الاطار العام

لكي تتلقى كلمات الوحي عليك ان تسمو الى مستوى التدبر فيها ، و التحسس لنبضاتها ، و متابعة مؤثراتها ، و التفاعل مع ايقاعاتها .. و بكلمة : لا بد ان تعيشها بكل ما أوتيت من صفاء الفؤاد ، و قوة الفكر ، و رهافة الحس.

كذلك سورة الفجر لا يعيها إلا من يندمج معها ، و يسلم قياده لكلماتها التي تفيض علما و حكمة و حياة و نورا بها تعرج به الى أفق آخر ، تجعله يرى ما حوله بصورة جديدة حتى يتسامى عن جواذب المادة و إصرها و أغلالها و تطمئن نفسه الى الله و ترضى به ، فاذا به وهو في الدنيا يعود بروحه الى ربه ، و يسمع هتاف ربه : " إرجعي الى ربك راضية مرضية. "

و يبدو ان هذه هي محور السورة ، و لكن كيف يتحقق ذلك ؟ في السورة - فيما يبدو - الاجابة عن ذلك والتي تتلخص في نقاط هي بدورها محاور تمهيدية للسورة.

اولا : التحسس برقابة الله و انه بالمرصاد حتى يزداد القلب وعيا و تقوى ،و السؤال :كيف ؟ بالنظر في اختلاف الليل و النهار و حسن تدبيرهما من الفجر حتى الليل إذا يسر ، و ايضا بالاعتبار بمصير أولئك الجبارين الذين نسوا الله ، و لم يراقبوه ، فكان ربهم لهم بالمرصاد ، فصب عليهم سوط عذاب.

ثانيا :تزكية القلب من حب الدنيا ، و اعتبار الغنى قيمة الهية ، لان عاقبة حب الدنيا وخيمة إذ أنه يمسخ شخصية الانسان فيجعله لا يكرم اليتيم ، و لا يحض على طعام المسكين ، و يأكل التراث جميعا ، و يكاد يعبد المال لفرط حبه له.

ثالثا :بتذكر أهوال الساعة حيث تندك الارض ببعضها دكا دكا ، و يتجلى الله بعظمته و عدالته و شدة بطشه بالجبارين و المجرمين ، و يتذكر الانسان انه قد ضيع فرصته الوحيدة في الدنيا ، و لم يقدم شيئا لحياته ، و لكن لن تنفعه الذكرى.

هنالك يهتف الرب بالنفوس المطمئنة ان ارجعي الى ربك راضية مرضية . ما أعظمه من نداء ، و ما أحسنها من عاقبة . وفقنا الله لها جميعا.

إن ربك لبالمرصاد
بينات من الآيات

[1]الأدب الأصيل البديع يكثف حول القارىء الظلال و الايقاعات و الايحاءات و المعاريض حتى تجد نفسك في سواء الحقيقة من حيث تدري او لا تدري ، و في ذروة الآداب البديعة نجد آيات الذكر كأنها بساط سليمان تحملنا الى آفاق الحقيقة ، و تجعلنا نشاهدها و نلامسهاو نعيشها و نمتزج بها ، و يعجز القلم عن متابعة لطائف هذا الأدب الأسمى لان في اختيار الكلمات و طريقة تركيبها و جرس الفاظها و تماوج معانيها و آفاق بصائرها تيار من المؤثرات التي لم يبلغ الانسان مستوى إحصائها و معرفتها .. هل يمكن لريشة رسام ان تنقل على القرطاس كل مشاعره من مراقبة الغروب في الأفق ، وهل هو يستوعب كل جمال الأفق لحظة غياب الشمس ؟ كذلك المفسرون لا يستطيعون وصف كل احاسيسهم عن لحظات معايشتهم لآيات الذكر . إنها حقا فوق قدرة القلم .. من هنا يعجزون عن ملاحقة معارفهم التي يستوعبونها من القران فكيف يشرح كل معارف القران و هذا ايضا سر

اختلافهم الواسع في العديد من الكلمات و الآيات القرآنية ، و فاتحة سورة الفجر منها حيث اختلفت آراؤهم الى أكثر من ثلاثين قولا في بعض كلماتها (١. (

إذا كيف نفسر هذه الآيات ، و كيف نستفيد من تفاسير الآخرين لها ؟

إنما باتباع منهج التدبر المباشر ، فانت بدورك تقرأ القرآن و عليك ان تنفتح امام تيار المعرفة و موجات الابداع و بصائر الوحي في آياته . افتح منافذ قلبك و شغاف فؤادك و اعرج بنفسك الى مستوى القران ... أولم تسمع ان الله سبحانه قد تجلى في كتابه لعباده و لكنهم لا يبصرون ؟

بلى . كلمات المفسرين إشارات مفيدة على الطريق ، و لكنها ليست بديلا عن سعيك بنفسك في ذلك الطريق.

و إذا طويت درب المعرفة بنفسك فان العلم الذي تكتسبه ينور قلبك ، و يصبح جزء من نفسك ، فيرتفع مستواك ، و انك لا تنساه باذن الله.

و نعود الى كلمات القسم الأولى في السورة ، و نتساءل - مع من تساءل من المفسرين - : ما الفجر ، و ما الليالي العشر ، و ما هو الشفع ، و ما الوتر ؟

لان الكلمات قسم ، و القسم يهدف استثارة القلب و طرق أبوابه المغلقة ، فان إحمالها قد يكون مطلوبا ، لانه يزيد حالة التهويل و التفخيم .

و لكن بين التفاسير العديدة يبدو إثنان منها أقرب : الأول : عموم المعنى حتى يشمل أغلب المصاديق التي ذكرت في التفاسير ، فالفجر هو الفجر سواء كان فجر يوم العيد العاشر من ذي الحجة او فجر اول يوم من أيام محرم حيث الساعات(١) نقل العلامة الطباطبائي ان في تفسير الشفع و الوتر (٣٦ (قولا / راجع الميزان ج ٢٠ - ص ٢٩٧.

الأولى من السنة الهجرية او فجر الرسالة او فجر الثورة الحسينية في ارض كربلاء او أي فجر آخر ينبلج به نهار يوم جديد او حياة جديدة او مسيرة جديدة .. و هكذا الليالي العشر تتسع لعشر ليال من كل شهر ، و كذلك الشفع و الوتر فانهما يتسعان لكل ما شفع او وتر.

الثاني : تفسير الكلمات بأيام الحج من ذي الحجة الحرام ، فالفجر يكون فجر الأول من أيامه او فجر العيد ، بينما الليالي العشر هي العشرة الأولى من هذا الشهر الذي يشهد أعظم مسيرة دينية في السنة ، و اما الشفع و الوتر فهما يوم عرفة (باعتباره التاسع و التسعة وتر) و يوم العيد (باعتباره العاشر و العشرة شفع) ، اما الليل الذي يسري فهو ليلة الافاضة من عرفات الى المشعر فمنى.

]و الفجر[

قسما بلحظة انبلاج النور من الأفق حيث ينتظره الجميع بعد ان أخذوا قسطا كافيا من السبات و الراحة.

قسما بلحظة انطلاقة المسيرة الرسالية التي فجرت رحم الظلام الجاهلي فوق روابي مكة في غار حراء مع جلجة الوحي إقرأ إقرأ يا محمد إقرأ باسم ربك الذي خلق.

قسما بلحظة انبعاث الدم من اوداج السبط الشهيد بكربلاء ليبعث ثورة الحق ضد ظلام الجاهلية المقنعة ، و تنطلق المسيرة من جديد.

قسما بكل لحظات الانبلاج و الانطلاق في مسيرة البشر بعد تراكم ظلمات الظلم و الجهل و القمع و التضليل.

و قسما بفجر العدالة الشاملة مع ظهور شمس المجدد الأعظم لرسالة الاسلامالامام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الذي وعد الله ان يظهر به دينه الحق على الدين كله ولو كره المشركون. (

قسما بكل تلك اللحظات الحاسمة : ان الحق منتصر ، و ان الله للظالمين بالمرصاد.

[2]بعد عشرة ليال من الجهد المكثف ، و العمل الدؤوب ، بعد تحمل وعثاء السفر و السعي الى مكة من كل فج عميق ، بعد الإحرام و الكف عن الشهوات بعد التطواف و السعي و الوقوف بعرفة ثم بالمزدلفة ، بعد كل الإجهاد يأتي فجر العيد المبارك ليمســح باصابع من نورالرحمة و البركات على رؤوس الحجيج و يمنحهم جائزتهم الكبرى.

و بالرغم من ان الليالي العشر سبقت الفجر ، إلا ان الفجر هو الهدف منها و لذلك سبقها بالبيان ، لنعلم ان عاقبة العسر يسر ، وان ليالي الجهاد و الصبر و الاستقامة على ظلم الطغاة ستنتهي بفجر النصر المبين فاذن الله ، كما تنتهي ليالي الحج بفجر العيد.

]و ليال عشر[

قالوا :ان " ليال " جاءت بلا ألف ولام للدلالة على التعظيم ، بلى . و ليلة الجهد و التعب طويلة كما ليلة الترقب و الانتظار ، و ليالي المؤمنين مزيجة أبدا بالجهد المكثف و الانتظار معا فما أطولها.

و قال بعضهم : ان هذه الليالي إشارة الى العشرة الأخيرة من شهر رمضان لما فيها من عظمة.

[3]قسما بالشفع و الوتر ، بيوم العيد و من قبله يوم عرفة ، و بما هو من العباداتشفع كركعات الصلاة الثنائية و الرباعية ، و بما هي منفردة كالوتيرة و صلاة المغرب.

قسما بكل زوجين ، و بكل شيء منفرد ، فليذهب خيالك أنى شاء فانه لن يجد سوى زوج او فرد فقسما بكل ذلك : ان ربك لبالمرصاد.

]و الشفع و الوتر[

[4]هل وفقت للحج او تذكرت الإفاضة حيث ينهمر سيل الحجيج من عرفات عبر شعاب الوديان و فوق أكتاف الروابي نحو مزدلفة مهللين مكبرين ، و قد تجردوا عن سماتهم المميزة ، حاسري الرؤوس ، معتمري ثياب الإحرام البسيطة ، و أمامهم هدف واحد يبتغونه وهو مرضاة ربهم ؟

انها حقا مسيرة التوحيد ، مسيرة الوحدة ، مسيرة التقوى ، مسيرة الرحمة .. في تلك الساعة لو كنت قادرا على تجريد نفسك من مؤثرات المسيرة و النظر اليها من الخارج لرأيت عجبا ، رأيت و كان الارض و السماء تسيران ، و ان الليل بذاتها تسير معكم.

]و اليل إذا يسر[

قسما بتلك الليلة المشهودة : ان مسيرة الحق منتصرة لان الله من الطغاة بالمرصاد.

قالوا :ان المراد من " يسر " انه يسري فيه ، كما يقال ليل نائم و نهار صائم ، و انشدوالقد لمتنا يا أم غيلان في السرى و نمت و ما ليل المطي بنائمو لم يقولوا لماذا ننسب - بعض الأحيان - الحدث الى الزمن ؟ و أظن ان ذلك يتم عندما يستوعب الحدث الزمان كله ، فالليل النائم هي التي لا ترى فيها ساهرا ، و كذلك النهار الصائم لا تجد الناس فيه إلا صائمين ، كما قال الله تعالى " :أيام نحسات " لانه لم يكن في تلك الأيام غير النحوسة.

و هكذا اذا استوعب الحدث المكان سمي به ، كما قال الله : " و اسأل القرية " ، اي كل أهلها.

كذلك الليل هنا كانت تسري ، لان السرى استوعبتها.

[5]ألا يكفي كل ذلك قسما لمن يملك مسكة من عقل.

]هل في ذلك قسم لذي حجر[

قالوا : معناه لذي لب و عقل ، و أنشدوا:

و كيف يرجى أن تتوب وإنما يرجى من الفتيان من كان ذا حجرو قالوا : أصل الكلمة من المنع اذ العقل يمنع الانسان التردي في الضلال ، و حتى كلمة العقل مأخودة من ذات المعنى اي المنع و الكف فهي من العقال.

و يبدو لي ان الحجر أقل قدر من العقل ، و ان المعنى - على هذا - هل في هذا القسم كفاية لمن يملك عقلا أنى كان قليلا ؟ و الله العالم.

[6]إذا كنت ممن يكتفي بالقسم و يكتشف الحقائق بعقله بعد ان يذكر بها فقد جاءك ما يكفي من القسم.

إلا ان البعض لا يعي الحقائق إلا بالمزيد من الشواهد ، و بالذات العبر التاريخيةالتي تهز الضمير هزا ، و حتى ذوي العقول اذا استمعوا الى تلك العبر ازدادوا يقينا ، و هكـذا ساق القـرآن طائفة من تلك العبر و أجملها لانه كان قد فصلها في مواضع اخرى و قال:

]ألم تر كيف فعل ربك بعاد[

إنها حقائق مشهودة ترى بالعين المجردة ، و كلما كانت الحقيقة واضحة استخدم مثل هذا التعبير " ألم تر . "

[7]من هم عاد ؟ انهم عاد الأولى من قبيلة إرم او الذين سكنوا قرية إرم فبنوا القصور العالية.

]إرم ذات العماد[

قال بعضهم : إرم جد عاد ، و قال آخر : اليه يجتمع نسب قبيلة ثمود ايضا ، و قال ثالث : ان معنى إرم القديمة ، و أصلها من الرميم حيث ان هناك عادين الأولى و هي القديمة التي قال عنها ربنا : " و انه أهلك عادا الأولى " (١) ، و قال بعضهم : ان الكلمة ليست اسم اشخاص بل منطقة كان يسكنها قوم عاد ، و لا يتنافى ان يكون الاسم مشتركا بين القبيلة و أرضهم حيث كانت العادة تقضي تسمية الارض باسم أهلها ... فتكون كلمة ذات صفة لارم تلك المدينة التي سكنتها عاد ، و كلمة العماد بمعنى الأبنية المرتفعة المرفوعـةعلـى العمد ، و لذلك قالت العرب : فلان طويل العماد اذا كان منزله معلما لزائره.

[8]تلك القبيلة الشديدة التي راجت حولها الاساطير ، و تلك المدينة ذات العمد التي لم يكن لها مثيل في بلاد العالم ذلك اليوم .. الم تر كيف دمرت عليهم ؟

(1)النجم / ٥٠.

]التي لم يخلق مثلها في البلاد[

و انما يبني الانسان المدن لصيانة نفسه من أهوال محتملة من اعتداء مفاجىء او سيل منهمر او زلازل و انهيارات ارضية او ما اشبه ، و الذي يدفعه الى ذلك كله تهربه من الموت و من عاقبة اعماله ، و لكن تلك الجهود تنفعه مالم يأت قدره ، فاذا جاء القدر فأين المفر ؟

ان المدينة و بالذات اذا كانت بمستوى مدن عاد العظيمة علامة بارزة لحضارة الانسان حتى سميت الحضارة بالمدينة ، لانها رمز تعاون بناء بين مجاميع كبيرة من الناس ، و سيادة نوع متقدم من القوانين عليهم ، كما انها تأتي نتيجة تراكم تجارب و جهود عظيمة يتوارثها اهلها جيلا بعد جيل ... و لكنها عرضة للدمار الشامل اذا تسلط عليها المترفون ، و وجهوها عكس مسيرة الخير و الفضيلة ، و اتخذوها وسيلة للبطش بالآخرين ، كما فعلت عاد فدمرها الله شر تدمير ، فأين الأحقاف التي كانت مساكنهم بين اليمن و حضرموت ، و اين قبورهمو اثارهم ؟

[9]كذلك ثمود الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية بين المدينة و الشام ، فشيدوا لأنفسهم القصور التي اقتطعوها من الجبال المحيطة و حفروها ايضا ملاجىء و مخازن لهم .. ان مصيرهم كان ايضا الدمار.

]و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد[

جابوا : اي قطعوا ، و يقال : يجوب البلاد اي يقطعها ، و الوادي : المسير بين الجبال.

[10]و كانت عاد و ثمود و قصة إبادتهم معروفة عند العرب في الجزيرة ، لأنهما كانتا في طرفي الجزيرة ، اما آل فرعون فقد كانت قصتهم مشهورة عند الأمم ، لأنهاكانت ذات صبغة عالمية ، و قد سمعتها العرب من اهل الكتاب الذين اتصلوا بهم ، و قد فصلها القران تفصيلا في مواقع كثيرة ، و اجملها هنا بكلمات فقال:

]و فرعون ذي الأوتاد[

قالوا : أوتاده أركان سلطته من جنود و عساكر و أموال و أساليب قهر و سلطان ، و قال بعضهم :بل كان يعذب الناس بالأوتاد حيث يشدهم بها الى ان يموتوا ، و هكذا فعل بآسية : زوجته و ماشطة ابنته ، و قال بعضهم : بل الاهرامات التي تشبه الوتد في الارض .. و أنى كان فقد زعم ان تلك الأوتاد تنقذه من مصيره.

[11]و يبدو ان المراد بفرعون هم آل فرعون ، او هو و أوتاده الذين أيدوه ، فلذلك قال عنهم ربنا سبحانه:

]الذين طغوا في البلاد[

ذلك ان للانسان قدرة محدودة لتحمل ضغوط التملك ، فمن الناس من تبطره نعمة تافهة ، و منهم من إذا امتلك الدنيا يظل قادرا على التصرف بحكمة و رشد ، و إنما يرتفع الى مستوى ضبط النعم و عدم الوقوع في أسرها و الاسترسال مع رياحها اذا كان مؤمنا بالله و باليوم الآخر . و آل فرعون أبطرتهم النعمة ، فلما رأوا النيل يجري في بلادهم بالخيرات ، و قد دانت لهم الشعوب المستضعفة من حولهم ، وقد عرفوا بعض العلوم الجديدة في فن العمارة و الزراعة و تحنيط الأموات وما اشبه فاستكبروا في الأرض و طغوا.

[12]و هكذا ركبوا مطية الطغيان الجامحة ، و أسكتوا الأصوات المعارضة ، و تسلحوا بمنطق القوة ، و اتبعوا نهج الدجل و التضليل ، و اصبحت السلطة مركزا لكل فاسد مفسد ، منافق متملق ، قوال كذاب ، محب لنفسه ، معقد من الناس ،و بدأوا رحلة النهاية إذ أخذت السلطة تنشر الفساد في الأرض بدل الصلاح ، و الظلم بدل العدالة.

]فاكثروا فيها الفساد[

[13]حتى اذا طفح بهم كيل الفساد ، و جاءهم النذير فهموا به ليقتلوه هنالك نزل عليهم العذاب الشديد .

]فصب عليهم ربك سوط عذاب[

جاء العذاب كما السيل المنهمر يصب عليهم من عل انصبابا فأين المفر ؟ و كان كلذع السوط و سرعته ، يسوطهم فيخالط لحمهم و دمهم.

قالوا :العرب كانت تسمي العذاب الشديد سوطا ، و قيل : بل أصل معنى السوط خلط الشيء بالشيء ، و لان العذاب الشديد يخالط اللحم و الدم يسمى بالسوط.

و قال السيد قطب في هذه الاية : هو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، و بفيضه و غمره حين يذكر الصب ، حيث يجتمع الألم اللاذع و الغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد (١. (

و هكذا جاءت نهاية عاد و ثمود و آل فرعون واحدة لان أعمالهم كانت متشابهة بالرغم من اختلاف بلادهم و عصورهم و سائر تفاصيل حياتهم و الجرائم التي ارتكبوها.

[14]قسما بأيام المسيرة الكبرى ، بفجر العيد و ليالي الإحرام و يوم العيد و يوم(١) في ظلال القران / 890ص ٥٧٢.

عرفة و بليلة الإفاضة ، و على هدى تلك العبر التاريخية : ان الله يقف للطغاة و المجرمين بالمرصاد.

]ان ربك لبالمرصاد[

الجيش المعادي يسير بين شعاب الوادي بكل غرور ، و قوات الدفاع قد اتخذت مواقعهـا خلف صخور السفوح و فوق مرتفعات الجبل ، و في مثل لمح البصر تقع الواقعة ، و يتبخر غرور الجيش و يتلاشى.

كذلك أعداء الله يأخذهم في ساعة غرورهم و غفلتهم لان ربك بالمرصاد .. و هم عنه غافلون ، و من سطواته آمنون.

تلك هي ذروة السورة فيما يبدو ، و محور آياتها ، و خلاصة دروسها ، فمن وعى هذه الحقيقة ، و خشي سطوات الله ، ولم يأمن مكره ؟ ومن اتقى اخذه الشديد في ساعات الغفلة ، و كلما هم بمعصية او فكر في ظلم أحد فكر في نفسه : أوليس الله يراقبني و هو بالمرصاد ؟ منإذا هم بظلم أحد تذكر القهار العظيم الذي يأخذ الظالمين بشدة ، وإذا تمادى في الظلم ولم ينزل به العذاب تذكر ان ذلك قد يكون كيدا متينا له حتى يؤخذ بشدة.

جاء في الدعاء المأثور عن الامام السجاد - عليه السلام: -

"اللهم صل على محمد و آل محمد و لا أظلمن و أنت مطيق للدفع عني ، و لا أظلمن و أنت القادر على القبض مني . (1) "

وقال الشاعر:

(1)مفاتيح الجنان / دعاء مكارم الاخلاق.

تنام عيناك و المظلوم منتبه يدعو عليك و عين الله لم تنمو أما المظلوم و المستضعف و الثائر المقهور فانهم جميعا يزدادون أملا و استقامة و تحديا عندما يعرفون ان الله من الظالمين بالمرصاد ، فلا ينهزمون نفسيا ولا يستسلمون.

[15]لكي يتسامى الانسان عن حتميات المادة و مؤثراتها الضاغطة ، و لكي يبقى مالكا للدنيا متصرفا فيها لا مملوكا لها مسترسلا معها ، و بالتالي لكي لا تطغيه الثروة و السلطة و تجره الى الترف و الفساد ، يبصرنا الذكر بحكمة المال و القدرة المتمثلة في اختيارإرادة الانسان و تجربة معدنه و مدى صبره على إغرائها و انسيابه مع جاذبيتها.

و ليست الثروة دليل كرامة الانسان عند الله و اجتبائه من لدنه ، فلا يستبد به الغرور فيزعم انه على حق ، ثم يتسافل فيزعم انه بذاته الحق ، ثم يبلغ به السفه و الطغيان الى الزعم بانه الرب الأعلى!

كلا .. الثروة مادة اختبار ، و على الانسان ان يتخلص من إغرائها بانفاقها و التقيد بالحدود الشرعية في جمعها.

]فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه فيقول ربي أكرمن]بلى . الثروة بذاتها نعمة و كرامة و لكنها في ذات الوقت ابتلاء و اختبار ، و هذا هو الخط الفاصل و الدقيق في ذات الوقت بين البصيرة الإلهية و التصور البشري ، فليست الثروة رجسا ، و ليست كرامة دائما ، بل هي حقيقة بلا هوية بلا صبغة ، و انما تكتسب هويتها وصبغتها من طريقة تصرف الانسان فيها.

[16]كما ان الفقر ليس بذاته نقمة ، و انما النقمة الاستسلام له ، و الاعتقاد بانه دليل مهانة عند الله.

]و أما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه[

و كانت حكمة ضيق الرزق ابتلاءه ، تراه فقد ثقته بنفسه ، و زعم انه رجل مهان منبوذ ، و ان واقعه لا يتغير .

]فيقول ربي أهانن[

كلا .. الفقر ليس إهانة ، بل هو اختبار ، و رب فقير ذي طمرين لا يؤبه به عند الناس لو أقسم على الله لأبره.

أليست الثروة قد تكون على طرق غير مشروعة ، بل عادة تكون كذلك ؟

أوليس الفقر قد يكون لاسباب خارجة عن ارادة الانسان كأن يولد الانسان في بلد فقير و من ابوين معدمين ؟ فكيف تكون الثروة مقياسا للكرامة الإلهية ، و تتحول بذاتها الى قيمة مقدسة ، و يصبح الفقر معيارا للهوان عند الله ، اداة لتذليل الانسان و تصغيره ؟

[17]كيف يتخلص الانسان من جواذب المادة و أثقالها ؟ باكرام الضعفاء و الانفاق عليهم ، و عدم انتهاب اموال المحرومين.

اولئك الذين جعلوا المادة قيمة تراهم ممسوخين عن الفطرة السليمة ، فلا تجدهم يكرمون اليتيم الذي يستثير الرحمة و العطف عند البشر السوي ، أنى كان دينه و مستواه.

]كلا[

ليس كما تزعمون ان الغنى دليل كرامة الفرد عند الله ، و ان الفقر دليل هوانه ، انما هما ابتلاء و فتنة.

]بل لا تكرمون اليتيم[

وهذا عاقبة المجتمع المادي المرتكس في اوحال المادة و عبادة الثروة و اكرام الغني لغناه .. فهل هذه العاقبة تنسجم مع العاطفة الانسانية ، و هل يقبلها و جدان بشر أنى كان ؟ كلا .. ان بني آدم مفطورون على العطف على الضعيف ، و بالذات الطفل الذي يفيض براءة وطيبا ، و اذا كان الطفل يتيما لا يملك قوة ذاتية يدفع عن نفسه الاخطار و الاطماع ، و لا حاميا يقيه الشرور ، و لم يحظ بالقدر الكافي من العطف الأبوي - انه يذيب القلب حنانا - فما اقسى قلب من يهينه و يجافيه ؟

كـل ذي وجدان يحكم بان المجتمع الذي يقسوا على اليتيم مجتمع ممسوخ منكوس ، و ان قيمه باطلة و نظامه فاسد .

و ذلك مقياس سليم و فطري يبينه القران في المعرفة ، حيث انه يدلنا على عاقبة النظام لمعرفة صلاحه او فساده ، فاننا لا نستطيع ان نحكم على نظام اجتماعي بادعاءاته او شعاراته ، و لكن نحكم عليه بعاقبته ، فان وافقت و جداننا الانساني و انتهى الى حماية الضعيفو إكرام اليتيم و الانفاق على المحتاج و ما اشبه نعرف صلاحه.

و هكذا بالنسبة الى كل شيء لا تدرس بدايته بل راقب نهايته و عاقبته ، حتى تعرف طبيعته.

[18]في المجتمع الجاهلي حيث يصبح المال قيمة يعيش المعدمون الذين أسكنتهم الفاقة في عناء كبير ، اذ لا يشجع الناس بعضهم للإعتناء بهم.

]ولا تحاضون على طعام المسكين[

من هو المسكين ؟ انه بشر مثلي و مثلك أقعدته عوامل قاهرة عن اكتساب رزقه ، ألا ترحمه ؟ تصور لو كنت - لا سمح الله - مثله كيف كنت تتوقع من الناس ؟ اليس من الممكن ان تصبح انت او واحدا ممن تحبهم مسكينا ، فهل ترضى ان يطوي ليله جائعا ، و يعيش الناس من حولهالتخمة ؟ و هل يرضى بذلك انسان ذو ضمير ؟

ان اقل ما نقدمه للمسكين الطعام .. انه حق البهائم و النباتات فكيف بمن هو نظير لنا في الخلق ؟!

و قد ذكر الرب انهم لا يأمرون بعضهم باطعام المسكين لبيان انتكاس المجتمع عن قيم الانسانية ، فربما منع الواحد بخله عن اطعام المسكين و لكنه مستعد لأمر غيره بذلك ، بل نرى البخيل عادة يتمنى لو ان غيره تكفل عنه باطعام المحتاج ، اما إذا تردى المجتمع الى عدم حض بعضهم على إطعام المسكين فقد هبط الى أسفل السافلين . و هذه هي نهاية اعتبار الغنى كرامة إلهية و الفقر ذلا و هوانا.

[19]و الأسوء من ذلك أكلهم التراث ، و التهام أموال اليتامى جميعا ، حتى إذا كبروا لم يجدوا أمامهم إلا الحرمان و الحسرة.

]و تأكلون التراث أكلا لما [

قالوا " :لما " يعني جمعا ، و منه قولهم : لم الله شعثه اي جمع ما تفرق من اموره ، و لعل هذه الكلمة تشير الى الإسراع في أكل التراث لئلا يكبر أهله فيطالبون به ، كما قال سبحانه : " و لا تأكلوها اسرافا و بدارا ان يكبروا . (1) "

(1)النساء / ٦.

[20]و هكذا ينحدر الذي يزعم ان الثروة هي اقصى كرامة عند الله الى درك عبادة المال ، و الانسياق مع مصادره و من يملكه من المترفين.

]و تحبون المال حبا جما[

أي حبا كثيرا ، و منه : جم الماء في الحوض إذا اجتمع و كثر ، و أنشدوا:

ان تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألمـــاهذه هي ملامح المجتمع الذي يقدس المال . انه لا يكرم اليتيم الذي يستدر عطف كل بشر ، و لا يأبه بمسكين ، و يسترسل مع المال.

[21]إذا تجب مواجهة هذه القيمة الشاذة التي تحسب الكرامة في الثروة ، و الهوان في الفقر ، و لكن أنى يستطيع الانسان التسامي من ارض خلق منها و عجنت طينته بحبها و حب شهواتها و زينتها ! بلى .إذا آمن بالله ، و تطلع الى لقائه ، و عرف ان الحياة حقا هي حياة الاخرة ..آنئذ تعزف نفسه عن الدنيا ، و يقدم من جهده و ماله لبناء مقره النهائي في الآخرة.

من أجل هذا يصور لنا السياق مدى الحسرة التي تشمل الناس الذين لم يعمروا حياتهم الآخرة ، و أذهبوا طيباتهم في الدنيا تلك اللحظات الزائلة التي سرعان ما تبخرت و لم تخلف لهم سوى الندم و الحسرات في يوم الزلزال الكبير.

]كلا[

ليست الدنيا نهاية المطاف ، و ليست الثروة قيمة عند الله ، و ليست تصوراتهم عن أنفسهم صحيحة .. و متى يتجلى لهم ذلك ؟ إنما عند قيام الساعة.

]إذا دكت الأرض دكا دكا[

فاذا بالأبنية التي هي نتيجة تراكمات جهد الملايين تنهار بفعل الزلزال الرهيب الذي يدك الأرض فيسويها و يدعها قاعا صفصفا.

قالوا : أي زلزلت الارض فكسر بعضها بعضا و تكسرت الأشياء على ظهرها ، و قال بعضهم : بل دكت جبالها و أنشازها حتى استوت.

و أنى كان فان الارض تنبسط كالأديم لا ترى فيها عوجا و لا أمتا ، و لا حفرة و لا ارتفاعا . فهل تبقى يومئذ قيمة لعقار او ركاز او ذهب و فضة ؟!

[22]هنالك يتجلى الرب بعظمته للعالمين ، فلا أحد يقدر على الهرب من سطوته او الشك في قهره و قدرته ، حيث ترى الملك صافين ينتظرون أوامره.

]و جآء ربك و الملك صفا صفا [

أي آية عظيمة من آيات الله تتجلى تلك التي عبر القرآن عنها : " و جاء ربك " ؟ لست أدري ، و لكنه يوم عظيم لا يمكننا و نحن نعيش حدود الدنيا الضيقة ان نتحسس آفاق عظمته.

[23]إلا أن من معاني شهود الله حضور تلك القيم التي أمر بها ، و تلاشي قيم الزيف و الضلال التي امتحن الناس بها في الدنيا .. لذلك فأول ما يؤتى بجهنم سجن المجرمين الرهيب.

]وجيء يومئذ بجهنم[

أين جهنم اليوم ، و كيف يؤتي بها ذلك اليوم ؟ هل هي كرة ملتهبة عظيمةكالشمس و أعظم منها ، حتى ان الشمس حين تقع فيها تصيح من شدة حرها ، ام ماذا ؟ لا نعرف ، و لكن جـاء في رواية مأثورة عن أبي جعفر (الباقر) - عليه السلام -انه قال : " لما نزلت هده الآية : " وجيء يومئذ بجهنم " سئل عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه و اله - ، فقال : بذلك اخبرني الروح الأمين ان الله لا إله غيره إذا برز الخلائق و جمع الأولين و الآخرين أتـــي بجهنم يقاد بألف زمام يقودها مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد ، لها هدة و غضب و زفير و شهيق ، و انها لتزفر الزفرة فلولا ان الله اخرهم للحساب لأهلكت الجميع ، ثم يخرج منها عنق فيحيط بالخلائق البر منهم و الفاجر فما خلق الله عبدا من عباد الله ملكا و لا نبيا إلا ينادي : رب نفسي نفسي ، و انت يا نبي الله تنادي : امتي امتي ، ثم يوضع عليها الصراط أدق من حد السيف ، عليها ثلاث قناطر فاما واحدةفعليها الامانة و الرحم ، و ثانيها فعليها الصلاة ، و اما الثالثة فعليها رب العالمين لا اله غيره ، فيكلفون الممر عليهم فيحبسهم الرحم و الأمانة فان نجوا منها حبستهم الصلاة ، فان نجوا منها كان المنتهى الى رب العالمين ، و هو قوله : " ان ربك لبالمرصاد" ، و الناس على الصراط فمتعلق بيد ، و تزول قدم ، و يستمسك بقدم ، و الملائكة حولها ينادون : يا حليم اعف و اصفح وعد بفضلك و سلم سلم ، و الناس يتهافتون في النار كالفراش فيها ، فاذا نجا ناج برحمة الله مر بها فقال : الحمد لله و بنعمته تتم الصالحات و تزكوا الحسنات ، و الحمد لله الذي نجاني منك بعد أياس بمنه و فضله ان ربنا لغفور شكور " (١. (

و فـي حـديث آخـر إضافة رهيبة حيث يقول الرسول - صلى الله عليه و اله - : " جاء جبرئيل فأقرآني " وجيء يومئذ بجهنم " فقلت " : يجاء بها ؟ قال : يجيء بها سبعون الف يقودونها بسبعين الف زمام ، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت(١) بحار الانوار / ٨٦٠ ص ١٩٣ .

اهل الجمع(1) " !!

]يومئذ يتذكر الانسان و أنى له الذكرى[

لا تنفعه الذكرى بعد فوات أوانها.

[24]ماذا يتذكر ؟ يتذكر طيباته التي بددها فيما زالت ، يتذكر شبابه الذي أبلاه في شرة السهو و التباعد عن الرب ، يتذكر أمواله التي جمعها من غير حل ، و انفقها في غير رضا الرب ، يتذكر أوقاته التي أفناها في اللهو و الغفلة و الاشتغال بالتوافه ، و كل ساعةمنها كان يستطيع ان يحصل بها على ملك كبير في الآخرة!

]يقول يا ليتني قدمت لحياتي [

انها تلك الحياة حق الحياة ، الحياة الخالدة التي لا تزول.

[25]هنالك العذاب الإلهي الذي يتجلى به الرب ، و الوثاق الإلهي الذي يتجلى به غضبه.

]فيومئذ لا يعذب عذابه أحد[

لا أحد يعذب كالله ، لانه الأعظم الأكبر الذي لا يقاس اي شيء منه بأي شيء من خلقه . و ان الانسان ليهرب من عذاب الدنيا و لا يعرف ان عذاب الله في الآخرة لا يقاس ببعض الأذى في الدنيا.

جاء في دعاء أمير المؤمنين علي - عليه السلام - : " و أنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا و عقوباتها و ما يجري فيها من المكاره على أهلها ، على ان ذلك(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٧٦.

بلاء و مكروه قليل مكثه ، يسير بقاؤه ، قصير مدته ، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة و جليل وقوع المكاره فيها ؟ ! وهو بلاء تطول مدته ، و يدوم مقامه ، و لا يخفف عن أهله ، لانه لا يكون الا عن غضبك و انتقامك و سخطك ، و هذا ما لا تقوم له السماوات و الارض ، يا سيديفكيف بي و أنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين ؟ [26](1) " !كما لا شيء يشبه سجن الله و وثاقه.

]و لا يوثق وثاقه أحد[

أي لا يشد احد وثاقا بذات الشدة التي يشد الله وثاق الكفار.

[27]أهذا خير ام مصير المؤمنين الذين قدموا لحياتهم فعمروا آخرتهم ، فاطمأنت نفوسهم بسكينة الايمان ، و تساموا فوق مؤثرات المادة ، فربما ملكوها و لكنها لم تمتلكهم أبدا ، فعاشوا أحرارا ، و ماتوا سعداء ، إذا استقبلهم ملك الموت فبترحاب ، و نودوا في أولساعة من حياتهم الأبدية بالبشرى.

]يا أيتها النفس المطمئنة[

يعيش المؤمن بين الخوف و الرجاء ، فان دعاه الى الخوف إحساسه بالتفريط في جنب الله ، فقد دعاه الى الرجاء يقينه بعظيم عفو الله و واسع رحمته . كل خوفه من العاقبة السوئى ، و من ألا يتقبل الله حسناته ، و لا يتجاوز عن سيئاته ، و من ان يتبين في ساعة الرحيلان حساباته كانت خاطئة ، و انه ليس كما كان يرجو من اصحاب الجنة . أولم تسمع مناجاة الامام السجاد علي بن الحسين - عليه السلام - : " ليت شعري أللشقاء ولدتني أمي أم للعناء ربتني ، فليتها لم تلدني و لم(١) مفاتيح الجنان / دعاء كميل.

تربني ، و ليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني و بقربك و جوارك خصصتني فتقر بذلك عيني و تطمئن له نفسي " (١)[٢٨] فاذا جاءه النداء الإلهي عند وفاته : " يا أيتها النفس المطمئنة " استراح ، و شملته البشرى ، و عمه الفرح .. هنالك يستطيب الموت لانه عودة العبد الكريم الى الرب الرحيم الذي يستضيفه بالقول:

]ارجعي الى ربك راضية مرضية [

لقد اطمأنت انفسهم الى بارئها ، و توكلوا على الله ، و سلموا لقدره و قضائه ، و لم يبطرهم الغنى ، و ما اعتبروه صك الغفران ، ولم يهزمهم الفقر ، وما اعتبروه لعنة إلهية .. لذلك فان الله يرضيهم بنعيم الأبد ، و ينبؤهم بأنهم مرضيون ، و ما أحلى ساعة اللقاءبحبيبهم و أنيسهم ، وما أروع كلمات الود المتبادلة ، جاء في الحديث القدسي عن الله عز وجل انه قال في حق الزاهدين و أهل الخير و أهل الآخرة : " فو عزتي و جلالي لاحيينهم حياة طيبة اذا فارقت أرواحهم أجسادهم ، لا أسلط عليهم ملك الموت ، و لا يلي قبض روحهـــم غيري ، و لأفتحن لروحهم ابواب السماء كلها ، و لأرفعن الحجب كلها دوني ، و لآمرن الجنان فلتزينن ، و الحور فلتزفن ، و الملائكة فلتصلين ، و الأشجار فلتثمرن ، و ثمار الجنة فلتدلين ، و لآمرن ريحا من الرياح التي تحت العرش فلتحملن جبالا من الكافور و المسكالاذفر فلتصيرن وقودا من غير النار فلتدخلن به ولا يكون بيني و بين روحه ستر فأقول له عند قبض روحه : مرحبا و أهلا بقدومك علي ، إصعد بالكرامة و البشرى ، و الرحمة و الرضوان ، و جنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم ، فلو رأيتالملائكة كيف يأخذ بها واحد و يعطيها الآخر ! " (٢)(١) مفاتيح الجنان /مناجاة الخائفين.

(2)كلمة الله / المؤلف السيد حسن الشيرازي ص . 369

و جاء في نفس الحديث : " وإذا كان العبد في حالة الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كل ملك كأس من ماء الكوثر و كأس من الخمر ، يسقون روحه حتى تذهب سكرته و مرارته ، و يبشرونه بالبشارة العظمى ، و يقولون له ؟ : طبت و طاب مثواك ، انك تقدم على العزيز الحكيم ، الحبيب القريب ، فتطير الروح من أيدي الملائكة فتصعد الى الله تعالى في أسرع (من) طرفة عين ، و لا يبقى حجاب و لا ستر

بينها و بين الله تعالى ، و الله عز و جل اليها مشتاق ، و تجلس على عين عند العرش ، ثم يقال لها : كيف تركت الدنيا ؟ فتقول : الهي وعزتك و جلالك لا علم لي بالدنيا ، انا منذ خلقتني خائفة منك ، فيقول الله تعالى :صدقت يا عبدي ، كنت بجسدك في الدنيا و روحك معي ، فانت بعيني ، سرك و علانيتك ، سل اعطك ، و تمن علي فأكرمك ، هذه جنتي فتجنح فيها ، و هذا جـــواري فأسكنه ، فتقول الروح : الهي عرفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك ، و عزتك و جلالك لو كان رضاك في ان أقطع إربا إربا ، و أقتل سبعين قتلة بأشد ما يقتل بـه الناس لكان رضاك احب إلي ، إلهي كيف أعجب بنفسي و أنا ذليل إن لم تكرمني ، و أنا مغلوب إن لم تنصرني ، و أنا ضعيف إن لم تقوني ، وأنا ميت إن لم تحيني بذكرك ، و لولا سترك لافتضحت أول مرة عصيتك ، الهي كيف لا أرضيك و قد أكملت عقلي حتى عرفتك ، و عرفت الحق من الباطل ، و الأمر من النهي ، و العلم من الجهل ، و النور من الظلمة ، فقال الله عز و جل : و عزتي و جلالي لا أحجب بيني و بينك في وقت من الاوقات ، كذلك أفعل بأحبائي " (١. (

[29]ثم يدخل الله روح المؤمن بعد قبضها برضاه في حزبه المفلحين في عباده الصالحين حيث المؤانسة و الصفاء .

(1)المصدر / ٣٧٥.

]فادخلي في عبادي[

أي انتظمي في سلكهم.

[30]و تستقبله دار ضيافة الله و منزل كرامته الجنة التي من دخلها لم يخرج منها أبدا.

]وادخلي جنتي[

جعلنا الله من أهل جنته انه سميع الدعاء.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - : " من كان قراءته في فريضته " لا أقسم بهذا البلد " كان في الدنيا معروفا انه من الصالحين ، و كان في الآخرة معروفا ان له من الله مكانا ، و كان يوم القيامة من رفقاء النبيين و الشهداء و الصالحين. "

تفسير سورة الثقلين / ج ٥ - ص ٥٧٨

الاطار العام

حينما يولد ابن ادم تتساوى في كيانه فرص الخير و الشر ، و لا يزال يختار ثم يستفيد من فرص الخير او الشر الواحدة بعد الأخرى حتى تميل كفته نحو ما اختار . فرص الخير هي العناصر النورية التي لو رجحت حملته الى الجنة ، بينما فرص الشر هي العناصر النارية التيلو تكاثفت هوت به الى جهنم و ساءت مصيرا .

و لا أعرف شيئا يجري فيه تحول ذاتي كالانسان . انه يتمحض بالتالي للجنة او للنار ، هنالك لا يعود مختارا ، ولا يعود يملك حرية اختيار واحد من النجدين ، بل يبقى كما اختار اولا : اما الى جنة النور خالدا فيها ، او الى جهنم النار خالدا فيها ، او لبعض الوقت.

كيف يتم اختيار الشر ؟ انه ليس بحاجة الى العزم و الوعي ، بل يكفي الغفلة و الاسترسال سبيلا يؤدي به الى النار ، كما لو تسلق الانسان الجبل لا يحتاج سقوطه في الوادي الى إرادة و حكمة ، بل ليدع نفسه لحظة فسوف نراه في الوادي مهشما بعد لحظات ، بينما الذي يختار الجنة عليه ان يتسلح بوعي الذات و عزم الإرادة ، و لعلهذه البصيرة هي محور سورة البلد.

ذلك ان القسم الاول من السورة يبصرنا بأنفسنا ، و اننا في كبد (الارض و المكان) و علينا وعي ذلك حتى نتحدى الصعاب بعزم الارادة ، و نعرف ان الله قادر علينا فنراقبه ، و خبير بنا فلا نخدع انفسنا ، خصوصا عند الانفاق ، فنزعم : اننا أهلكنا مالا كثيرا.

اما القسم الثاني فيذكرنا بضرورة اقتحام العقبة ، و تجاوز المنعطف الخطير الذي يجد الانسان نفسه بين أمرين : بين السقوط في اشراك الهوى او التحليق في سماء الحق.

و بعـد ان يبين مثلين لاقتحام العقبة هما : فك رقبة ، و الاطعام في يوم ذي مسغبة ، يهدي الى قمة التحول الايجابي عند البعض المتمثلة في الايمان و التواصي بالصبر و المرحمة.

كما يشير في السياق في خاتمة السورة الى التحول السلبي عند البعض الآخر متمثلا في الانحياز الى المشأمة حيث النار المؤصدة.

و ما ادراك ما العقبة
بينات من الايات
[1]لكي نعي مدى خطورة قضية نقيسها بأخرى عبر القسم ، و حينما يأتي القسم في كلام الله ، يضاف الى ذلك بعدان آخران : أولا : يعكس عظمة ما يقسم به بذات النسبة التي يعكس أهمية ما يقسم عليه ، ثانيا : يكشف عن علاقة خفية او ظاهرة بين الأمرين ، و في فاتحة سورة البلد نجد التلويح بالقسم بالبلد و بالوالد و الولد ، لبيان المشاق التي يواجهها الانسان ، فما هي العلاقة بينهما ؟ انها تتمثل في ان أعظم ما يكابده البشر يتصل بالارض و الاولاد.

]لا اقسم بهذا البلد[

قلنا :ان القسم يهدف إلقاء ظلال من العظمة على الموضوع ، و سوف يحقق هذا الهدف نفيه او اثباته ، و قد يكون نفي القسم يوحي بأهمية ما يحلف به مما يبالغ في العظمة ، و لذلك قال المفسرون : ان لا هنا زائدة ، و بعضهم قال : انها تشبه كلمةكلا ، تنفي أفكار الجاهليين.

و البلد - حسب اقوال المفسرين - : مكة ، و شرف مكة واضح.

[2]ولكن مكة ليست بأشرف من رسول الله ، بل شرف كل ارض بمن يسكنها من عباد الله الصالحين ، و لذلك جاء في الحديث : " المؤمن أعظم حرمة من الكعبة (1) " و يفسر ذلـك حديث آخـر : ان رسول الله - صلى الله عليه و آله - نظر الى الكعبة فقال : "مرحبا بالبيت ما أعظمك ! و أعظم حرمتك على الله ! و الله للمؤمن أعظم حرمة منك ، لان الله حرم منك واحدة ، و من المؤمن ثلاث : ماله ، و دمه ، و ان يظن به ظن السوء " (٢) أوليست الكعبة أول بيت وضع للناس ، فالهدف اذا هو الانسان الذي سخرت له الارض و مافيها ، و اي انسان أشرف من محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله.

]و أنت حل بهذا البلد[

اي أنت تسكن هذا البلد و تحل فيه ، و قال بعضهم معنى الآية : لا أقسم بالبلد الذي يستحل النبي فيه

. و قد روي ذلك مأثورا عن الامام الصادق عليه السلام حيث قال : " و كان أهل الجاهلية يعظمون الحرم ، و لا يقسمون به ، و [لا] يستحلون حرمة الله فيه ،و لا يعرضون لمن كان فيه ، و لا يخرجون منه دابة ، فقال الله تبارك و تعالى " لا أقسم بهذا البلد * و أنت حل بهذا البلد * . و والد وما ولد " قال : يعظمون البلد ان يحلفوا به ، و يستحلون فيه حرمة رسول الله " (٣. (

و على هذا يكون شرف المكان بتوفر حالة من الحرية و الامن لمن يسكنه.

(2) (1)موسوعة بحار الانوار / ج ٦٧ - ص ٧١.

(3)تفسير البصائر ج ٥٥ -ص ٥٣٣ نقلا عن الكافي.

[3]ثم يقسم بالقرآن بوالد وما ولد ، فيقول:

]و والد وما ولد[

فمن هما ؟ يبدو ان كل والد يكابد حتى ينمو ولده و يشب ، كما يكابد كل ولد حتى يكتمل و يصبح والدا ، و القسم على هذا مطلق يشمل كل انسان.

و قال بعضهم بل المراد آدم -عليه السلام - و ذريته ، أو ابراهيم - عليه السلام - و نجله اسماعيل ، أو كل ذريته الصالحين.

[4]ايهما أيسر عليك إذا حملت ما يزن خمسة كيلوات و أنت تزعم انه عشرة ، او كنت تزعم انه ثلاثة ؟! كذلك حينما تواجه الحياة و انت ترى انها كما التسلق على جبل أشم ، فانك تتغلب بسهولة ، بعكس ما لو زعمت انها مجرد رحلة سياحية.

و القران الكريم يريدنا ان نعرف حقيقة الحياة ، و نسموا الى مستواها ، لانه أفضل لديننا و دنيانا من ان نتهرب منها بحثا عن الراحة ، القران يريدك قوي الظهر حتى لا يثقل عليك أي حمل ، و لا يريدك تبحث دائما عن الحمل الخفيف وقد لا تجده .. أولم تقرأ قول الله سبحانه : " يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه " . بلى . و كل حياة الانسان كدح ، إلا انه قد يغفل عنه فيهرب الى ما هو أشد كدحا ، او يستسهله و يتغلب على صعابه حتى لا يعود يعترف بأية صعوبة.

]لقد خلقنا الانسان في كبد [

و أنى لك الفرار من أمر خلقت فيه و هو داخل كيانك بل هو أصل وجودك شئت أم أبيت ؟!

قالوا : الكبد الشدة و النصب .

الوجود ذاته سلسلة انتصارات ضد العدم ، أوليس الوجود نورا يجعل الشيء واقعا ! تصور ان النور ذرات متلاحقة متصلة ، فاذا توقفت فليس ثمة سوى ظلام.

و الحياة بدورها سلسلة صراعات ضد الموت ، انها هي الاخرى نور متجدد ، و هي نتيجة ملايين من العوامل المتزامنة لو فقد بعضها انعدمت.

كما ان حياة كل واحد منا صراع مع الطبيعة ، أوتعرف كم مليار جرثومة هجمت عليك خلال رحلة حياتك بهدف القضاء عليك ، و كم مرة تعرضت او تتعرض لخطر الموت فنجوت منها بإذن الله ، و حتى على مستوى الظاهر تجد الانسان في كبد ، يصارع من أجل البقاء في ظلمات الرحم، و يواجه أكبر التحديات عند الولادة ، حتى اعتبروا ساعتها كساعتي الموت و النشور أشد مما يمر به البشر ، و في الطفولة

المبكرة يعاني من الجوع و العطش و الألم و يتحدى الأخطار ، أوليس تشكل نسبة الوفيات عند الاطفال الأعلى في البلاد النامية و نسبة عالية في غيرها ؟!

راقب طفلا يتعلم المشي وانظر كم يقدم و كم يسقط ، و راقبه عند تعلم اللغة كم يعاني من صعوبة ، و راقبه عندما يسعى لاقناع والديه برغبة ملحة كم يبكي و كم يجهد نفسه . كل ذلك جانب من معاناة الطفل . اما معاناة الكبار فانها لا تنتهي لان الانسان خلق شاعرا طموحا ، و الشعور يفرز الألم ، و الطموح سبيل المعاناة ، و هذا هو الذي يميزه عن سائر الاحياء ، و من هنا روي عن الامام الحسن - عليه السلام - انه قال : " لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد الانسان ، يكابد مضايق الدنيا و شدائد الاخرة " (١. (

[5]و في هذه المكابدة يستوي المؤمن و الكافر ، و الغني و الفقير ، و الكبير ، و الصغير ، و كل من سمي انسان . قد لا تحس أنت بمعاناة رفيقك لأنك لست في(١) المصدر / ص ٥٣٥.

قلبه ، فتزعم ان غيرك أفضل منك ، و لكن أوليسوا هم ايضا بشرا أمثالك . بلى . إذا تعالوا نرضى بواقعنا ، و نتحمل المسؤولية ، و لا يقول الواحد : الان انا صغير ، لو كبرت لارتحت مما اعانيه ، لان الكبار أفضل ، او يقول : انا الان اعزب لو تزوجت او ان سبب متاعبيفقري فلو أغناني الله بلغت الراحة ، او ان سبب مشاكلي ان اولادي صغار فلو كبروا تخلصت من همومهم ، و لكنه ما ان ينتقل من حال الى حال ، او من مرحلة لآخرى حتى تهجم عليه مشاكل جديدة ، كل مشكلة أكبر من أختها . لا تعيش إذا في الأمنيات الحلوة ، في أحلام اليقضة، لا تقل لا يعاقبني الله ، و لماذا ؟ هل أنت إلا بشر.

]أيحسب ان لن يقدر عليه أحد [

قالوا معناه : ايظن ان آدم ان لن يعاقبه الله عز وجل ؟ انه ينظر الى ما أوتي من نعم الله فيصيبه الغرور و لا يفكر ان ما لا يملكه أكثر مما يملكه ، يقول :لا أحد يقدر علي ، و هو يعيش في وسط المشاكل و كبد التحديات.

[6]أوتدري كيف يكبر الانسان ؟ حينما يحمل قضية كبيرة ، و نسبة أدائه لقضيته يكون تساميه ، وهكذا حمل الله عباده الصالحين المزيد من المسؤوليات ، و ابتلاهم بأشد البلاء ، حتى جاء في الحديث المعروف : " البلاء للأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " بيد ان بعض الناس كلما حمل رسالة او قضية او مسؤولية صغرت نفسه في عينيه ، و قال : كيف اؤدي هذا العمل ؟ و حاول الفرار منها . حقا عند هذه النقطة يفترق العظماء عن غيرهم ، انهم لا يجدون أحدا أحق منهم بعمل الخير او تحمل المسؤولية ، بل تجد بعضهم يبحثعنها بحثا حثيثا.

و لعل الاية هذه تعالج هذه الحالة الشاذة في نفس الانسان ، حيث تراه إذا أعطى قليلا كبر في عينيه ، و قال : انه مال كثير ، و لا يقول انه قدمه لحياته ، بل يراهمغرما و يقول : انني أهلكته.

]يقول أهلكت مالا لبدا[

أي مالا كثيرا مجتمعا ولعله يكون كاذبا في ذلك ، فلم ينفق إلا قليلا ، و عظم عمله في عينه ، بخلاف المؤمن الذي لا يخرج أبدا عن حد التقصير في جنب الله ، و لذلك فهو يتطلع أبدا الى عمل أكبر و أفضل.

[7]ثم انه يزعم :انه متروك لشأنه كالبهيمة السائحة ، و انه لا أحد يراقبه . كلا .. ان الله يراقبه وهو أقرب اليه من حبل الوريد.

]أيحسب ان لم يره أحد[

[8]ان الذين يتهربون من مسؤولياتهم يفرغون حياتهم من محتواها ، من لبها ، من هدفها . فلماذا إذا جعل انسانا ، و أوتي الأحاسيس المختلفة : عينا يبصر بها فيعرف الحق و الباطل ، و لسانا ينطق به ، و

شفتين ليطبقها على لسانه ان هم بكلام خاطىء.

]ألم نجعل له عينين[

للبصر و البصيرة معا.

[9]و جعل الله للانسان اللسان الذي ميزه عن سائر الأحياء بالنطق.

]و لسانا و شفتين[

[10]و أعظم النعم انه منحه الحرية فهداه الى ما هو طريق الحق و ما هو طريق الباطل.

]و هديناه النجدين[

و أصل النجد الأرض المرتفعة ، و روي عن النبي - صلى الله عليه و اله - انه قال : " أيها الناس ! هما نجدان : نجد الخير و نجد الشر " (١) و لعل تسمية الطريقين بالنجدين بسبب أنهما طريقان ، واضحان ، متميزان ، ظاهرة معالمهما ، و معروف روادهما.

[11]كل ما في الانسان يعكس المسؤولية التي حمل اياها ، فقد ألهم الفجور و التقوى ، و اودع في داخله نوازع الشر و حوافز الخير ، و سخرت له الأشياء لكي يستخدمها في واحد من السبيلين ، و السؤال : كيف ينبغي ان يتصرف حتى يحقق المسؤولية التي هي الهدف من خلقه؟ عليه ان يقتحم ، و ما لم يفعل ذلك يبقى وراء جدار التخلف.

]فلا أقتحم العقبة[

هل تسلقت الجبال ، و هل صادفك طريق وعر ضيق بين الصخور المتراكمة ، و من تحتك الوادي العميق ، الحالة النفسية التي يعيشها المتسلق الشجاع هي الحالة المطلوبة في تحدي الصعاب في الحياة و تحمل المسؤوليات ، قمة في الوعي و مضاء في العزم و شجاعة في الاقدام .
أية وسوسة او تردد او ارتجاج للقدم ، او أية غفلة و تساهل تكفي سببا للسقوط في الهاوية السحيقة!

و قالوا عن الاقتحام : الدخول بسرعة و ضغط و شدة ، و العقبة : الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود.

[13 - 12]وأي شيء العقبة ؟ انها تجاوز شح النفس ، و مصارعة هواها بالكرم و الايثار.

(1)تفسير نور الثقلين /ج ٥ - ص ٥٨١.

]وما أدراك ما العقبة فك رقبة[

قالوا عن فك الرقبة : انه أشمل من عتق رقبة ، لان العتق هو تحرير الرق بصورة كاملة ، بينما فك رقبة يكون ذلك بالمشاركة مع الآخرين ، و أوردوا في ذلك حديثا مأثورا عن رسول الله - صلى الله عليه و اله - يقول الحديث المرفوع عن البراء بن عازب : جاء اعرابي للنبي ، فقال : يا رسول الله ! علمني عملا يدخلني الجنة ، فقال : " ان كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة . اعتق النسمة و فك الرقبة " فقال : أوليسا واحدا ، قال : " لا . عتق الرقبة ان تنفرد بعتقها ، و فك الرقبة ان تعين في ثمنها ، و الفيءعلى ذي الرحم الظالم ، فان لم يكن ذلك فأطعم الجائع ، واسق الضمآن ، و أمر بالمعروف ، و انه عن المنكر ، فان لم تطق ذلك فكف لسانك الا من خير " (١. (

] [14]أو إطعام في يوم ذي مسغبة[

ان الاطعام جيد وعند المجاعة حيث يحضر النفوس الشح ، و ينتشر الإستئثار ، و يصبح الناس في هلع شديد ، يكون الإطعام أعظم ثوابا ، لانه يعتبر تجاوزا لحالة الشح ، و اقتحاما لعقبة حب الذات.

[15]و الإطعام قد يكون بهدف الحصول على مكسب مادي او رياء و سمعة ، و يتبين ذلك عادة عند انتخاب موضعه ، فمن الناس من لا يعطي الفقير درهما ولكنه ينفق على الموائد الباذخة ألوف الدنانير . من هنا حدد الله كل الانفاق و قال:

]يتيما ذا مقربة[

فأولى الناس بالإهتمام بالأيتام أقرباؤهم ، و اليتيم ، حلقة ضعيفة في المجتمع ،(١) الميزان ج ٣٠ - ص 295 .

لضعفه و قلة احترام الناس له ، و لذلك تتوالى النصوص القرآنية التي تشجع على الاهتمام به.

[16]و المورد الضروري الآخر للانفاق هو المسكين القريب.

]أو مسكينا ذا متربة[

الذي الصقه الفقر بالتراب.

[17]و يبدو ان فك الرقبة و الاطعام مثلان لاقتحام العقبة ، و ان الكلمة تشمل كل اقتحام لعقبة الهوى ، و مجاهدة لتيار الشهوات ، و ان أعظم ما ابتلي به الانسان عقبة التسليم للحق و لمن يمثله من البشر كالرسول و خلفائه عبر العصور ، فمن والى الرسول وائمة الهدى من خلفائه فقد اقتحمها ، وإلا هوى في النار ، لذلك عبر القرآن عن هذه الطاعة بكلمة " ثم " و قال:

]ثم كان من الذين ءامنوا[

فان المسافة بين فك رقبة و الاطعام ، و بين الايمان التام بكل ما أنزل الله و اتباع رسول الله مسافة شاسعة ، و ان البشر لا يزال يعمل الخيرات و يقاوم شهوات نفسه حتى يعرج الى مستوى التسليم لله و الايمان برسالاته ، و اتباع الرسول و خلفائه المعصومين.

و الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، و أعظم منه التواصي به ، فانه قمة التسليم للحق و الرضا بالمكاره التي في طريقه ، و أعظم من الصبر الرحمة ، فقد تعبر على اذى الناس و أنت تدعوهم الى الخير و لكن يمتلأ قلبك بغضا لهم ، بينما المؤمن حقا هو الذي يرحم الناس جميعا وحتى أعدائه تسعهم رحمته ، و أعظم من كل ذلك التواصيبالمرحمة . و اشاعة ثقافة الصبر و الرحمة في المجتمع.

]و تواصوا بالصبر و تواصوا بالمرحمة[

[18]هؤلاء هم اصحاب الجنة الذين يحظون بالعاقبة الحسنى.

]أولئك اصحاب الميمنة[

و هكذا جعل الله شرطا لدخول الجنة يتمثل في اقتحام العقبة ، و من لم يحقق هذا الشرط الأساسي فان أمانيه في الجنة تدهب عبثا ، و قد قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام : " هيهات لا يخدع الله عن جنته. "

و جاء في حديث مأثور " : حفت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات. "

[19]اما الكفار الذي سقطوا في فخ الهوى ، و لم يتساموا الى مستوى التحدي فانهم يتهاوون في النار و ساءت مصيرا .

]و الذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشئمة[

ولا يقبل إنفاقهم ، لان الايمان شرط مسبق لقبول أي عمل صالح ، و العرب كانت تتشاؤم من الشمال وذلك سمتها المشأمة.

[20]و كما سجنوا أنفسهم في زنزانة الذات ، و صدوها عن رحاب الحق الواسعة ، فانهم يعذبون بنار مطبقة عليهم ، مغلقة دونهم.

]عليهم نار مؤصدة[

نعوذ بالله من هذه العاقبة السوأى.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من أكثر قراءة " و الشمس ... " في يوم او ليلة لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة ، حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه ، و جميع ما أقلت الارض منه ، و يقول الرب تبارك و تعالى : قبلت شهادتكم لعبدي و اجزتها له ، انطلقوا به الى جناتي حتى يتخير منها حيث ما أحب ، فأعطوه من غير من و لكن رحمة مني و فضلا عليه ، و هنيئا لعبدي. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٨٥

الاطار العام

عبر خمسة عشر آية ، و ثلاثة مقاطع تبصرنا سورة الشمس بانفسنا ، و كيف نحقق لها الفلاح و نمنع عنها الخيبة.

محور السورة - فيما يبدو - الآيتان (٧ - ٨) حيث توحيان بالبصيرة النافذة . ان بلوغ قمة الكمال عند النفس لا يتم إلا بالتزكية ، بينما الفشل ينتظر من يدس نفسه في وحل الجاهلية و ركامها.

و قبل بيان هذه البصيرة تحملنا الآيات الأولى الى آفاق السماء و الأرض ، و ظواهر الليل و النهار لكي نجعل من العالم المحيط مدرسة لنا و محرابا.

و بعد بيانها تضرب الآيات الأخيرة مثلا عليها بواقع ثمود ، الذين حملهم طغيانهم الى تكذيب رسول الله و عقر الناقة التي كانت لهم آية مبصرة.

و السورة عموما تعمق حس المسؤولية في نفس الانسان ، و من عجب القول ان بعض المفسرين المتأثرين بالفلسفة اليونانية زعموا ان السورة تدل على الجبر ، و هكذاحملوا ربهم سبحانه مسؤولية

ضلالهم و فجور كل قوم ضال . كلا .. ان الانسان قد سويت نفسه ، و ألهمت الفجور و التقوى ، و أمر بالتزكية ، فمن قام بها أفلح ، و من دس نفسه خاب و خسر أهدافه.

فالهمها فجورها و تقواها
بينات من الايات

[1]هل للطبيعة لسان ينطق ؟ بلى . يلهج بحمد ربها ، و لكن ليس لكل الناس أذن تتلقى . ان إشاراتها خفية فمن التقطها كانت له الكائنات مدرسة مسجدا و طهورا ، و لعل من غايات القسم في القرآن تعليمنا لغة الكائنات . أوتدري بأية صورة ؟ ان لنفس البشر شفافية تغطي عليها الرغبات الملحة و الهموم الطاغية ، فالنفس شاعرة تحب الجمال ، و تعشق النور ، و تنجذب الى روعة النظام ، و دقة التناغم ، و لكن الذين يشتغلون أبدا بلذات البطن و ما دونه ، و تلعب بعقولهم خمرة التفاخر و التكاثر أنى لهم الإستماع الى همسات روحهم ،و الاهتمام بلذات عقلهم من هنا يحتاجون الى من يذكرهم بها ، و يستثير في نفوسهم الإحساس بجمال الطبيعة و روعتها و تناسقها و نظمها الدقيق ، يجعلهم ينظرون الى الشمس و ضحاها ببراءة الطفل ، و احساس الشاعر ، و شفافية الواله العاشق ، كلما أشرقت الشمس على البسيطة و نشرت ضحاها فوق الروابي و السهول ، و بثت أشعتها عبر النوافذ و المداخل ، استلهموا منها درسا جديدا بل روحا جديدة . و زخة عاطفية.

]و الشمس و ضحاها[

قسما بها .. أنظر اليها و كأنك لم تعرفها من قبل ما هذه الكتلة العظيمة من النيران ، التي لا تزال تحترق منذ ملايين السنين و لا زالت في كهولتا ؛ لان احتراقها يتم بالتفاعل النووي ، و نحن لازلنا على الأرض نتمتع بدفئها و ضوئها و فوائدها ، و ننتظر نتائجالقمر الصناعي الذي بعثناه أخيرا الى مدارها ، و سيصل بإذن الله هناك بعد حوالي ثلاث سنوات ، و ربما زودنا بالمزيد من المعلومات عنها ، و لكن دعنا - و نحن ننتظر ذلك - نتدبر في ضحوة الشمس و هي كما قيل ضد الظل أي أشعتها المنبسطة على الارض ، و تتجلى عند ارتفاع الشمس و قال بعضهم : ضحى الشمس هي النهار كله ، و يبدو ان القول الأول أظهر وهو ان الضحى من الضح و هو نور الشمس.

[2]للشمس جمالها الناطق وروعتها الصارخة ، أما القمر فجماله صامت و روعته هادئة ، لذلك أختاره الشعراء لسهراتهم ، و العشاق لنجواتهم ، و أهل الطاعة لسبحاتهم . ما هذا الفيض المتدفق من النور الهادىء ؟ يسبح في الفضاء و ينتعش به جمال الطبيعة ، و يهتدي بهالسري!

]و القمر اذا تلها[

اي يلي الشمس ، و من أوتي حسا رهيفا سمع سبحات الشمس و القمر و نورهما فاهتدى الى ربهما العزيز.

[3]قسما بضحوة الشمس و نور القمر . قسما بالنهار الذي يحيط الأرض بضيائه و دفئه و حيويته.

]و النهار إذا جلاها[

يبدو ان الضمير يعود هنا الى الارض و ان لم تذكر كقوله سبحانه عن الشمس : " حتى توارت بالحجاب " و لم تذكر الشمس في السياق.

و قيل : جلى الظلمة وان لم يجر لها ذكر كما نقول أضحت باردة نريد أضحت الغداة باردة او الليلة باردة ، و أنى كان فان التدبر في النهار و نوره و جماله يزيد الانسان بصيرة و هدى.

[4]بعد نهار طويل مجهد يغشى الأرض ظلام الليل و هدوئه ، فيستريح على كفه الناس و الأحياء و النبات ، و من يتدبر في النهار و ضيائه و نشاطه و حركته يصعب عليه كيف يغشى الارض بعد ساعات الليل بسباته و دجاه و سكونه و سكوته . دع فكرك يقارن بينها و ينطلق فيآفاق المعرفة.

]و الليل إذا يغشاها[

و الضمير هنا كما الضمير في الآية السابقة يعود الى الارض ، و جاء في بعض النصوص تأويل هذه الكلمات في الجوانب المعنوية من حياة المجتمع ، و ان الشمس رسول الله - صلى الله عليه و اله - بينما القمر امير المؤمنين- عليه السلام - اما النهار فأئمة الهدى ، بينما الليل أئمة الضلال (١. (

[5]عندما يستجلي المتدبر في ظواهر الطبيعة آيات الله فيها يعي الانسان عظمة السماء و بنائها المتين ، و الأرض و إعدادها لراحة البشر ، و فيذكره الله سبحانه بهما قائلا:

]و السمآء وما بناها[

أي تدبير عظيم ، وأية حكمة بالغة ، و اية قوة واسعة ، وأي علم محيط وراء بناء(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٨٥.

السماء و ما فيها من أجرام سماوية مسخرة في افلاكها . لا يكاد حتى الخيال العلمي الخصب ملاحقة أبعادها و آفاقها و مبتدئها و منتهاها.

[6]أنظر الى الأرض التي تعتبر بالقياس الى سائر أجرام السماء كسمكة صغيرة على شاطىء المحيط إذا قستها الى الحيتان الكبار التي تجوب البحار الواسعة ، او كأصغر حرف من أصغر كلمة في كتاب متواضع بالنسبة الى مكتبة تضم ملايين الأسفار ، فاذا نظرت الى الأرض وبحارها و سهولها و جبالها و أنواع الخلق فيها - مما لا يحصيها العلم - كل نظرك و نصب مخك ، و قلت : سبحان الله ! ما أعظم تلك القوة التي دحت الأرض و هيأتها للحياة بعشرات الملايين من وسائل الحياة و الراحة و أسبابها.

]و الأرض وما طحاها[

قالوا : الدحو و الطحو واحد ، و معناهما البسط ، و قال الماوردي : و يحتمل انه ما خرج منها من نبات و عيون و كنوز لانه حياة لما خلق عليها ، و يبدو ان أصل الطحو هو تهيئة الشيء و تمهيده و الله العالم.

[7]لماذا خلقت السماء و الأرض ، و أحكمتا البناء أوليس للانسان ؟ ! تعالوا و فكروا في هذا العالم الكبير : إنه آية على ما خلقهم الله من الأرض من أحياء و أشياء.

]و نفس و ما سواها[

في أعماق هذه النفس آيات لا يتسنى لغير صاحبها بلوغ أغوارها ، كذلك في أعماق سائر النفوس و سائر الحقائق . انك ترى الشمس من ظاهرها ، تلامس جدرانها الخارجية فهل تعرف ما يجري هناك في داخلها ، كذلك القمر و النهاروالليل ، بينما نفسك أقرب الكائنات اليك لا تقدر على اكتشاف جانب من أغوارها الذاتية ، فتفكر اي خلق عظيم هذه النفس التي هيئها الله سبحانه ، و نظم أمرها ، بأحسن تنظيم.

[8]و اعظم ما في النفس العقل الذي هداها الله به الى خيرها و شرها ، تقواها و فجورها ، ما يصلح لها و عليها ان تأتي به ، و ما يفسدها و عليها ان تتركه.

]فألهمها فجورها و تقواها[

كما قال سبحانه : " و هديناه النجدين " و معرفة الفجور قدمت على معرفة التقوى إذ ان النفس تعرف أولا أسباب الهلاك ، ثم تعرف كيف تتجنبها بوسائل الصلاح .علما بان اكثر الواجبات هي سبل للتخلص من المفاسد.

جاء في الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه و اله - انه كان اذا قرأ هذه الآية : " فألهمها فجورها و تقواها " رفع صوته بها و قال : " اللهم آت نفسي تقواها . أنت وليها و مولاها ، و أنت خير من زكاها " (١ (.

و جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : في تفسيرها : " بين لها ما تأتي وما تترك " (٢. (

[9]عظيمة جدا نعمة العقل الذي هو مرآة للطبيعة ، تعكس ما فيها من خير و شر ، و حسن و قبح ، و جمال و دمامة ، و أعظم منها المشيئة التي بها يتم انتخاب الانسان لواحد منهما ، و يبلغ بها البشر أرفع درجات الكمال المتمثلة في الفلاح ، أوليس الفلاح بلوغ المنى ، و تحقيق أبعد الأهداف و الغايات ؟!

(1)القرطبي ج ٢٠ - ص 76 ، و في تفسير نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٨٦ مثله بتغيير قليل.

(2)تفسير نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٨٦.

بلى . و لكن كيف يبلغ الانسان ذلك ؟ بتزكية النفس و تطهيرها من حوافز الشر ، و رواسب الشرك ، و وساوس الشيطان.

]قد أفلح من زكاها[

قالوا : الزكاة بمعنى النمو و الزيادة ، و منه زكاة الزرع إذا كثر ريعه ، و منه تزكية القاضي للشاهد لانه يرفعه بالتعديل.

و يبدو لي ان أصل معنى الزكاة التطهير ، و بما ان الشيء الطاهر ينمو بينما لا يكون الخبيث إلا نكدا تلازم معنى الزكاة و التطهير.

و قال بعضهم ان أجواد العرب كانوا ينزلون الربا و المرتفعات ليسهل على أصحاب الحاجة الوصول اليهم ، بينما اللئام كانوا يختارون الأطراف و المنخفضات هربا من الفقراء و طالبي المعروف ، فأولئك علوا أنفسهم و زكوها ، و هؤلاء أخفوا أنفسهم و دسوها.

[10]كما ان من زكى نفسه و طهرها من أدرانها و أنقذها من قيودها و أغلالها ينطلق في معارج الكمال ، و يبلغ الفلاح ، فان من دس نفسه في أوحال الجهل ، و سلاسل العبودية ، للمال و الجاه ، فانه يخيب و لا يبلغ أيا من أهداف وجوده.

]و قد خاب من دساها[

و اصل الدس من التدريس ، و كما قالوا : هو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت سينه ياء ، كما يقال : قصيت أظفاري ، و أصلها قصصت أظفاري ، و قد أستخدمت الكلمة في الإغواء كما قال الشاعر:

و أنت الذي دسست عمرا فأصبحت جلائله منه أرامل ضيعاو السؤال : ما هي علاقة الدس وهو الإخفاء بالخيبة ؟ انهما تعبيران متناسقان ، ذلك ان الخيبة التي هي خسارة غير متوقعة ، و فشل غير محتمل تأتي نتيجة الإحجام و الإنطواء و الإنغلاق ، و النفس مثل كتلة عظيمة من الأحجار الكريمة أخفيت تحت ركام من الرمل و الحجر ، ماذا تنفع هذه الكتلة لو زدناها ركاما فوق ركامها ، انما تنفع إذا استخرجناها ، و نظفناها ، و أبعدنا عنها الأجسام الغريبة ، كذلك أنت كتلة هائلة من المواهب و الفرص ، بإمكانك ان تستغل كل لحظة من حياتك في العروج بنفسك درجة من الكمال ، و لكن إذا استسلمتللضغوط ، و اشتغلت بالتوافه ، و تعللت بالتبريرات و الاعذار فان عمرك يذهب عبثا . و تخيب ظنونك.

[11]و الدس لا يأتي من فراغ بل ضمن سلسلة من العلل ، تبدأ بالطغيان الذي هو صفة ملازمة

للانسان ، أوليس الطغيان نتيجة الكبر الذاتي . و الكبر يلازم الجهل ، و الفرح بمـا تملكه النفس دون النظر الى ما لا تملكه ؟ و من الطغيان يأتي التكذيب بآيات الله ، والإنغلاق دون الانذار و من التكذيب ينتج الحرمان ، أرأيت لو دعاك صاحبك الى مائدة في يوم مجاعة فكذبته كيف تحرم نفسك ! كذلك الرسل دعونا الى رحمة الله فكذبهم قوم فخابوا مثل ثمود الذين دعاهم طغيانهم الى تكذيب آيات الله.

]كذبت ثمود بطغواها[

قالوا :اي بطغيانها فيكون الطغيان سبب التكذيب . و به جاءت الرواية المأثورة عن الامـام الباقر - عليه السلام - قال : في تفسير الآية : " و الطغيان حملها على التكذيب " (١. (

وقال بعضهم : بل الطغوى هو العذاب الطاغي الذي كذبوا به ، و الأول أظهر.

(1)المصدر.

[12]و التكذيب كان صفة عامة لثمود و لكنه تركز في شخص واحد هو الذي عقر ناقة صالح من بعد ان طلبوها آية لهم.

]إذ انبعث اشقاها[

و هكذا يقوم شخص او أشخاص معددون بالجريمة ، و لكن الآخرين يرضون عنهم لانهـــم لا يقومون بها إلا ضمن سياق اجتماعي يساعدهم عليها : سكوت أهل الصلاح ، و مجاهرة المكذبين ، و صلافة المجرمين . من هنا روي عن الامام علي - عليه السلام - انه قال:

"أيها الناس ! انما يجمع الناس الرضى و السخط ، و انما عقر ناقة ثمود رجل واحد ، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا ، فقال سبحانه : " فعقروها فأصبحوا نادمين " فما كان إلا ان خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة " (١. (

و معنى انبعث : نهض ، و انما سمي عاقر الناقة أشقى ثمود لانه قام بما لم يجرأ عليه غيره منهم ، و جاء في حديث مأثور عن الامام امير المؤمنين - عليه السلام - انه قال له النبي - صلى الله عليه و اله - : " أتدري من أشقى الأولين ؟ قلت الله و رسوله أعلم؟ قال : عاقر الناقة ، قال : أتدري من أشقى الآخرين قلت : الله و رسوله أعلم : قال : قاتلك " (٢. (

و روي عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا و علي بن أبي طالب في غزوة العسرة نائمين في صور من النخل و دقعاء من التراب فو الله ما أهبنا إلا رسول الله يحركنا برجله ، و قد تتربنا من تلك الدقعاء ، فقال : " ألا أحدثكما بأشقى الناس من(١) نهج البلاغة / خ ٢٠١ - ص ٣١٩.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 78

رجلين ؟ " قلنا : بلى يا رسول الله قال : " أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، و الذي يضربك يا علي على هذه - و وضع يده على قرنه - حتى يبل منها هذه واخذ بلحيته " (١. (

[13]حينما يكون الذنب تحديا لسلطان الرب يحل بصاحبه العذاب العاجل ، كما كان عند ثمود ، إذ أنهم هم الذين طالبوا نبيهم صالحا بآية مبصرة ، و اقترحوا عليه ان تكون ناقة تخرج من الجبل ، و تعهدوا بتصديقه عندئذ ، و التسليم لأمره ، و لكنهم كذبوه و عقروا الناقة بعد ان حذرهم نبيهم من مغبة ذلك طغيانا و عتوا ، فنزل العذاب بساحتهم.

]فقال لهم رسول الله ناقة الله و سقياها[

قالوا :معناه احذروا ناقة الله ، كما يقال : الأسد الأسد : أي احذره ، و الصبي الصبي : اي احفظه من الوقوع في البئر ، و نسبت الناقة الى الله تشريفا لها باعتبارها آية مبصرة ، و كان عليهم ان يتقوا الله فيها ، اما كلمة " سقياها " فتعني ذروها تشرب ، و كان لها شرب يوم معلوم ، و لهم مثله.

[14]ولكنهم كذبوا رسول الله ، و عقروا الناقة ، و تحدوا أمر ربهم و انذاره ، فاطبق عليه العذاب ، و لم يبق من قراهم شيئا.

]فكذبوه فعقرها فدمدم عليهم ربهم[

يقال دمدم على الشيء اذا طبق عليه ، و دمدمت على الميت التراب اي سويت عليه ، و يبدو ان الدمدمة هي الاطباق بتدريج ، أي بتكرار مرة بعد أخرى.

(1)الصور : المجتمع من النخل ، الدقعاء : التراب الدقيق على وجه الارض . انظر نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٨٧.

]بذنبهم[

فلم يفعل بهم ظلما . حاشاه ، وانما جزاء لأفعالهم ، وكل من يذنب يهيء نفسه لمثل تلك الدمدمة.

]فسواها[

كما يسوي القبر بعد ان يهال التراب عليه طبقا بعد طبق.

[15]وهل سأل الله أحدا في أولئك الهلكى لماذا أهلكهم ؟! كلا..

]و لا يخاف عقباها[

سبحان الله و تعالى كيف يخاف عقبى دمدمة وهو جبار السموات و الأرض ؟!

و هكذا لم تنفعهم الشركاء و الأنداد ، و لم تنقذهم الأعذار و التبريرات . أفلا نرتدع بمصيرهم ، كذلك كانت عاقبة قوم دسوا أنفسهم فخابوا أشد الخيبة ، و كذلك تكون عاقبة كل من ضيع نفسه و دسها ، إنها الخيبة و الندم أعاذنا الله منهما.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عـــن أبـي عبد الله - عليه السلام - قال " من أكثر قراءة " ... و الليل اذا يغشى ... " في يوم او ليلة لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة ، حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه ، و جميع ما أقلت الأرض منه ، و يقولالرب تبارك و تعالى : قبلت شهادتكم لعبدي و أجزتها له ، انطلقوا به الى جناتي حتى يتخير منها حيث ما أحب ، فأعطوه من غير من و لكن رحمة مني و فضلا عليه ، و هنيئا لعبدي. "

الاطار العام

ليس الذكر و الأنثى سواء ، و لا الليل و النهار ، كذلك فعل الخيرات و ارتكاب المآثم ليسا بسواء . أويحصد الشعير من زرع القمح ، و هل يحصد من زرع الريح سوى العاصفة ؟!

النفس البشرية تهوى الخلط بين الحق و الباطل لتتهرب من المسؤولية و لكن هيهات ، و تتواصل آيات الذكر و سوره للفصل الحاسم بينهما ، و يبدو ان محور هذه السورة التذكرة بهذه البصيرة ، و ان من اعطى و اتقى و صدق بالحسنى فان الله يوفقه للحياة اليسرى ، بينماالذي كذب بالحسنى فيدفعه الله للحياة العسرى.

و نتائج التكذيب تمتد من الدنيا حتى الآخرة ، حيث النار الملتهبة تنتظر المكذبين ، اما الذين يتقون ربهم ، و يؤتون أموالهم سعيا وراء التزكية فان عاقبتهم الحسنى ، و لانهم ابتغوا رضوان ربهم فان الله يعطيهم من النعم حتى يبلغون الرضا.

إن سعيكم لشتى

بينات من الآيات

[1]لا يحس الأعمى باختلاف الألوان و الأبعاد ، و لا يشعر من عطب ذوقه او شمه بتفاوت الأطعمة و الروائح ، كذلك الجاهل لا يعرف اختلاف الأشياء ، و كلما ازداد الانسان علما ازداد معرفة بحدود الأشياء و اختلافها ، و ميزات كل واحد على الآخر ، مثلا : الخبيربالأقمشة يميز بين نوع آخر ، اما الجاهل فلا يشعر لماذا تتفاوت قيمة أنواعها . اليس كذلك ؟

الحق و الباطل هما صبغتا الطبيعة ، لا يفرق بينهما إلا العالمون ، و ليست المشكلة في هذه القضية عقلية فقط اذ الهوى ايضا يخالف التمييز بين الحق و الباطل ، فهي إذا مشكلة نفسية ايضا ، و آيات القرآن تترى في تحذير الانسان من خلط الأمور ، فكما ان الليل غيرالنهار ، و الذكر غير الأنثى ، كذلك يختلف سعي الخير عن سعي الشر.

]و الليل اذا يغشى[

أي يغطي الطبيعة بظلامه و هدوئه.

[2]قسما بالليل اذ يحيط بالأشياء ، و بالنهار اذ يتجلى بنوره و نشاطه و دفئه.

]و النهار إذا تجلى[

[3]منذ نعومة أظفارها تحب الطفلة بتماثيل تزعم انها اولادها ، و منذ نعومة اظفاره يحب الطفل ما يزعم انه سلاحه ، ما الذي فرق بين مشاعرهما ؟ و تنمو الطفلة و تتميز عن الطفل أكثر فأكثر بيولوجيا و سيكلوجيا ، و كما يتميز الجنسان عند البشر كذلك في سائر الأحياء و النباتات ، فسبحان الذي خلق الزوجين ، يتكامل أحدهما بالآخر!

]و ما خلق الذكر و الأنثى[

[4]و كما اختلف الذكر عن الأنثى ، و الليل عن النهار ، كذلك يختلف سعي الانسان.

لــو نظرت الى خلية هل تستطيع ان تتنبأ بأنها سوف تتفتق عن مولود ذكر أم أنثى ؟ كلا .. و لكن الله يقدر لها ذلك حسبما يرى من حكمة بالغة ، كذلك حين تنظر الى فعلة يرتكبها شخص قد لا تعرف انها ستكون وسيلة لإنشاء حضارة او تدمير حضارة ولكن الله يعلم ذلــكو يهدينا اليه بفضله . هناك إنفاق في سبيل الله ينمي المال ، و يزكي القلب ، و ينشط الدورة المالية في المجتمع ، وهناك إنفاق يماثله في الظاهر ، و يناقضه في المحتوى ، يوقف مسيرة التكامل في المجتمع . هناك قتال في سبيل الله يكون بمثابة عملية جراحية ناجحة ،و آخر يكون في

سبيل الطاغوت ، يهدم المجتمع ، و يبيد الحضارة ، و الناس لا يرون إلا ظاهر القتال دون ان يعرفوا هدفه و وجهته و نفعه و ضره ..و لكن الله يهدينا الى ان هذا سعي حسن و ان ذاك سعي هدام.

]ان سعيكم لشتى[

[5]كل ابن أنثى يكدح في حياته ، و يسعى ، و يصارع الأقدار ، و لكن الذي يعطي ماله في سبيل الله ، و يتقي الحرام هو الذي ينتفع بعطائه.

]فأما من أعطى و أتقى[

انه يختلف عمن يعطي و يمن او يعطي مما سرقه من الناس ، او يختار افسد ما عنده للعطاء ، او يضعه في غير محله للمداحين و المتملقين من حوله ، او يهدف من عطائه رياء و سمعة و سيطرة على المستضعفين ؛ فان عمله لا يتقبل منه لان الله يقول : " انما يتقبل الله من المتقين " بل يكون وبــالا عليه يوم القيامة ، و ضيقا و حرجا في الدنيا.

[6]ما الذي يجعل سعي الانسان و عطاءه زكيا نقيا مرضيا ؟ ايمانه بالله ، و تصديقه برسالاته و رسله.

]و صدق بالحسنى[

لان الايمان بالله يحدد وجهة الانسان ، فليس سواء من يسعى الى المسجد و من يسعى الى الملهى ! ثم هنالك من يريد المسجد و لا يعرف السبيل اليه ، فمن يحدد لنا سبل السلام ، و يضعنا على المحجة البيضاء حتى نصل الى حيث الخيرات ؟ الرسل . فمن كذب بهم ضل السبيل، و كان كمن يريد مكة و لكنه

يضل طريقه فيصل الى اليمن.

و سميت الرسالة بالحنسى لانها تهدينا الى أحسن السبل لأحسن الأهداف.

و قد جاء في الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه واله - قال : " ما من يوم غربت شمس إلا بعث بجنبتها ملكان يناديان ، يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، و أعط ممسكا تلفا " (١) . و قد استوعب الكثير من أصحاب رسول الله هذا الدرس فتراهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، و ينفقون أموالهم بلا حساب ابتغاء وجه ربهم . هكذا أدبهم رسول الله - صلى الله عليه وآله - حتى تساموا على شح أنفسهم ، جاء في رواية مأثورة عن الامام الباقر - عليه السلام - : قال : " مر رسول الله برجل يغرس غرسا في حائط فوقف له و قال : ألا أدلك على غرس أثبت أصلا و أسرع أيناعا و أطيب ثمرا و أبقى ؟ قال : بلى . دلني يا رسول الله ؟ فقال : إذا أصبحت و أمسيت فقل ؟ سبحان الله ، و الحمد لله ، و لا اله الا الله ، و الله اكبر ؛ فان لك ان قلته بكلتسبيحة عشر شجرات في الجنة من انواع الفاكهة ، و هو من الباقيات الصالحات قال : فقال الرجل : فاني أشهدك يا رسول الله ! ان حائطي هذا صدقة مقبوضة على فقراء المسلمين أهل الصدقة. (2) "

[7]حينما تكون النية صالحة ، و القلب زكيا ، فان سبل الخير تحمل اصحابها الى حيث السعادة و الفلاح .

]فسنيسره لليسرى[

أي الحياة اليسرى ، و العاقبة الحسنى ، و السؤال : كيف ؟ الإلكترون الصغير(١) القرطبي ج ٢٠ - ص 83 .

(3)نور الثقلين ج ٢ - ص ٥٩١.

المتناهي في الصغر داخل عالم (الذرة) يسير في سبيله المحدد له ، و هكذا المجرة المتناهية في الكبر تسبح في أفلاكها المحددة ، و كذلك ما بينهما لكل شيء سبيله ، فاذا عرفت سبل الأشياء ، و استطعت ان تضبط حياتك عليها فانها تسير لأهدافك ، و إلا فسوف تصطدم مع سبل الحياة و سنن الله فيها ، و لا تبلغ المنى.

[9 - 8]الحياة منظمة بأدق مما نتصور ، و أدق مما يعرفه كبار العلماء ، حتى قال احدهم و قد بهرته عظمة تنظيم العالم : العالم كتب بلغة رياضية . ان الجزء الواحد من مليون جزء من الثانية محسوب عند الله ، و ان المثقال من ذرة خفيفة موزون عند الله ، و ان اللمحة و الخطفة و النية محسوبة عند الله ، و لكن بعض الناس يزعمون بجهلهم انهم في غابة تسودها الفوضى ، فيكذبون بالحق ، و يبخلون ، و يستكبرون في الأرض ، و نهايتهم العسرى.

]وأما من بخل و استغنى * و كذب بالحسنى[

فلم ينفق ، و تشبث بما يملك ، و زعم ان المال يخلده ، و ينقذه من الهلكة ، و اضافة على ذلك كذب برسالة ربه.

[10]انه يجد طريقا سهلا الى المهالك ، كمن يسقط من عل لا يحتاج الى وعي و إرادة و عزم و إختيار . أرأيت الذي يقود سيارة سريعة في طريق جبلي لو غفل عن المقود هل يحتاج الى عزم إرادة لكي يرتطم بالصخور ، أو تهوي به في الوادي ؟ انه يتيسر لمصيره.

]فسنيسره للعسرى[

كما قال ربنا سبحانه " : و من أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا " (١. (

(1)طه / ١٢٤.

[11]من ضيق نفس البشر و محدودية أفقه انه يفرح بما أوتي حتى يستغني به عما لا يملك و يتملكه الغرور به ، و الاستغناء و الغرور يدفعانه الى الطغيان ، كما يقول ربنا سبحانه : " ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى " (١. (

ومن فرط غرور المرء بماله يزعم ان ماله يصنع له المعجزات ، و انه يمنع عنه كل سوء ، و لكن هيهات.

]وما يغني عنه ماله إذا تردى[

أي سقط في الهاوية بفعل ذنوبه ! و قيل : معناه إذا مات.

و قد جاء في حديث مأثور عن الامام الرضا - عليه السلام - في تفسير هذه الآية : " انها نزلت في أبي الدحداح ، قال : ان رجلا من الأنصار كان لرجل في حائطه نخلة ، فكان يضربه ، فشكا ذلك الى رسول الله فدعاه ، فقال اعطني نخلتك بنخلة في الجنة ، فأبى، فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنى ابا

الدحداح ، فجاء الى صاحب النخلة فقال : بعني نخلتك بحائطي ، فباعه فجاء الى رسول الله ، فقال : يا رسول الله ! قد اشتريت نخلة فلان بحائطي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه واله - تلك بدلها نخلة في الجنة ، فأنزل الله تعالى على نبيه : " وما خلق الذكر و الأنثى ... " الآيات (٢. (

[12]من المسؤول عن عملك أنت أم ربك ؟ كل منا يجيب بفطرته و بلا تردد انه هو الذي اختار نوع عمله ، فهو إذا مسؤول عنه ، و مجزي به ؛ انما يوفر الله سبحانه له فرص الهداية كاملة ، فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فعليها ، و هكذا أتم السياق بيان مسؤولية الانسان عن افعاله ، و أن سعيه شتى ، فمن اختار العطاء

(1)العلق / ٦.

(2)نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٨٩.

و التصديق يسره الله الحسنى ، و من اختار البخل و التكذيب يسره الله للعسرى .أقول : أكمل هذه البصيرة ببيان : ان الهدى عليه ، و السعي علينا ، و لذلك فالانسان هو الذي يتحمل مسؤولية سعيه.

]إن علينا للهدى[

و قال سبحانه : " و على الله قصد السبيل " و قال " ان علينا بيانه " و على الانسان ان ينتظر هدى الله و بيانه . فاذا هداه بادر باتباع هداه و تنفيذ بيانه.

[13]و ان الرب الجبار هو المسيطر على شؤون الآخرة و الدنيا ، فاذا اتبع أحد هداه فبتوفيقه و تيسيره ، وإذا ضل و عصى ففي اطار قدرته ، فلا يعصي الله عن غلبة أو ضعف ، و لا يتهرب العصاة عن حدود مملكته .

]و ان لنا للاخرة و الأولى [

ان العصاة يتكلون على أنفسهم ، و يزعمون ان هامش الإختيار و الإمتلاك الذي أوتوا يوفر لهم إمكانية تحدي مالكهم و مليك السموات و الارض ، و لكنهم في ضلال بعيد ، فالله هو مالك الدنيا كما هو ملك الآخرة ، و لذلك فبيده أمرهم و جزاؤهم في الدارين جميعا.

[14]و لذلك فهو يعاقبهم في الدنيا بتسهيل سبيل العسر لهم ، و استدراجهم فيه بسوء اختيارهم له ، و يعاقبهم في الآخرة بنار تتقد و تبتلع الأشقياء.

]فأنذرتكم نارا تلظى[

انها نار ملتهبة ، تنظر كل الأشقياء ، و علينا الحذر منها ، لان الله قد أنذرنا جميعا ، فلا يقولن أحد : أنا بعيد لأني أملك مالا ، أو جاها ، أو انتمي -ظاهرا - الى دين الاسلام ، و أوالي الرسول و آل بيته . كلا .. انما يتقي النار من اتقى الله في الدنيا.

[15]اما الأشقى فانه يحترق بلهيبها ، و يصطلي بحرها لانه لم يصنع لنفسه من دونها سترا من الايمان و صالح الأعمال.

]لا يصلها إلا الأشقى[

[16]و علامة الأشقى الكفر بالرسالة ، و عصيان الشريعة.

]الذي كذب و تولى[

يبدو ان التكذيب حالة نفسية و عقلية ، بينما التوالي حالة عملية ، اي كذب بقلبه و لسانه ، و تولى بعمله و مواقفه.

[17]اما الذي اتقى الله - فقد اتقى نار غضبه . صلاته تقيه ، صومه يجنبه ، انفاقه يستره ، نيته الصالحة تحميه من تلك النار المتقدة.

]و سيجنبها الأتقى[

ولماذا لم يقل ربنا : التقي ، ربما لان التقي الذي لم يبلغ مستوى " الأتقى " كان قد ارتكب بعض الخطايا فاستحق به لهبا من النار بقدرها ان لم يغفرها الله له ، و قد قال ربنا سبحانه : " و آخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم و الله عليم حكيم " (١. (

وهكذا الذي شقي ببعض الموبقات قد يغفر الله له كما قال سبحانه : " ان الله لا يغفر ان يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشآء و من يشرك بالله فقد افترى(١) التوبة / ١٠٦.

إثما عظيما " (١(

و الى ذلك تشير الرواية المأثورة عن الامام الباقر عليه السلام : " النيران بعضها دون بعض . (2) "

وهكذا يبين السياق حالتين متقابلتين تماما لتكونا - كما الليل يقابل النهار - مثلا لاختلاف السعي.

[18]ومن أبرز صفات " : الأتقى " التصدق بماله لكي يطهر قلبه من الشح و البخل و حب الدنيا.

]الذي يؤتى ماله يتزكى[

كل من يملك مالا ينفقه ، ولكن أكثرهم ينفقون أموالهم ، ثم تكون عليهم حسرة ، لانهم لا يبحثون عن الزكاة ، و نقاوة القلب بقدر ما يبحثون عن الذات و تكريس الأنانية ، إلا المتقون الذين يعرفون ان حب الدنيا أصل كل انحراف فيطهرون بالزكاة قلوبهم من حبها.

]وما لأحد عنده من نعمة تجزى[

فلم ينفق ماله جزاءا على نعمة سبقت اليه من المنفق عليه ، و لم يطلب لإنفاقه جزاءا حتى ولو كان من نوع طلب الشكر ، أو محاولة اخضاع الفقير لسلطته ، و تكريس حالة الطبقية بهذا الإنفاق ، كإنفاق الكثير من المترفين و المسرفين.

[20]كلا .. انما ينفق لوجه الله ، و ابتغاء مرضاته ، وسعيا وراء الجنة التي(١) النساء / ٤٨.

(2)نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٩٢.

وعد الله المنفقين.

]إلا ابتغآء وجه ربه الأعلى [

و وجه الله رضاه وما أمر به ، ومما أمر به طاعة اوليائه.

[21]لأنه ابتغى رضوان الله فان الله يرضيه بفضله.

]ولسوف يرضى[

وهل هناك غاية أسمى من الرضا ؟ أليس الانسان دائم التطلع عريض الطموح ، فكيف يـرضى ؟ بلى . أنى كانت رغبات الانسان عظيمة فان الجنة أعظم ، و فضل الله أكبر.

و هذه السورة بمجملها و لا سيما خاتمتها تكرس في الانسان حس المسؤولية ، بيد ان بعض القدرية حاولوا تفسيرها بما يتناسب و نظرية الجبر التي تنتزع حس المسؤولية عن القلب ، فاذا كان كل شيء كتب بالقلم و حتى عمل الانسان فأين مسؤوليته ؟ و لماذا يحرضنا الله على العطاء و لا نملك من انفسنا شيئا ، و لماذا يحذرنا النار و لسنا الذين نقرر الدخول فيها أو إجتنابها ؟ هكذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الاسود الدؤلي قال : قال لـي عمران بـن حصيـن : أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أين قضي و مضى عليهـم من قدر سبق، او فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم . و ثبتت الحجة عليهم ؟! فقلت : بل شيء قضي عليهم و مضى عليهم ، قال : فقال : أفلا يكون ظلما ؟ ففزعت من ذلك فزعا شديدا ، و قلت : كل شيء خلق الله و ملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فقال لي : يرحمك الله . إني لم أرد فيما سألتك إلا لأحرز عقلك.

و ان رجلين من مزينة أتيا رسول الله - صلى الله عليه و اله - فقالا : يارسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه . أشيء قضى عليهم و مضى ، من قدر قد سبق ، او فيما يستقبلون به مما آتاهـم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : " لا بل شيء قضي عليهم و مضى فيهم ، و تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل " و نفس و ماسواها فألهمها فجورها و تقواها " (١. (

و يبدو لي ان هناك خلطا فظيعا حدث عند البعض بين الايمان بالقضاء و القدر ، و بين الأخذ بنظرية الجبر اليهودية التي زعموا فيها : ان يد الله مغلولة ، و ان الله لا يقدر على تغيير شيء مما قدر سبحانه ، و ان العباد مكرهون على ما يفعلون ، و ان الله يجازيهمبغير صنع منهم في أفعالهم او مشيئته.

و منشأ هذا الخلط تطرف بعض المؤمنين ضد نظرية التفويض للقدرية التي زعمت ان الله ترك عباده لشأنهم ، دون ان يأمر او ينهي او يقدر شيئا.

و النظرية القاصدة هي الوسطى التي فاتت الكثير من المفسرين ، و هي التي تصرح بها آيات الله ، و التي هي لب الشريعة و خلاصة الرسالات الإلهية و هي : ان الله قضى و قدر ، و كان مما قضى حرية الانسان في حدود مشيئته ، و مسؤوليتهم عن أفعالهم ، و انه سبحانه هوالذي منح العبادة قدرة المشيئة ، كما أعطاهم سائر القدرات ليفتنهم فيها ، و بين لهم الخير و الشر و ألهمهم الفجور و التقوى .

و الرسول - صلى الله عليه و اله - بين ذلك ، و لكن الناس فسروا كلام الرسول بالخطأ كما فسروا القرآن كذلك ، فالرواية السابقة - مثلا - لا تخطأ القرآن في مدلولها ، اذ ان الرسول بين ان الله قد قضى عليهم ما ألهمهم من الفجور و التقوى ، فان فجروا فبإذنه)
لا بأمره و لا بفعله) و ان اتقوا فبإذنه و بأمره) لا بفعله. (

(1)انظر القرطبي / ج - 20ص ٧٦.

و كذلك النص التالي انما يدل على ان الله سبحانه لم يترك عباده سدى . وفي النص - كما نقرأه - تصريح بضرورة السعي و الكدح ، وإذا كان كل شيء قد تم فلم السعي ، و لماذا الكدح ؟

جاء في الصحيحين و الترمذي عن علي - عليه السلام - قال : " كنا في جنازة بالبقيع ، فأتى النبي - صلى اله عليه واله - فجلس و جلسنا معه ، و معه عود ينكت به في الأرض . فرفع رأسه الى السماء فقال : ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها " فقال القوم: يـا رسول الله ! أفلا نتكل على كتابنا ،

فمن كان من أهل السعادة فانه يعمل للسعادة . و من كان من أهل الشقاء فانه يعمل للشقاء ؟ قال : اعملوا فكل ميسر . اما من كان من اهل السعادة فانه ييسر لعمل السعادة ، و اما من كان اهل الشقاء فانه ييسر لعمل الشقاء " ثم قرأ : " فأما من أعطى واتقى * و صدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * و اما من بخل و استغنى * و كذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى " (١. (

ماذا نفهم من هذا الحديث ؟ هل الجبر أم المسؤولية ؟ ان تلاوة الرسول للآية تدل علـى انـه - صلى الله عليه و اله -حرضنا للعطاء و البذل ، و لكنه ربط العاقبة بأمر الله ، بلى . لسنا نحن الذين نقرر السعادة و الشقاء ، وإنما الله سبحانه ولكن بأعمالنا و بما نختاره ، أولم يقل سبحانه : " كل نفس بما كسبت رهينة " (٢) و قال : " ان سعيكم لشتى " فنسب السعي الى الانسان ، و الرسول رفض فكرة الجبر ، و الإتكال على الكتاب الذي لا يفيد فيه حسب زعمهم.

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 84

(2)المدثر / ٣٨.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبدالله - عليه السلام - قال : " من اكثر قراءة " والضحى " في يوم او ليلة لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة ، حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه ، و جميع ما أقلت الأرض منه ، و يقول الرب تبارك و تعالى : قبلت شهادتكم لعبدي و أجزتها له ، انطلقوا به الى جناتي حتى يتخير منها حيث ما أحب ، و أعطوه من غير من و لكن رحمة مني و فضلا عليه ، و هنيئا لعبدي. "

تفسير نور الثقلين ج ٥ - ص ٥٨٥

الاطار العام

من رحم الظلام يتنفس الفجر ، ومن رحم المأساة يولد أمل التغيير ، و عندما تأخر الوحي قليلا ، وزاد قلب الرسول شوقا ، و نفوس المؤمنين و جلا ، و أراجيف المشركين انتشارا ، هنالك جلجل الوحي في هضاب مكة من جديد ، و شق فجره طريقه الى القلوب العطشى ، الى النور و الدفىء و الحنان ، فاستقبلته بحفاوة و وعته بعمق.

هكذا رحمة الله تهيء الظروف من قبل لتكون أوقع أثرا و أبلغ نفاذا ، أرأيت اليتيم حين تتناوله يد الرحمة كيف يحن على الايتام و المحرومين ، أورأيت الضال حين يهتدي كيف يمتص قلبه الهدى كما تمتص حبة التراب الندى في ضحوة الهجير ؟! هكذا يرضى المؤمن بالقدر ،فلولا الليل إذا سجى لم يعرف القلب قيمة الضحى ، و لولا العطش لم يتلذذ الكبد بشربة ماء هنيئة . ولولا التحديات لما حدث التطور ولولا المآسي لما قامت القدرات.

و يبدو ان محور سورة الضحى كما سورة ألم نشرح هي هذه البصيرة التي مهدتلها بالقسم بالضحى ، و الليل إذا سجى ، ثم ببيان ان تأخير الوحي لم يكن للوداع ، بل لحكمة بالغة قد تكون تكريسه في النفوس ، ثم ذكرت الرسول - صلى الله عليه واله - كيف من الله عليه بألوان النعم بعد الصعاب ، عليه ان يسعى لإسعاد الناس و هدايتهم بكل ما أوتي منحول و قوة.

ولسوف يعطيك ربك فترضى
بينات من الآيات
[1]لماذا لا يجوز للناس ان يحلفوا بخلق الله ، بينما يحلف الله يمينا بما خلق ، و جاء في حديث مستفيض ما يلي :

عن الامام الباقر عليه السلام : " ان لله عز وجل ان يقسم من خلقه بما شاء ، و ليس لخلقه ان يقسموا إلا به " (١. (

وفي هذا المعنى جاءت روايات كثيرة اخرى.

الجواب :اننا حيث نحلف بشيء نعطيه قيمة ذاتية يخشى ان تتحول الى حالة من التقديس المنافية لصفاء التوحيد و نقائه ، و بينما ربنا حين يقسم بشيء فانه يعطيه قيمة ، و يجعلنا نلتفت الى أهمية كذلك في فاتحة هذه السورة القسم بالضحى حيث ارتفاع النهار ، و ميعادالانسان مع الكد و النشاط.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٨٨.

]و الضحى[

[2]وما يلبث النهار ينقضي ، و خلايا جسد الانسان تتلف ، و اعصابه تتعب ، و يحتاج الى راحة و سبات فيأتي الليل بظلامه الشامل ، و سكونه الوديع.

]و الليل إذا سجى[

قالوا : سجى : يعني سكن ، و ليلة ساجية : أي ساكنة ، و البحر إذا سجى : أي سكن و أنشدوا:

فما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم و بحرك ساج لا يواري الدعامصا[٣] و كما جسد الانسان بحاجة الى سبات الليل ، فان روحه عطشى الى الوحي ، أوليس للنفوس إقبال و إدبار ، و كما ان الليل لا يدل على نهاية النور ، كذلك تأخر الوحي لا يعكس انتهاءه ، بل كان الوحي ينتزل حسب الحاجة ، و لم يهبط جملة واحدة ليكون أثبت لأفئدةالنبي و المؤمنين ، و قال سبحانه : " وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. (1) "

هكذا تأخر الوحي قليلا عن الرسول - صلى الله عليه وآله - ليعرف الجميع انه ليس بشعر منه ، و لا باكتتاب لصحف الأولين ، و لا بابداع من ذاته ، و انما هو الوحي الذي يتنزل بأمر الله متى شاء و كيفما شاء ، و لكي تنتشر أراجيف قريش و تتراكم كما انتشرت حبال سحرة فرعون فخيل الى الناس بانها سحر عظيم ، هنالك أمر الله موسى - عليه السلام - بان يلقي عصاه تلتف ما أفكوا . فكانت أشد وطأة ، و أبعد أثرا ، كذلك الوحي حينما عاد الى هضاب مكة كما الضحى يأتي بعد ليل ساج فتتلاشى ظلام الاشاعات من ارجاء البيت الحرام ، و تتبدد شكوك ضعاف المسلمين ، و يبدأ نهار الرسالة نشيطا مندفعا .

(1)الفرقان / ٣٢.

]ما ودعك ربك و ما قلى[

أي ما ودعك الوداع الأخير ، و لا أبغضك - حتى ولو بصورة مؤقتة - وقد اختلفت احاديث الرواة عن سبب تأخر الوحي و يمكن الجمع بينهما ، و نحن نذكر فيما يلي طائفة منها لما فيها من فوائد هامة ، بالإضافة الى أنها توضح جانبا من حياة الرسول ، و تساهم بقدر مافي فهم القرآن:

روي عن الامام الباقر - عليه السلام - في تفسير السورة " ان جبرئيل - عليه السلام - أبطأ على رسول الله ، و انه كانت أول سورة نزلت " إقرأ باسم ربك الذي خلق " ثم أبطأ عليه ، فقالت خديجة - رضي الله عنها - : لعل ربك قد تركك فلا يرسل اليك ،فأنزل الله تبارك و تعالى : " ما ودعك ربك و ما قلى " (١. (

وفي حديث آخر : ان المسلمين قالوا لرسول الله : ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله ؟! فقال " و كيف ينزل علي الوحي وأنتم لا تنقون براجمكم (٢) و لا تقلمون اظافركم " و لما نزلت السورة قال النبي لجبرئيل : " ما جئت حتى اشتقت اليك " فقالجبرئيل : " و انا كنت أشد اليك شوقا ، و لكني عبد مأمور ، و ما نتنزل إلا بأمر ربك " (٣. (

و روي عن ابن عباس : انه احتبس عنه الوحي خمسة عشر يوما ، فقال المشركون : ان محمدا ودعه ربه و قلاه ، و لو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء (4)فنزلت السورة.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٦٤.

(2)اي العقد التي تكون في ظهر الاصابع.

(3)مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٥٠٤.

(4)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 92

و هذه الأسباب متداخلة ، فقد يكون سبب تأخير الوحي الظاهر أكثر من سبب واحد ، و أنى كان فقد امتحن المؤمنون ، و زاد شوق الرسول الى الوحي ، كما ذهبت إشاعات المشركين أدراج الرياح ، و عرف الناس ان كلامهم باطل ، و أمرهم فرط .

[4]و كما يتفجر ضحى الشمس بعد ليل ساج ، و كما يتنزل الوحي بعد انقطاع و انتظار كذلك الآخرة التي تتأخر زمنيا عن الأولى خير و أبقى ، وعلى المؤمن ألا يستعجل النتائج فقد يكون في تأخيرها مصلحة كبرى.

]و للآخرة خير لك من الأولى [

قيل :ان له في الآخرة ألف ألف قصر من االلؤلؤ ترابها من المسك ، وفي كل قصر ما ينبغي له من الأزواج و الخدم ، و ما يشتهي ، على أتم الوصف (١. (

و قال بعضهم : الآخرة تعني المستقبل ، و فيها بشارة للنبي بأنه سيفتح له فتحا مبينا.

[5]و يبدو لي ان أعظم ما بشر به النبي لقاء جهاده في الله ، و عنائه الشديد الذي فاق عناء الأنبياء جميعا كانت الشفاعة ، ذلك ان قلبه الكبير كان ينبض بحب الانسان ، و هدفه الأسمى كان انقاذ البشرية من إصر الشرك و الجهل و أغلال العبودية و التخلف و الفقر و المرض ، و حتى في يوم القيامة حيث كان يقول جميع الناس و الأنبياء معهم : نفسي نفسي ، ترى رسول الله - صلى الله عليه وآله - يدعو ربه بالشفاعة و يقول : أمتي أمتي ، وفي أشد لحظات حياته عندما نزلت به سكرات الموت كان يقول لقابض روحه : شدد علي و خفف عنأمتي . ان هذا القلب الكبير لا يملؤه إلا حب الله و حب عباده ، و لا يرضيه سوى انقاذ عباد الله في الدنيا من(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٥٠٥.

الضلال بالدعوة و الجهاد ، وفي الآخرة من النار بالشفاعة ، و لذلك جاءت الآية التالية تفسيرا للآية السابقة:

]و لسوف يعطيك ربك فترضى[

وماذا يرضي الرسول غير الشفاعة في أمته ؟ من هنا جاءت الرواية المأثورة عن الامام علي - عليه السلام - حيث قال : " قال : رسول الله - صلى الله عليه و آله - : يشفعني الله في أمتي حتى يقول الله سبحانه لي : رضيت يا محمد ! فأقول يا رب رضيت " (١.(

و روي عنه - عليه السلام - انه قال لأهل القرآن : " انكم تقولون ان أرجى آية في كتاب الله تعالى : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقطنوا من رحمة الله " قالوا : إنا نقول ذلك ، قال : " و لكنا - أهل البيت - نقول : ان أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى " :و لسوف يعطيك ربك فترضى " (٢. (

و في حديث آخر : " إنها الشفاعة ليعطينها في أهل لا اله إلا الله حتى يقول : رب رضيت " (٣. (

و قد اتعب رسول الله نفسه ، و حمل ذوي قرباه على أصعب المحامل من أجل الله ، و لبلوغ درجة الوسيلة (التي أظنها هي الشفاعة بذاتها) جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - " انه دخل يوما على فاطمة - عليها السلام - و عليها كساء من ثلة الإبل ، و هي تطحن بيدها ، و ترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله لما أبصرها ، فقال : يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ، فقد أنزل(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ٩٥.

(2)المصدر.

(3)المصدر / ص ٩٦ و نص هذان الحديثان واحد عن علي (ع) في نور الثقلين.

الله علي " و لسوف يعطيك ربك فترضى " و قال الصادق - عليه السلام - : " رضا جدي ان لا يبقى في النار موحد " (١. (

[6]لقد ترعرع رسول الله يتيما ، فقد والده وهو لا يزال في بطن أمه ثم فقد والدته في الطفولة المبكرة ، و ذاق - كبشر - كلما يعانيه يتيم الأبوين من حرمان عاطفي ، فجعله الله ينبوع الحب و الحنان.

]ألم يجدك يتيما فأوى[

كان رسول الله بطلعته البهية ، و جذابيته الأخاذة ، و بما حباه الله من بركة تفيض على من حوله مأوى القلوب التي تهوي التقرب اليه و تتنافس على خدمته ، ألم تسمع قصة عبد المطلب - جده العظيم - كيف كان يشرف شخصيا على راحته ، و من بعده عمه أبو طالب - سيد بني هاشم - يستميت في الدفاع عنه ، و يفضله على أولاده في الخدمة.

سبحان الله ! كيف يتجلى بآياته للخلق ، فيجعل يتيم الأبوين أعظم شخصية عبر التاريخ ، الذي أحبه أهل الأرض و أهل السماء ، فلم يحبوا أحدا مثله.

وقد أثار البعض السؤال التالي : لأية حكمة جعل الله خاتم أنبيائه يتيم الأبوين ؟ تجيب الرواية التالية على ذلك : يقول الامام الصادق - عليه السلام - : " لئلا يكون لمخلوق عليه حق. (2) "

و هناك تفسير آخر لليتيم نجده في بعض النصوص سنذكره ضمن تفسير الآيات التالية إنشاء الله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٥.

] [7]و وجدك ضآلا فهدى[

لقد قدر الله للنبي - صلى الله عليه وآله - ان يكون خاتم النبيين قبل ولادته ، بل كان نورا يحدق بعرش الله ، و قد قال - صلى الله عليه وآله - : " كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين " .. بل كان مثلا للنور الذي خلقه الله في البدء ثم خلق الخلق به. جاء في حديث شريف : " أول ما خلق الله نوري " (١. (

و قد قلبته يد الرحمة الإلهية في أصلاب شامخة ، و أرحام مطهرة ، حتى قال ربنا تعالى : " و تقلبك في الساجدين. "

و عند ولادته من أبوين كريمين - عبد الله سلام الله عليه ، و آمنة بنت وهب سلام الله عليها - أظهر الله آيات عظيمة في العالم ، إيذانا بولادته فسقطت شرفة من ايوان كسرى ، و غاضت بحيرة ساوة ، و فاضت بحيرة سماوة ، و انطفأت نار المجوس بعد مئات السنين من اشتعالها.

و قرن الله به منذ ولادته ملكا يسلك به طريق المكارم ، قال الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام: -

و لقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، و محاسن أخلاق العالم ، ليله و نهاره " (٢. (

و هكذا أدبه الله فأحسن تأديبه كما قال - صلى الله عليه وآله - عن نفسه.

إلا ان ذلك كله لا يعني ان القران من وحي نفسه ، بل انه كان غافلا عن القرآن من قبل ان يقضي اليه وحيه ، لذلك قال سبحانه : " ان كنت من قبله لمن(١ (موسوعة بحار الانوار / ج ١ - ص ٩٧.

(2)نهج البلاغة / خ - 192ص ٣٠٠.

الغافلين (1) "و قال : " و ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون " (٢) و قال : " و كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. (3) "

و بهذا المفهوم كان الرسول ضالا عن الشريعة الجديدة ، و ليس ضالا عن أية شريعة ، وعن الهدى الجديد لا عن أي هدى . هكذا قال بعض المفسرين.

بينما نجد تفسيرا آخر ينسجم مع مقام الرسول : انه كان ضالة العالمين ، يبحثون عنه ، فهدى الله اليه الناس ، و هذا تفسير اهل البيت عليهم السلام ، و هو ان لم يكن تفسير ظاهر القرآن فلا ريب انه تفسير بطن من بطونه ، أوليس للقرآن سبعة أبطن ؟

هكذا روي عن الامام الرضا -عليه السلام - في قوله : " ألم يجدك يتيما فآوى " قال : " فردا لا مثيل لك في المخلوقين ، فآوى الناس اليك " و وجدك ضالا " أي ضالا في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم اليك " و وجدك عائلا " تعول أقواما بالعلم فأغناهم الله بك " (٤. (

و هناك تفسيرات أخرى للآية تعكس اهتمام المؤمنين بمقام الرسول - صلى الله عليه وآله - و عدم نسبة الضلالة اليه كأن يكون الضلال بمعنى الضياع عن الطريق في طفولته ، او عندما سافر الى الشام للتجارة ، ولكن التفسيرين الأولين أولى.

[8]و كان الرسول يعيش في قبيلة بني هاشم ، التي كانت تتميز بالسؤدد ، و الخلق الرفيع ، و تعتبر المرجع الديني في مكة المكرمة ، و لكنها لم تكن ذا مال كبير ،(١) يوسف / ٣ .

(2)العنكبوت / ٤٨.

(3)الشورى / ٥٢.

(4)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٥.

و بالذات أبو طالب الذي أصبح شيخ بني هاشم بعد عبد المطلب بالرغم من فقره حتى قيل : ما ساد فقير إلا أبو طالب ، و من المعروف تاريخيا انه - عليه السلام - قبل بتكفل أولاده من قبل إخوته لضيق ذات يده.

و لكن الله من على الرسول بالسعة ، حيث آمنت به واحدة من أثرى قريش وهي خديجة بنت خويلد التي تزوجها الرسول - صلى الله عليه و اله - فأصبح غنيا بفضل الله.

]و وجدك عآئلا فأغنى[

و قد مضى تفسير آخر للآية : ان الرسول كان يعيل الناس ، فأغناهم الله بعلم الرسول و هداه.

[9]لقد نهض النبي من أرض الحرمان ، فكان نصير المحرومين، وقد أوصاه الرب بمداراة اليتيم ، و نهاه عن قهره ، و تجاوز حقه.

]فأما اليتيم فلا تقهر[

ان احساس اليتيم بالنقص يكفيه قهرا ، ولابد ان يقوم المجتمع بتعويض هذا النقص بالعطف عليه ، لكي لا يتكرس هذا النقص في نفسه ، فيصاب بعقدة الضعة ، و يحاول ان ينتقم عندما يكبر من المجتمع ، و يتعالى على أقرانه ، و يستكبر في الأرض و .. و..

ولعل التعبير بعدم القهر يشمل أمرين : الأول : دفع حقوق اليتيم اليه ، الثاني : عدم أخذ الحق من عنده بالقهر و التسلط.

و قد راعى القرآن الجانب النفسي لليتيم مع انه بحاجة عادة الى معونة ماديةايضا ، أوتدري لماذا ؟ أولا : لان كل الأيتام يحتاجون الى عطف معنوي ، بينما قد لا يحتاج بعضهم الى عون مادي ، ثانيا : لان النهي عن قهرهم يتضمن النهي عن استضعافهم المادي ايضا.

و قد وردت نصوص كثيرة في فضيلة الاهتمام بالايتام و النهي عن ظلمهم ، فقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - " من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر به على يده نور يوم القيامة " (١. (

و قال : " أنا و كافل اليتيم كهاتين في الجنة ، إذا اتقى الله عز وجل " و أشار بالسبابة الوسطى (٢. (

و روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - " ان اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، يقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب ؟ فيقول الملائكة : ربنا أنت أعلم ، فيقول الله تعالى لملائكته : ياملائكتي ! أشهدوا ان من أسكته و أرضاه أن أرضيه يوم القيامة " (٣. (

[10]و كما اليتيم الفقير السائل ، أوصى الاسلام به خيرا ، فقال ربنا سبحانه:

]وأما السآئل فلا تنهر[

و من عاش و رأى الحرمان ، و لدغته لسعات الجوع كان أحرى باحترام مشاعر السائل كانسان ، و سواء

وفق لمساعدته أو لا فان عليه ان يتجنب نهره و زجره و اغلاظ القول له ، فان في ذلك افساد لنفسه ، حيث يشرع في التعالي على الناس و الإستكبار في الأرض ، و عبادة الدنيا و زينتها ، كما ان في ذلك إفساد نفسية

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٧.

(2)المصدر.

(3)القرطبي / ٢٠ - ص . 101

السائــل ، وزرعها بعقدة الضعة ، فربما دار دولاب الزمن و استغنى السائل و افتقر المسؤل ! كما ان في ذلك إفساد للمجتمع بتكريس الطبقية فيه.

وقد وصى الاسلام بالسائل كثيرا ألا ينهر ، فقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه واله - : " ردوا السائل ببذل يسير ، أو رد جميل ، فانه يأتيكم من ليس من الانس و لا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله " (١. (

و نهى الاسلام من السؤال ، و اعتبره ذلا ، ولكنه نهى ايضا عن رد من يسأل ، جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - انه قال : " لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحد أحد ، ولو يعلم المعطي ما في العطية ما رد أحد أحدا " (٢. (

[11]الرزق طعام الجسد ، و شكره طعام الروح ، و من فقد الشكر أحس بجوع دائم ، أوليس أعظم الغنى غنى النفس ؟

اولئك الذين يستشعرون الفقر النفسي يشبهون تماما المصابون بمرض الآفكل ، تسري في عروقهم قشعريرة باردة ولو تحت عشرين دثارا.

و العطف على اليتيم ، ورد السائل بالانفاق او بالكلام الطيب مظهران للشكر ، إلا ان لشكر نعم الله مظاهر شتى أمر الاسلام بها جميعا عبر كلمة حكيمة جامعة ، فقال:

]و أما بنعمة ربك فحدث[

و الحديث عن النعمة يشمل ثلاثة أبعاد:

(1)المصدر.

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٨.

أولا :الاعتراف به ، و بيانه أمام الملأ لكي لا يحسبه الناس فقيرا وهو مستغن بفضل الله ، فقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - في تفسير الآية " : فحدث بما أعطاك الله ، و فضلك ، ورزقك ، و أحسن اليك ، و هداك " (١. (

ثانيا :ان يرى أثر نعمته على حياته ، فلا يبخل على نفسه مما رزقه الله ، مما يخالف حالة الترهب الذي نهى عنه الاسلام فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - حين اشتكى اليه الربيع بن زياد أخاه عاصم بن زياد ، و قال : انه لبس العباءة ، و ترك الملأ ، و انه قد غم أهله و أحزن و لده بذلك ، فقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : " علي بعاصم بن زياد " فجيء به فلما رآه عبس في

وجهه و قال له " : " أما استحيت من أهلك ، اما رحمت ولدك ؟ أترى الله أحل لك الطيبات ، و هو يكره أخذك منها ! أنت أهون على الله من ذلك ، أوليس الله يقول : " و الأرض وضعهـــا للأنـام * فيها فاكهة و النخل ذات الأكمام " أوليس يقول : " مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان " الى قوله : " يخرج منهم اللؤلؤ و المرجان" فبالله لابتذال نعم الله بالفعل أحب اليه من ابتذالها بالمقال ، فقد قال عز وجل " : و أما بنعمة ربك فحدث " فقال عاصم : يا أمير المؤمنين ! فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة ، و في ملبسك على الخشونة ؟ فقال : " و يحك ! ان الله عز وجل فرض على أئمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يبيغ بالفقير فقره " فالقى عاصم بن زياد العباء و لبس الملاء (٢. (

و ينبغي ان يأخذ الانسان من زينة الحياة الدنيا بقدر حاجته ، فقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - انه قال : " ان الله جميل يحب الجمال ، و يحب ان يرى أثر نعمته على عبده " (٣. (

(1)المصدر.

(2)المصدر / ص ٦٠١.

(3)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 102

ثالثا :شكر من أنعم عليه من أرباب النعم ، و الانفاق على الآخرين ، فقد جاء في الحديث المأثور عن النبي - صلـى الله عليه و آله - : " من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، و من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، و المتحدث بالنعم شكر ، و تركه كفر ، و الجماعة رحمة ، و الفرقة عذاب " (١. (

و بقى ذكر رسول الله - صلى الله عليه وآله - خالدا رغم انف المعاندين له ، فقد روي عن معاوية أنه سمع المؤذن يقول : أشهد ان لا إله إلا الله و ان محمدا رسوله الله ، فلم يملك إهابة ، و اندفع يقول:

"لله أبوك يا ابن عبد الله ، لقد كانت عالي الهمة ، ما رضيت لنفسك إلا ان يقرن اسمك باسم رب العالمين . (2) "

و روي مطرف بن المغيرة قال : وفدت مع ابي على معاوية ، فكان أبي يتحدث عنده ثم ينصرف إلي ، وهو يذكر معاوية و عقله ، و يعجب بما يرى منه ، و أقبل ذات ليلة ، وهو غضبان فامسك عن العشاء ، فانتظرته ساعة ، و قد ظننت انه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له: مالي اراك مغتما منذ الليلة ؟ قال : يا بني ! جئتك من اخبث الناس ، قال : ما ذاك ؟

قال : خلوت بمعاوية فقلت له : إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين ! فلو أظهرت عدلا و بسطت خيرا ، فانك قد كبرت ، ولو نظرت الى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

فثار معاوية و اندفع يقول:

(1)المصدر.

(2)حياة الامام الحسين /باقر شريف القرشي / ج ٢ - ص ١٥١.

"هيهات !! هيهات ملك أخوتيم فعدل ، و فعل ما فعل ، فوالله ما عدا ان هلك ذكره ، إلا ان يقول قائل : ابو بكر ، ثم ملك أخو عدي فاجتهد و شمر عشر سنين ، فوالله ما عدا ان هلك ذكره ، إلا ان يقول قائل : عمر ، ثم ملك أخونا عثمان ، فملك رجل لم يكن أحد فيمثل نسبه فعمل به ما عمل فوالله ما عدا ان هلك ذكره ، و ان أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات : أشهد ان محمدا رسوله الله ، فأي عمل

يبقى بعد هذا ، لا أم لك إلا دفنا دفنا. (1) " ..

(1)شرح نهج البلاغة لابن الحديد المعتزلي / ج ٢ - ص ٢٩٧.

سورة الشرح
الاطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء في النصوص المأثورة عن أهل البيت - عليهم السلام - ان هذه وما سبقتها كسورة واحدة ، يجوز الجمع بينهما في صلاة فريضة بخلاف غيرها ، فقد روي عن الصادق - عليه السلام - انه قال : " لا يجمع سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى و ألم نشرح ، و ألم تر كيفو لإيلاف " (١) وذلك لتعلق إحداهما بالأخرى ، والسؤال : كيف ؟

ان الله سبحانه عدد طائفة من منه على الرسول في السورة الأولى ، و بين طائفة أخرى في الثانية ، و لعل السورة الأولى تتصل بالنعم الشخصية ، بينما الثانية تبين النعم المتصلة به كصاحب رسالة.

و يؤيد الوصل بينهما ما روي عنه - صلى الله عليه وآله - من سبب نزول السورة حيث قال : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها ، قلت : يا رب!

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٥٩٣.

اتخذت إبراهيم خليلا ، و كلمت موسى تكليما ، و سخرت مع داود الجبال يسبحن ، و أعطيت فلانا كذا .. ، فقال عز وجل : ألم أجدك يتيما فآويتك ؟! ألم أجدك ضالا فهديتك ؟! ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟! ألم أشرح لك صدرك ؟! ألم أوتك مالم أوت أحدا قبلك ، خواتيم سورة البقرة ؟! ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا ؟ ! قلت : بلى يا رب " (١)(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٠٢.

ألم نشرح لك صدرك
بينات من الآيات

[1]هكذا جاء الخطاب الإلهي لرسوله يفيض حنانا و عطفا ، و يذكر المسلمين بفضيلة رسولهم ، و يلقي حبه و احترامه في روعهم ، و يقول:

]ألم نشرح لك صدرك[

لقد بلغ محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله - أسمى درجة من الكمال مما لم يبلغ أحد قبله ، و لا يمكن لأحد ان يبلغه غيره ، كل ذلك بفضل الله و منه و توفيقه ، و علينا أن نميز تماما بين إكرام مخلوق لكرامته عند الله ، ووصفه بالكمال الذي حباه ربه و إعظامـه ؛ لأن الله أمـر بذلك و في حدود أمر الله ، و بين ان نفعل مثل ذلك بعيدا عن الله .. ألا ترى أننا حين نشهد للنبي بالرسالة في الصلاة ، نقول : و أشهد أن محمدا عبده و رسوله ، فلماذا نؤكد على أنه عبد الله ؟ أحد أسباب ذلك لكي لا يدفعنا حبنا للرسول الى الغلو فيه ، كما فعل النصارى في ابن مريم

-عليهما السلام. -

و الآيات في سورة الضحى وهذه ترفع شأن الرسول الى أسمى المراتب ، و لكن بصيغة تنفي في ذات الوقت بدعة الغلو التي ابتليت بها الأمم فيما يتصل بالصالحين منهم ، و إنك لترى - مع كل هذا الوضوح في التعبير - ان عامة المسلمين لا تخلوا نظراتهم حول النبي و سائراولياء الله من شوائب الغلو ، جهلا

بأن مقاماتهم السامية ليست بذواتهم ، بل بما حباهم الله سبحانه ، و إلا فهم بشر كسائر البشر لولا رحمة الله.

و قد شرح الله صدر النبي بالايمان ، و شرحه باليقين ، و شرحه بالرسالة ، حتى جعله يتحمل ما تشفق الجبال من حمله ، حتى واجه ذلك المجتمع الجاهلي الفظ الجافي الحاد العنيف بتلك الاخلاق الحميدة التي نعتها الله جل ثناؤه بالقول : " و إنك لعلى خلق عظيم" (١. (

لقد وسع قلبه لما مضى من الزمان ولما قد يأتي ، و هيمن بقلبه الكبير عليهما جميعا ، و لا يزال الزمن يتقدم و يتطور و رسوله الله يقوده و حتى قيام الساعة.

و لقد شرح الله صدر الرسول بأولئك الصفوة من أصحابه الذين حملوا رسالته ، و تابعوا مسيرته وفي طليعتهم ابن عمه الامام علي - عليه السلام - الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى - حسب الحديث المتفق عليه - أولم يؤيد الله كليمه موسى - عليه السلام - بأخيه هارون ، و كان استجابة لدعائه ، حيث قال : " رب اشرح لي صدري " الى قوله " : و اجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي. "

[2]حينما يشرح الله القلب بالايمان فانه يتسع للمشاكل و الصعاب ، و يقدر(١) القلم / ٤

على مواجهة أعتى التحديات ، أوتدري كيف ؟ لان القلب يومئذ يضحى طاهرا من وساوس الشيطان ، نقيا من رواسب الشرك ، بعيدا عن أغلال التبرير و الخداع الذاتي ، سليما من البغضاء والضغائن و الحسد و الظنون و التمنيات ، و آنئذ يكون صاحبه خفيف المؤنة ، نشيط التحرك ،كما لو نشط من عقال ، ولعل القرآن يشير الى ذلك بقوله:

]و وضعنا عنك وزرك[

لأن الوزر هو الحمل الثقيل ، و وضع الحمل رفعه ، فأي حمل أشد ثقلا من حب الدنيا ، و الخوف من أهلها ، و التثاقل الى الأرض ؟ و نجد تأييد ذلك في الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - حيث سئل فقيل له : يا رسول اللهِ! أينشرح الصدر ؟ قال : "نعم " قالوا : يا رسول الله ! و هل لذلك علامة يعرف بها ! قال : " نعم . التجافي عن دار الغرور ، و الإنابة الى دار الخلود ، و الإعداد للموت قبل نزول الموت " (١. (

فاذا كان شرح الصدر - في حسب هذا الحديث - يتم بالتجافي عن الدنيا ، فان وضع الوزر يكون أحد مظاهره ، كما نجد تصديق ذلك في قوله سبحانه صفة الرسول : " و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم " (٢)و الإصر هو الحمل الثقيل ، و قد فسرت بالشرك و الخرافات ، كما ان أحد معاني الأغلال : القيود النفسية التي تمنع التحرك .

وقد تم كل ذلك بالوحي المتمثل في الكتاب ، وأي مؤمن ليستفيد منه نصيبا عندما يتلوه حق تلاوته ، فينشرح به صدره و يتخفف عن وزره و أثقاله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٠٣.

(2)الاعراف / ١٥٧.

[3]وأي وزر عظيم هو ضيق النفس و حرج القلب ؟ ! انه ينقض ظهر صاحبه ، و بالذات إذا حمل رسالة الله الى العالمين ، انه وقر كبير لا يقدر عليه إلا من شرح الله صدره بالايمان و اليقين و التوكل عليه ، و تفويض الأمر اليه ، هكذا قال شعيب - عليه السلام - حينما تحدى فساد قومه و قال : " ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و اليه أنيب " (١. (

]الذي أنقض ظهرك[

قالوا : أي أثقله ، حتى سمع نقيضه ، وهو صريره الذي يكون من شدة الحمل.

[4]عندما يخلص العبد لربه حياته ، و يصفو من أدران الدنيا و مصالحها و شهواتها ، و يتخلص من قيود المادة او أغلالها فانه يصبح قرين الرسالة ، يسمع بها ، و يعلو ذكره بسبب تصديه لنشرها و ذوبانه في بوتقتها ، كذلك سيد المرسلين استخلصه الله لنفسه ، فأصبح ذكره قرين ذكر الله ، و طاعته امتدادا لطاعة الله ، و كلامه و سنته و سيرته و آدابه جزء من أحكام الله ، فقال ربنا سبحانه : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " (٢ (هكذا رفع ذكره ، ألا ترى كيف يهتف المؤذنون بإسمه مع كل شارقة و غاربة، و عبر ملايين الحناجر المؤمنة.

]و رفعنا لك ذكرك[

و ذكر الرسول مرفوع في الدنيا بتأييد الله لدينه الذي يظهره على الدين كله و بقبول شفاعته في الآخرة التي يرضيه بها ، و اليوم و بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم نجد اسم الرسول محمد - صلى الله عليه وآله - هو أشهر اسم في العالم ، و شخصيته الكريمة أحب الى قلوب الملايين من أي شخصية أخرى ، وإذا

(1)هود / ٨٨.

(2)الحشر / ٧.

ذكروا أعظم شخصية عبر التاريخ فسوف يكون هو الأول ، لا ريب حتى عند غير المسلمين.

[5]من يتيم عائل يحيط به الأعداء أضحى رسول الله سيد قومه ، ثم باني أمة ، ثم شيد البشرية جميعا ، من فعل ذلك به أوليس الله ؟ فلماذا نيأس من روحه ، و نتراجع ببعض الأذى الذي يصيبنا في سبيله ؟

]فان مع العسر يسرا[

انه يلازمه أنى سار ، لان العسر يحمل في ذاته بذور اليسر ، و لان العسر حالة عابرة في حياة الانسان ، أوليس قد خلق الله الخلائق ليرحمهم ، و انما يبتليهم بالعسر و الشدة ؟ أوليس قد سبقت رحمة ربنا غضبه ؟ إذا فالعسر لا يدوم ، و الدليل على ذلك سيرة الرسولالتي أخلدها القرآن للعبرة بها ، لانها مثل أعلى لحياتنا نحن المسلمين ، نتبع هداها فيرزقنا الله روحها و عقباها ، و بتعبير آخر : الذي يتبع سيرة الرسول بقدر او آخر فان الخطوط العريضة لحياته سوف تتشابه مع تلك السيرة في عسرها و يسرها ، في صعابها وفي عواقبها الحسنى.

و لقد قال ربنا سبحانه : " ولكم في رسول الله أسوة حسنة " (١) فمن تأسى برسول الله في حياته حصل على جزء من مغانم سيرة الرسول و مكتسباتها.

[6]وراء العسر الواحد يسران : يسر في الدنيا و آخر في الآخرة ، يسر نابع من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، و يسر منبعث من الصبر و الإستقامة ، و بالتالي من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين ، لذلك كررت الآية:

]إن مع العسر يسرا[

(1)الاحزاب / ٢١.

قالوا :ان من عادة العرب إذا ذكروا إسما معرفا ثم كرروه فهو هو ، و اذا نكروه ثم كرروه فهو غيره ، و هما إثنان ليكون أقوى للأمل و أبعث للصبر.

و لذلك جاء في الحديث المروي عن الرسول - صلى الله عليه وآله - : انه خرج مسرورا فرحا ، و هو يضحك ، و يقول " لن يغلب عسر يسرين ! " (١. (

و جاء على لسان الشاعر:

إذا ضاقت بك الأحوال يوما توسـل بألـم نشـرحتجـد عسرين مع يسرين لا تحـزن و لا تفـرح[٧] كيف جعل الله مع عسر واحد يسرين إثنين ؟ انما بتوكل المؤمن على ربه ، و اجتهاده في العمل ، حتى إذا فرغ من مسؤولية لمسؤولية أخرى فمن دون توان أو انقطاع.

]فاذا فرغت فانصب[

قالوا :فاذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء ، قبل ان تقوم من مقامك ، أو إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب للعبادة ، أو إذا فرغت في نهارك عن أمور الخلق فانصب بالليل في طاعة الحق.

و يبدو ان كل هذه المعاني صحيحة لان الكلمة تسعها ، و معناها - فيما يظهر - الفراغ من عمل و الإجتهاد في عمل جديد ، و العمل الأول يكون أسهل من الثاني لانه قد بذل جهده فيه ، و لذلك جاء التعبير بـ " فانصب. "

ذلك ان القلب المتقد شوقا الى رضوان الله ، و ولها الى الزلفى منه لا يني يحمل(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٠٤.

الجسد على الأعمال الصالحة ، لا يفرغ من واحد حتى تراه يشتغل بالثاني و يجتهد فيه و ينصب لتحقيقه ، ان نفسه منه في نصب لان أهدافه كبيرة ، و تحسسه بالزمن و سرعة انصرامه عنه ، و بالموت و تسارع خطاه اليه ، و بالأجل الذي لا يستأخر و لا يستقدم ساعة حلوله ، وبالقبر الـذي ينتظره لنومـة طويلة ، و بالحساب ينتظره بكل هيبته و دقته .. اقول : ان عمق تحسسه بكل ذلك يقض مضجعه ، و يسلب راحته ، و يلهيه عن اللهو ، و يشغله عن اللعب ، و يصومه عن لذات الدنيا إلا بقدر حاجته ، و يزهده في درجاتها الزائلة.

هكذا كان أولياء الله الصالحين و لا يزالون فطوبى لهم ثم طوبى لهم ، و هكذا تجدهم عند نزول الموت بهم يتحسرون لا لفراق الأحبة ، و انعدام لذات الدنيا .كلا .. و انما لانهم بالموت يفقدون لذة قيامهم بالليل و مناجاتهم مع رب العباد ، كما يفقدون لذة العطش في صيام الهواجر.

كذلك يصفهم الامام علي - عليه السلام - في خطبة المتقين حيث يقول : " ولولا الأجل الـذي كتب اللـه عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقا الى الثواب ، و خوفا من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم و الجنة كمن قدرآها ، فهم فيها منعمون ، وهم و النار كمن قد رآها ، فهم فيها معذبون . قلوبهم محزونة ، و شرورهم مأمونة ، و أجسادهم نحيفة ، و حاجاتهم خفيفة ، و أنفسهم عفيفة ، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة . تجارة مربحة يسرها لهم ربهم . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، و أسرتهم ففدوا انفسهم منها . اما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا . يحزنون به أنفسهم و يستثيرون به دواء دائهم . فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليهاطمعا ، و تطلقت نفوسهم اليها شوقا ، و ظنوا انها نصب أعينهم . وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، و ظنوا ان زفير جهنم و شهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم و أكفهم و ركبهم ، و أطراف أقدامهم ، يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم . وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء . قد براهم الخوف بري القداح ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، و ما بالقوم من مرض ؛ و يقول : لقد خولطوا ! " (١) و قد كان رسول الله المثل الأعلى لهذه الصفات ، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه ، و عانى من الجوع حتى شد على بطنه حجر المجاعة ، و

طلبته الدنيا فكشح عنها.

و لم يزل خلال أيام رسالته المحدودة يهدم بنى الجاهلية في كل يوم ليقيم مكانها صرح الاسلام ، فما فرغ من مهمة إلا لينصب للثانية ، حتى إذا أكمل الله به الدين نصب نفسه لمهمة الخلافة من بعده ، فاستوزر عليا - عليه السلام - إماما من بعده ، وكانت تلك أصعب مراحل حياته ، حيث واجه مخالفة واسعة من بعض أصحابه و لكنه نهض به بكل عزم و استقامة.

من هنا جاء في تفسير الآية عن الامام الصادق - عليه السلام - : " فاذا فرغت من نبوتك فانصب عليا ، و الى ربك فارغب في ذلك " (٢. (

[8]و ما الذي يجعل المؤمنين في حركة ذاتية ، و نشاط لا ينقطع ؟ انه حب الله و الرغبة اليه ، و من وله بأحد استسهل الصعاب من أجله ، وأي حب أكبر في صدور المؤمنين من حبهم لله و قد قال الله : " و الذين آمنوا أشد حبا لله " (٣ (لذلك جاء النداء

(1)نهج البلاغة / ج - 193ص ٣٠٣.

(2)تفسير نور الثقلين /ج ٥ - ص ٦٠٥.

(3)البقرة / ١٦٥.

للرسول و من خلاله للأمة:

]و إلى ربك فارغب[

لقد كان قلبه عند ربه ، تناه عيناه و لا ينام قلبه ، و كان إذا جن عليه الليل تفرغ للإبتهال و الإجتهاد ، دعنا نستمع الى قصة ترويها عائشة عن قيامه بالليل حسبما جاء في رواية الامام الصادق - عليه السلام - قال : " كان ليلة النصف من شعبان و كان رسولالله - صلى الله عليه وآله - عند عائشة ، فلما انتصف الليل قام رسول الله - صلى الله عليه وآله - عن فراشه ، فلما انتبهت وجدت رسول الله - صلى الله عليه وآله - قد قام عن فراشه ، فداخلها ما يدخل النساء (اي الغيرة) و ظنت انه قام الى بعض نسائه ، فقامت و تلففت بشملتها - و أيم الله ما كانت قزا و لا كتانا و لا قطنا ، و لكن سداه شعرا و لحمته أوبار الإبل - فقامت تطلب رسول الله في حجر نسائه حجرة حجرة فبينما هي كذلك إذ نظرت الى رسول الله ساجدا كثوب متلبد بوجه الأرض ، فدنت منه قريبا فسمعته يقول في سجوده:

"سجـد لك سوادي و خيالي ، و آمن بك فؤادي ، هذه يداي و ما جنيته على نفسي ، يا عظيم ! ترجى لكل عظيم ، إغفر لي العظيم ، فانه لا يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم. "

ثم رفع رأسه و أهوى ثانيا الى السجود ، و سمعته عائشة يقول:

"أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السموات و الأرضون ، و انكشفت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين من فجأة نقمتك ، ومن تحويل عافيتك ، و من زوال نعمتك . اللهم ارزقني قلبا تقيا نقيا ، و من الشرك بريا ،لا كافرا و لا شقيا"

ثم عفر خديه في التراب و قال " :عفرت وجهي في التراب و حق لي أن اسجد لك " (١. (

(1)مفاتيح الجنان) اعمال النصف من شعبان) ص ١٦٩.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ، باسناده عــن أبــي عبــد اللـه الصادق - عليه الســلام - انه قال : " من قرأ " و التين " في فرائضه و نوافله أعطي من الجنة حيث يرضى. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٠٦

الاطار العام

من لا يضع معلوماته في اطار علمي رصين لا ينتفع بها شيئا ، و القرآن الكريم يمنحنا ذلك الاطار . أرأيت لو لم تعرف نفسك من انت ، من أين جئت ، و الى أين تذهب ، وماذا يصلحك ، وماذا يضربك ، كيف تستطيع ان تنتفع بمعلوماتك عما حولك ؟ فهل تفيدك معرفة الدواء لو لم تعرف المريض و مرضه ؟

و سورة التين تهدينا الى بصيرة الذات .. و التي هي تمهيد لبصائر الحياة ، بل هي خلاصتها.

أليس الله بأحكم الحاكمين

بينات من الآيات

[1]و تفتتح هذه السورة بالقسم بما يصلح اطارا لهذه البصيرة . فما هو التين و الزيتون ؟

]و التين و الزيتون[

تتميز الفاكهة عن سائر الطعام بسهولة تناولها دون معالجة ، فاللحم لا يستساغ نيا ، و الحبوب بحاجة الى معالجة و إعداد ، بينما العنب مثلا يجنى و يؤكل بلا معالجة ، بينما يتميز أنواع من الطعام بامكانية تخزينه ، و بزيادة فوائده للجسم ، بيد أن ألوانا منالفاكهة تجمع الى ميزاتها كفاكهة ميزات الطعام ، بإمكانية تخزينها و غناها بالمواد الضرورية للجسد و منها التين ، فهي سهلة التناول كأنها قد صنعت بقدر فمك ، طيبة المذاق ، جليلة الفائدة ، تجفف لأوقات الحاجة ، و قد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - فيفضلها انه قال : " لو قلت ان فاكهة نزلت من الجنةلقلت هذه هي ، لان فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها فانها تقطع البواسير ، و تنفع من النقرس. (1) "

و كذلك فاكهة الزيتون التي هي من اعظم الفواكه نفعا للجسد و بالذات لان زيتها يعتبر الدهن النادر الذي لا يضر الجسد شيئا ، و جاء في حديث مأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " كلوا الزيتون و أدهنوا به فانه من شجرة مباركة " (٢. (

[2]في كنف جبل مشجر تحلو الحياة لما فيه من فوائد و منظر و حماية ، من هنا جاء ذكر الطور بعد ذكر طعام الانسان فقال ربنا:

]و طور سينين[

و قيل في معنى " سينين " الحسن باللغة السريانية ، و قيل : ان كل جبل ذا اشجار مثمرة يسمى بسينين ، فقد قال مقاتل و الكلبي : " سينين " كل جبل فيه شجر مثمر (٣. (

[3]و أنى كان فان الصورة تنسجم مع القسم بالتين و الزيتون من جهة و بالبلد الأمين من جهة أخرى ، حيث قال ربنا سبحانه:

]و هذا البلد الأمين[

ذلك ان أصول مدنية الانسان : الطعام ، و الارض ، و السلام . فاذا كان التين و الزيتون مثلا لأرقى أنواع الطعام ، و طور سينين لأحسن الأراضي و أكثرها بركة ، فان البلد الأمين مثل لأفضل البلاد و هي بلاد الأمن ، و يتناسب هذا الاطار مع(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٠٧.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 112

(3)المصدر.

محور السورة المتمثل في خلق الانسان بأحسن تقويم ، ذلك لان تسخير الحياة له ، و إعداد طعامه و ارضه ، و توفير الأمن ، و بالتالي توفير وسائل المدنية له بعض جوانب حسن صنعه اليه ، و جميل عطائه له.

و قد فسرت هذه الكلمات تفسيرات أخرى لا تتنافى وسعة كلمات القرآن و تخومها المتعددة ، فقالوا : " البلد الامين " : مكة شرفها الله " و طور سينين " : الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه فيه موسى - عليه السلام - اما " التين " فقيل: انه البيت المقدس او المسجد الحرام او مسجد دمشق ، بينما الزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، او ان التين هو مهبط سفينة نوح حيث جبل الجودي.

و جاء في رواية مأثورة عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " ان الله تبارك و تعالى اختار من كل شيء أربعة . الى ان قال : و اختار من البلدان اربعة : فقال تعالى : " و التين و الزيتون * و طور سينين * و هذا البلد الأمين "فالتين : المدينة ، و الزيتون : بيت المقدس ، و طور سينين : الكوفة ، و هذا البلد : مكة " (١. (

[4]قسما بتلك الديار المقدسة . و قسما بتلك النعم التي تصنع حضارة البشر ان الانسان قد خلق خلقا سويا حسنا.

]لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم[

تتجلى قدرة الله في صنع جسده ، من استقامة قامته ، الى شبكة أعصابه ، الى قدرات مخه ، الى مرونة جسمه و ما فيه من قدرة احتمال للظروف المختلفة ، مما يدل على انه قد أعد لدور أعظم من مجرد دوره الحياتي أو البنائي ؛ انه ليس مجرد فرد متطور ، انه مخلوق مكرم، سخر الله له الأحياء و النباتات و الطبيعة ، فاذا دوره(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٠٦.

الحقيقي ليس في جسمه و انما في روحه ، في تلك الومضة المباركة من نور المشيئة التي منح من دون سائر الأحياء ، في ذلك القبس من نور العقل و العلم و المعرفة الذي زود به و ميز به عن سائر الخلائق.

وهذا المعنى هو الذي ينسجم مع سياق السورة ، فالقوام الحسن الذي من الله به على الانسان ليس تقويم جسده فقط ؛ لان هذا التقويم مقدمة لما هو أهم وهو قوام روحه ؛ ولأن المؤمن و الكافر يشتركان فيه ، و لا معنى لرد الكفار و حدهم الى أسفل سافلين.

ان الانسان قد خلق ليكون ضيف ربه الأعلى في جنان الخلد ، ليكون جليس مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ليكون مثل ربه العظيم يقول : للشيء كن فيكون ، ليكون في خط ذلك الانسان الذي يعرج الى ربه و يعرج حتى يكون قاب قوسين أو أدنى.

[5]و لكن هذه الفرصة المباركة التي منحت له تنعكس تماما عندما لا يستفيد منها ، فيكون كالمتسلق جبلا عظيما ان زلت قدمه هوى الى الوادي السحيق.

]ثم رددناه أسفل سافلين[

الى أين ؟ الى جهنم و ساءت مصيرا ، حيث يتمنى لو يكون ترابا.

[6]ما دام الانسان قد خلق في احسن تقويم فليترك نفسه مع الأقدار تحمله أنى اتجهت ؟ كلا .. إذ ان ذلك يؤدي به الى اسفل سافلين ، لا بد من الوعي و النشاط حتى لا يهبط الى الدرك الأسفل ، و مثله في ذلك مثل الذي يوضع في قمة جبل سامق ، فتهب عليه عاصفة شديدةان لم يستخدم كل وعيه و قوته و عزمه لطوحت به الى الوادي.

هكذا استثنى الذكر " الذين آمنوا و عملوا الصالحات " فقط ، و هم الذين يبقون في القمة حيث و جعلهم الله.

]إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون]لا ينقطع أجرهم ، و تتواتر عليهم نعم الله ، أوليس ربنا لا تزيده كثرة العطاء الا جودا و كرما .

[7]لا يحتاج أي حيوان الى العناية في أمور حياته بقدر ما يحتاج الانسان ، فالطفل البشري تتضاءل احتمالات بقائه من دون عناية مناسبة قد يظل يعتمد على والديه فترة طويلة ، كما ان الانسان نفسه لا يملك وسائل دفاعية كافية في مقاومة سائر الأخطار ، بينما أوتي كل حيوان أدوات كافية للدفاع ، بينما أوكل هذا الأمر بالنسبة الى الانسان الى عقله و ذكائه ، كل ذلك يدل على انه مخلوق متحضر ، يحتاج في وجوده و في تكامله الى النظام.

]فما يكذبك بعد بالدين[

مالذي يدعوك الى تكذيب الجزاء أيها الانسان ! ومن دون الايمان بالجزاء لا يمكن ان يبقى الانسان حيث جعله الله في قمة الخلائق ، كما انه من دون الايمان بالجزاء لا معنى للالتزام بالدين (الشريعة) بينما الدين ضرورة عقلية يهتدي اليها الانسان ، أليس الانسان قد خلق اجتماعيا فهو بحاجة الى نظام ، و أفضل نظام هو الذي يوحي به الرب ، أوليس في الانسان فرص التكامل الروحي و التقرب الى الله ، فهو إذا بحاجة الى رسل و رسالات ينجزون له هذه الفرص ، و من جهة أخرى : ألا تجدون الانسان كيف ينهار الى منتهى الوحشية و الفساد من دون روادع ، فيستخدم ذكاءه و قدراته في تدمير نفسه ، ألم تر كيف نشر الفساد في البر و البحر ؟ ألم تسمع أنباء الحروب العالمية ، أولم تقرأ عما يعده لنفسه من وسائل التدمير ؟! كلذلك يشهد على ان هذا الكائن العظيم لا يتكامل إلا بنظام الهي عظيم .. انه من دون الدين سفينة جبارة بلا ربان ، طائرة كبيرة بلا طيار ، فما هو مصيره يا ترى ؟!

[8]ولولا الجزاء الموعود لكان خلق الانسان عبثا أو حتى ظلما سبحان الله!

فكيف يتساوى عند الله من يهبط الى أسفل سافلين فينشر الفساد في الارض ، و من يتسامى الى قمة الخير و الإحسان ؟ ان آيات الله في الخليقة تهدينا الى ان ربنا هو أحكم الحاكمين ، فتشهد ذلك على انه جعل لهذا الانسان جزاء يبلغه في يوم الدين.

]أليس الله بأحكم الحاكمين [

جاء في الحديث عن قتادة : وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله - إذا ختم هذه السورة قال : " بلى . و أنا على ذلك من الشاهدين " (١. (

(1)مجمع البيان / ج ١٠ -ص ٥١٢.

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال : " من قرأ في يومه أو ليلته " إقرأ باسم ربك " ثم مات في يومه أو ليلته مات شهيدا ، و بعثه الله شهيدا ، و أحياه شهيدا ، و كان كمن ضرب بسيفه في سبيل الله عز وجل مع رسول الله صلى الله عليه و آله. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٠٨

الاطار العام

في نفس ابن آدم كبر دفين ، يستثيره شعوره بالغنى ، و يذهب به إحساسه بالحاجة ، و إذا لم ينتبه الانسان الى هذا الداء العضال فان نعم الله عليه لا تزيده إلا طغيانا ، و الطغيان مطية الهلاك.

و أما اذا تذكر الانسان ، و عرف انه بذاته جاهل فقير مسكين مستكين ، وأن الله هو الذي علم بالقلم ، و انه حينما يقرأ فان الله هو الأكرم ، أهل الحمد و الكبرياء و ليس هذا المتعلم الذي يطغى بعلمه و عرف ان الثروة نعمة من الله لا بد من حمد الله عليها و شكره لا الطغيان بها ، و مواجهة الحق بها ، و كذلك الجاه و العشيرة.

لو عرف ذلك اطمأنت نفسه ، بل استطاع ان يعالج بإذن الله كبر ذاته عبر نعم ربه ، فكلما زادت النعم ازداد شكرا لله و تواضعا لعباد الله ، و أداء لحقوق الله.

هكذا يبدو محور سورة العلق : معالجة طغيان الانسان عندما يحظى بنعمة العلم او المال و الجاه . معالجته بالمزيد من التعبد ، و هكذا تختم السورة بالأمر بالسجود الذي هو معراج الانسان الى ربه.

إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى

بينات من الآيات

[1]لم تكن المرة الأولى للوحي و لكنها كانت الأخيرة ، و كانت العظمى حيث جلجل الوحي في جبال مكة ، و هبط الأمين جبرئيل ، و حمل معه نورا يتألق سناه عبر الزمن.

كان النبي محمد - صلى الله عليه وآله - يقلب وجهه في السماء ينتظر ساعة الانطلاق الكبير ، كان يعلم انه رسول الله و لكن متى يتنزل عليه الوحي ليأمره بان يصدع بالحق ؟ هذا الذي كان يبحث عنه بشوق كبير.

كانت الكعبة تستصرخه لينقذها من الصخور الصماء التي نصبت من حولها و عبدت من دون الله جهارا ، و كانت تستنجد به لانها حولت من بيت الله الذي وضعه للناس جميعا ، الى عاصمة مستكبري قريش ، يفرضون بإسمها على الجزيرة سيادتهم الظالمة.

و كانت الانسانية المعذبة في أرجاء الجزيرة تنتظره بفارغ الصبر ، فهنا البنات يقتلن بغير ذنب ، و هناك يقتلون الاولاد ايضا ، و الحقوق تنتهك ، و الزنا يتفشى ، و الفقر و المسكنة و التخلف اصبحت سمة المجتمع أنى يممت شطرك.

و اما الثقافة فقد أصبحت في خدمة الطغاة و المترفين ، على انها كانت ركاما من الأساطير و الخرافات ، و وسيلة لإثارة النعرات العشائرية ، و العصبيات التافهة ، و المفاخر الكاذبة ، و أداة لتكريس الأحقاد و

الضغائن ، و العلاقات الاقتصادية أصبحت مجموعة أغلالو قيود على نشاط الانسان ، على انها كانت قائمة على اساس الظلم و القهر و الطبقية المقيتة.

و كانت الاوضاع خارج الجزيرة ليست بأحسن أبدا ، حيث جرف التحريف و النفاق اتباع موسى و عيسى - عليهما السلام - الى أبعد حدود الضلال.

و كانت الثقافة ربانية الى هذا الانسان الغارق في أوحال الجهل و التخلف ، و بعث الله أعظم ملائكته الروح القدس ليؤدب مصطفاه من خلقه ، المختار محمد ، و بعث جبرئيل الأمين ليقلي في روعه الوحي.

واليك بعض ما جاء عن امير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة:

"و أشهد ان محمدا عبده و رسوله ، أرسله بالدين المشهور ، و العلم المأثور ، و الكتاب المسطور ، و النور الساطع ، و الضياء اللامع ، و الأمر الصادع .إزاحة للشبهات ، و احتجاجا بالبينات ، و تحذيرا بالآيات ، و تخويفا بالمثلات و الناس في فتن انجذمفيها حبل الدين و تزعزعت سواري اليقين ، و اختلف النجر ، و تشتت الأمر ، و ضاق المخرج ، و عمي المصدر ، فالهدى خامل ، و العمى شامل . عصى الرحمن ، و نصر الشيطان ، و خذل الايمان فانهارت دعائمه ، و تنكرت معالمه ، و درست سبله ، و عفت شركه ، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، و وردوا مناهله.

بهم سارت أعلامه و قام لواؤه .في فتن داستهم بأخفافها ، و وطئتهم بأظلافها . و قامت على سنابكها ..فهم فيها تائهون حائرون ، جاهلون مفتونون . في خير دار و شر جيران . نومهم سهود ، وكحلهم دموع . بأرض عالمها ملجم ، و جاهلها مكرم " . (١)و قال : " ان الله بعث محمدا - صلى الله عليه وآله - نذيرا للعالمين ، و أمينا على التنزيل ، وأنتم معشر العرب على شر دين ، و في شر دار ، منيخون بين حجارة خشن ، و حيات صم . تشربون الكدر ، و تأكلون الجشب ، و تسفكون دماءكم ، و تقطعون أرحامكم . الاصنام فيكم منصوبة ، و الأثام بكم معصوبة. (2) "

و قال : " أرسله على حين فترة من الرسل ، و طول هجعة من الأمم ، و اعتزام من الفتن ، و انتشار من الأمور ، و تلظ من الحروب . و الدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور . على حين اصفرار من ورقها ، و اياس من ثمرها ، و اغوار من مائها . قد درست منار الهدى ،و ظهرت أعلام الردى ، فهي متجهمة لأهلها . عابسة في وجه طالبها . ثمرها الفتنة ، و طعامها الجيفة ، و شعارها الخوف ، و دثارها السيف " (٣. (

و قال (ع) عن بعثة النبي)ص) : " بعثه و الناس ضلال في حيرة ، و خابطون في فتنة . قد استهوتهم الأهواء ، و استزلتهم الكبرياء ، و استخفتهم الجاهلية الجهلاء . حيارى في زالزال من الأمر ، و بلاء من الجهل . فبالغ - صلى الله عليه وآله - في النصيحة ،و مضى على الطريقة ، و دعا الى الحكمة و الموعظة الحسنة " (٤. (

لم يشك محمد - صلى الله عليه وآله - ان هذا وحي يوحى إليه ، لأن الله(١) نهج البلاغة / خ ٢ -ص ٤٦ .

(2)المصدر / خ ٢٦ ص. 68 -

(3)المصدر / خ ٨٩ ص. 121 -

(4)المصدر / خ ٩٥ ص. 140 -

لا يختار من رسله من يشك في وحيه ، لم يشك ابراهيم - عليه السلام - ان رؤياه حق فبادر ليقتل ابنه ، و لم يشك موسى - عليه السلام - ان الذي يكلمه عند الشجرة هو الله ، فاخذ يناديه بكل جوارحه ، ولم تشك مريم ان الله قد رزقها غلاما زكيا ، كما لم يشك عيسى بن مريم - عليهما السلام - انه عبد الله و رسوله الله الى بني إسرائيل ، فهل من المعقول ان يشك خاتم النبيين في ذلك وهو أشرفهم و

أعظمهم ؟!

نور الشمس دليلها ، و نــور العلم دليله ، و اطمئنان اليقين هو ذاته شاهد صدق عليه ، و الوحي أشد وضوحا من الشمس ، و أبهى ضياءا من العلم ، و أكبر سكينة و اطمئنان من اليقين.

أوليس الوحي من الله و الله شاهد عليه ، فكيف يرتاب رسول الله فيه ، أوليس الله بقادر على ان يري رسوله ما يجعله على يقين من أمره ، أو يبعث الى الناس من لا يزال يشك في الوحي حاشا الله!!

و اني لا يمكنني ان أصدق بتلك الروايات التي تنقل حول الرسول ، و انه قال لخديجة بعد ان نزل عليه الوحي :ما لي يا خديجة ! و أخبرها الخبر ، و قال : خشيت على نفسي ، فقالت له كلا .. أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، و تصدق الحديث ، و تحمل الكل و تقري الضيف ، و تعين على نوائب الدهر.

بلى . لا استطيع ان أفهم هذا النوع من النصوص التي تخالف ظاهر القرآن ، و تكون ذريعة للمستشرقين للنيل من رسول الاسلام ، وأعتقد ان الرسول كان ينتظر الوحي بفارغ الصبر ، فلما نزل عليه جبرئيل عرفه الله بصدقه ، فلما نودي:

]إقرأ باسم ربك الذي خلق[

قرأ :باسم الله الرحمن الرحيم ، و كانت تلك بداية الرسالة بالرغم من ان فاتحةالكتاب هي سورة الحمد ، إلا أنها كانت فاتحة الكتاب حسب ما قدر الله له ان يكون في صورته النهائية ، بينما كانت الآيات الخمس الأوائل في سورة العلق فاتحة التنزيل . ومن المعروف ان هناك فرقا بين ما أنزل في ليلة القدر حين انزل الكتاب كله و بين ما نزل منجما خلال ثلاث و عشرين عاما من دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

من هنا جاء في الحديث : عن الامام الصادق - عليه السلام - : " أول ما نزل على رسول الله " بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ باسم ربك " و آخره إذا جاء نصر الله و الفتح " (١. (

و السؤال : ما هي دلالات هذه الكلمة الأولى من الوحي ؟

لعل الوحي كان يفتتح على البشرية عهد القراءة باعتبارها ظاهرة ملازمة للانسان بعد عهد النبي - صلى الله عليه وآله - و فعلا و بالرغم من وجود ظاهرة الكتابة منذ مئات السنين قبل الاسلام الا انها انتشرت بالاسلام بصورة مطردة حتى اصبحت اليوم سمة الانسان الظاهرة.

و القراءة أشد وضوحا من الاستماع ، لانها تفرض التفاعل بين الانسان و النص الذي يتلى عليه أكثر من مجرد الإستماع إليه ، و ربما سمي لذلك كتاب ربنا بالقرآن.

ولكن القراءة ليست مطلوبة بصفة عامة انما التي تكون باسم الله ، لماذا ؟ لان اسم الله يحدد الهدف من القراءة . لا يكون من أجل التعالي على الناس ، و خدمة الطغاة و تضليل السذج من الناس ، بل تكون من أجل تزكية النفس ، و خدمة الناس و هدايتهم.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٠٩.

و حين يكون العلم - و وسيلته القراءة - باسم الله ترى الملوك صافين على أبواب العلماء ، و الناس ملتفون حولهم ، و هم يقودونهم في معاركهم ضد المترفين و المستكبرين.

[2]لقد خلق الله الانسان من علقة ، من دم جامد يعلق ، و من قبل خلقه من ماء مهين ، ثم أكرمه حتى فضله على كثير مما خلق تفضيلا . أية نقلة عظيمة كانت بين حالته كعلقة و دم ، و بينه كانسان يمشي سويا على قدميه ؟ ان من يعرف قليلا عن خلقة الانسان و ما أودعالله في جسده و روحه من

آيات عظمته لابد ان ينبهر بتلك النقلة العظيمة أليس كذلك ؟ و لكن نقلة عظيمة أخرى تنتظره الان ، هذه المرة لابد ان تتم هذه النقلة بعزيمة من عنده و رحمة من ربه . هي النقلة الحضارية بين انسان أمي و آخر يقـرأ باسم ربه ، و لعله لذلك جاءت الآية تذكرنا بأصل خلقه الانسان.

]خلق الانسان من علق[

ومن شك في قدرته على ان يسمو الى درجات عالية فلينظر الى نعمة الله كيف خلقه من علقة ، انه قادر على ان يبعثه خلقا آخر بالعلم و الهدى.

[3]تعال نفكر في أبعاد القراءة : كيف علم الله الانسان الكتابة فأخذ ينقل تجاربه من جيل لآخر ، و من أمة لأخرى ، و تراكمت التجارب حتى أضحت اليوم سيلا متدفقا لا تكاد قنواتها العلمية على سعتها تقدر على استيعابها . أرأيت لو لم يعلم الانسان الكتابة هل كـان إلا مثل فصيل من القردة او من الانعام . سبحان الله ! انك ترانا لازلنـا نكفر بنعمة الله ، بل كلما زادت نعم الله على البشر ازدادوا كفرا بها طغيانا ، فمن أجل ألا يصبح العلم سببا للطغيان ، و اداة للظلم و الفساد يذكرنا الرب بانه أنى تقدم البشر في آفاق العلم فعليه ان يشكر ربه ، و يعترف بان الله هو

الأكرم ، لانه علم بالقلم ، و لم يكن الانسان شيئا لو لم يعلمه ربه.

]إقرأ و ربك الاكرم[

كما نقول : كل واحمد الله ، او اصبر و ربك الكريم ، او اعط و الله يخلف على المنفقين ، كذلك - فيما يبدو لي - ذكرتنا الآية بان الله هو الأكرم ، فأي صفة حميدة هي منه ، فهو الجواد الذي أعطى الانسان موهبة القلم ، وهو الأعلى الذي لا يتسامى أحد في مدارج العلم و الكمال إلا به.

[4]و من آيات كرمه و حمده انه علم الانسان بسبب القلم فلم يكن القلم سوى وسيلة ، أرأيت لو قررت ان تعلم الجدار هل يتعلم شيئا ؟ أوليس لانه ليس بذي أهل للتعلم ؟ كذلك كلما تقدم الانسان في حقول العلم لا بد ان يزداد لربه تواضعا ، و لا يصبح كفراعنة المال يطغون في الارض و يسعون فيها فسادا .

]الذي علم بالقلم[

] [5]علم الانسان ما لم يعلم[

و هكذا جاءت النصوص تترى في ضرورة التواضع و الزهد عند العلماء:

فقد جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " تواضعوا لمن تعلمونه العلم ، و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، و لا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم " (١. (

عن البرقي مرفوعا الى أمير المؤمنين - عليه السلام - قال : " قال عيسى بن مريم - عليه السلام - : يا معشر الحواريين ! لي اليكم حاجة اقضوها لي ، قالوا:

(1)اصول الكافي / ج ١ -ص ٣٦.

قضيت حاجتك يا روح الله ! فقام فغسل أقدامهم ، فقالوا : كنا نحن أحق بهذا يا روح الله ! فقال : إن أحق الناس بالخدمة العالم ، انما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم ، ثم قال عيسى - عليه السلام - بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر ، و كذلكفي السهل ينبت الزرع لا في الجبل " (1) .

[6]و مشكلة الانسان انه لا يستوعب نعم الله ، فيطغى بها و يهلك نفسه بذلك و قد يهلك الآخرين معه . أرأيت لو أعطيت قنبلة نووية لمن لا يعرف كيف يتصرف بها فطغى بها ، او يكون في ذلك خير أم شر مستطير ؟

]كلا[

ان الانسان ليس بطبعه في مستوى استيعاب هذه الحقيقة و هي ان العلم من عند الله و عليه ألا يطغى به ، او ان المال من عنده سبحانه ، و عليه ان يتصرف فيه كما يريده الله.

]ان الانسان ليطغى[

[7]متى يطغى ؟ عندما يحس أنه أصبح غنيا.

]أن رءاه استغنى[

أي رأى نفسه قد استغنى ، و في أدب العرب لا يرجع ضميرين متصلين الى مصدر واحد ، فـلا يقال : ضربه ، نضرتني ، بل يقولون : ضرب نفسه و نظرات نفسي ، إلا افعال القلوب التي تتعدى الى مفعولين مثل حسب ، فيقولون : (حسبتني) و قال الله تعالى : " أرأيتك " و رأى هنا ليس بمعنى النظر بالعين إذ ان

(1)المصدر / ص ٣٧.

ذلك من أفعال الجوارح ، بل بمعنى النظر بالقلب.

و سياق الآية يهدينا الى ان خطأ علميا ينشأ عن الانسان فيزعم انه قد استغنى ، و يتسع ذلك لاحتمالين:

الأول :ان يرى نفسه مستغنيا بما أوتي من علم فينطبق على علماء السوء كما قال سبحانه : " و لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا و يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلـوا " (١) و ينسجم ذلك ايضا مع قوله سبحانه : " أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى " إذ ان هذا من شأن علماء السوء و انصاف المثقفين ، الذين يتصدون لأمور الدين ، و يأمرون و ينهون بما تشاء أهواؤهم ، و يشير الى هذا التأويل الحديث المأثور عن الامام علي - عليه السلام - انه خرج في يوم عيد ، فرأى أناسا يصلون فقال : " يا أيها الناس !
قد شهدنا نبي الله في مثل هذا اليوم فلم يكن أحد يصلي قبل العيد او قال النبي " فقال رجل : يا أمير المؤمنين ! الا تنهـي ان يصلوا قبل خروج الامام ؟ فقال : " لا أريد ان أنهى عبدا إذا صلى ، و لكنا نحدثهم بما شهدنا من النبي أو كما قال " (٢).(

و هكذا لا ينبغي لعلماء الدين ان يفرطوا في الأمر ، و التي فيما لا يتصل بالبدع الظاهرة في الأمة ، فقد ينهون أحدا عن عمل صالح و هم لا يشعرون ، كما يفعل بعض المتصدين للشؤون الدينية اليوم ، يستغلون ثقة الناس فيهم ، و في نهيهم عن التعاون مع المؤمنين اوعن دعم المؤسسات الخيرية لانها ليست تحت سيطرتهم ، او لانهم يخالفون الخط الذي ينتهجه اصحاب تلك المؤسسات.

الثاني : ان يظن انه مستغن بما أوتي من فضل الله ، فيزعم ان المال هو كل شيء(١) ال عمران / ١٨٨ .

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦١٠.

في حياته ، فلا يأبه بنواقصه و نقاط ضعفه من الناحية الدينية او العلمية او الخلقية او الاجتماعية ، انما يختصر نفسه في زاوية المال حتى تفسد علاقاته مع أهله و ذوي قرباه ، و يتعامل معهم بروح استبكارية . لماذا ؟ لانه يملك بعض المال . كلا .. ان الثروة واحدةمن فرص الحياة ، فلماذا تضيع سائر أبعاد حياتك لها ، أرأيت لو كنت غنيا لا تأكل أو لا تنام او لا تمارس الجنس . بلى . بلى تفعل كل ذلك لانها فرص حياتك أليس كذلك ؟ فلماذا تسجن نفسك في زنزانة الطغيان ، و تفصلها عن إخوانك و أسرتك و سائر البشر ، و تضيع عن نفسك التمتع بلذة العلم ، و جمال الادب ، و جلال الاخلاق ، و حتى تحرمها من كمالات الدين.

وقد أولت الآية في أبي جهل الذي طغى بماله ، و حاول ان ينهى رسول الله عن صلاته ، و معروف ان أبا جهل واحد من اولئك المترفين ، و ان في كل عصر طاغية يسير على خطاه ، فكم هجمت شرطة الانظمة الفاسدة على مواقع الصلاة ، و كم ذبحوا أبنائها المؤمنين ، و لطخواأروقة الجوامع بدماء الصالحين الزاكية!!

[8]ان تملك مالا او تحوز علما او شرفا حسن ، بل انك خلقت لتعمر الارض ، و تسخر ما فيها لمصلحتك ، ثم تتكامل روحيا عبرها ، و لكن ان تستغني بما تملك و تفرح ، و تنسى نصيبك من الآخرة ، انها نكسة في وجودك ، لانه يحرمك عن خيرات أعدت لك .

و السؤال : كيف يتخلص الانسان من الإحساس بالاستغناء ، أوليس قلب البشر ضيق ، و صدره حرج ، أوليس قد خلق هلوعا : يطير فرحا إذا أمتلك دينارا ، و يمتلئ غيضا إذا فقده!

انما يعيد توازنه إذا تصور الآخرة وما أعد فيها من نعيم لا يقاس بما في الدنيا ، وما أعد فيها من عذاب عظيم ، فآنئذ تتضاءل في عينه الدنيا و ما فيها ، و لذلكأمرنا الاسلام بزيارة المقابر عند هجمة المشاكل ، فمن تصور الموت و أهواله خفت عنه لسعة المشاكل ، أولم يقل الشاعر العربي : و الحرج يسكنه الذي هو آلم.

من هنا ذكرنا الرب هنا بالرجوع الى الله لانه العلاج الأمثل لطغيان النفس.

]ان الى ربك الرجعى[

[9]و عاد السياق الى بعض ممارسات الطغاة.

]أرأيت الذي ينهى[

تفكر في ذلك فان على الانسان ان يعود الى فطرته ليحكمها في شؤون الناس.

[10]أرأيت كيف يقطع سبيل الخير ، و يصد العبد عن التقرب الى الرب.

]عبدا إذا صلى[

ان الصلاة و التعبد و الإبتهال الى الله أبسط حقوق الانسان ، انه كالتنفس ، كالطعام ، كالسكن كيف يتجرأ البعض سلبه من البشر ، حقا .. انها جريمة كبرى .و هي تكشف عن مدى الظلال الذي يبلغه الانسان حينما يستغنى فيطغى.

[11]قد يبرر الذي ينهى العبد عن صلاة ربه فعلته الشنيعة بان هذه الصلاة باطلة بسبب أو آخر ، و لكنه لا يفكر فيما لو كانت صحيحة ، و كان العبد على الهدى فاي جريمة كبرى يكون قد ارتكب.

]أرأيت إن كان على الهدى[

[12]كيف و بأي مقياس ترى نفسك - يا من تنهى عباد الله عن صلاتهم - أفضل منهم ، فلعل هذا الذي

تنهاه عن صلاته امامك و قائدك ، لانه يتأمركبالتقوى . و أنت تنهاه عن الصلاة ؟!

]أو أمر بالتقوى[

[13]بينما يكون من ينهاه مكذبا بالرسالة ، كافرا بها.

]أرأيت إن كذب و تولى[

ماهي تكون عاقبته ؟ أليست النار يصليها مذموما مدحورا.

[14]كيف يجعل نفسه مقياسا للحق و الله سبحانه يراه و يحيط علما به و بما يتعلم و بما يخطر بباله من نية سوء ؟ انه قد يخدم الناس و يبرر لهم عمله بانه انما نهي عن الصلاة لانها تضر الناس ، او لانها غير متكاملة او ما أشبه ، الا انه لا يستطيع ان يخفي عن ربه نيته السيئة.

]ألم يعلم بأن الله يرى[

[15]و تتواصل آيات الذكر تقرع هولاء الذين يفترون على الله كذبا ، و يستكبرون في الارض بغير الحق بان الله سبحانه سيأخذهم بشدة و عنف من نواصيهم.

]كلا[

ليس كما يزعم بان الله لا يراه . انه سبحانه يراه ، و يحصي عليه ذنوبه ، فيأخذه ان لم يتب أخذا شديدا.

]لئن لم ينته لنسفعا بالناصية[

قالوا : إذا قبضت على شيء و جذبته جذبا شديدا يسمى سفعا ، و يقال : سفعبناصية فرسه ، و أنشدوا :

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافعولعل اختيار الناصية لانها واجهة الانسان و أعز ما فيه.

حينما تدخل قوة الغيب في معادلة صراع الانسان مع نظيره تتغير المعادلة كليا ، افليس في ذلك ظلم ؟ كلا .. لان الله سبحانه لا يفعل ذلك عبثا ، انما بعد إنذار من عنده و تحد من قبل الفرد.

]ناصية كاذبة خاطئة[

كذبت بالحق ، و افترت على الله و أخطأت بالعمد في اختيار طريقه ، و تنسجم هذه الأوصاف مع علماء السوء الذين يصدون عن سبيل الله باسم الدين.

[17]انهم يزعمون ان الأنداد ينفعونهم شيئا في ذلك اليوم الرهيب كما في الدنيا ... و يتهربون - بهذا الزعم الساذج - من شدة وقع الإنذار . كلا .. دعهم يجمعون كل من يحضر ناديهم ، و لينظروا كيف يدعو الله زبانية العذاب!

]فليدع ناديه[

يبدو لي ان استخدام كلمة النادي التي هي اسم لمحل الاجتماع - مكان أهل النادي - للاشارة الى كل أهل النادي ، كما قال سبحانه : " و أسأل القرية " اي كل من في القرية.

] [18]سندع الزبانية[

قالوا : العرب تسمى الشرطة بالزبانية ، المأخوذة من كلمة زبن ، بمعنى الدفع ،و أنشدوا:

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومهاوفي نزول الآية ورد عن ابن عباس قال : لما أتى أبو جهل رسول الله انتهره رسول الله ، فقال ابو جهل : اتنتهرني يا محمد ! فوالله علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني ، فانزل الله سبحانه : فليدع ناديه . (1)

و قد روي عن ابن عباس ايضا انها نزلت في أبي جهل حينما صفع ابن مسعود عندما تلا على قريش سورة الرحمن ، فعاد ابن مسعود الى النبي باكيا ، فنزل جبرئيل يبشر الرسول - صلى الله عليه وآله - بالفتح ، و كان من أمر ابن مسعود انه مر في يوم بدر على أبي جهل ينازعالموت فجلس على صدره ليحز رأسه ، فقال له : لقد جلست مجلسا عاليا ، فنهره ابن مسعود قائلا : الاسلام يعلو و لا يعلى عليه ، فلما قطع رأسه أخذ يجره على الارض من ناصيته ، و هكذا تحققت بشارة جبرئيل ، و تؤولت الآية في الدنيا قبل الآخرة.

[19]وفي ختام السورة ينهى القرآن من طاعة أولئك الطغاة الذين استغنوا بما لديهم من مال او معرفة ، لان طاعتهم عصيان لله ، و قد يكون شركا ظاهرا او خفيا ، و هو - بذلك - يحرم الانسان من التقرب الى الله سبحانه.

]كلا لا تطعه و اسجد و اقترب[

و حين يكفر الانسان بطغاة المال و أدعياء العلم بالرغم مما لهم من أغراء و تضليل و إرهاب ، يستعيد استقلاله الذي هو جوهر انسانيته ، و يستعد نفسيا للسجود ، و من خلال السجود للتقرب الى الله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦١٠.

و الآية تهدينا : الى ان السجود معراج البشر الى الله ، فاذا سجدت اقتربت الى الله ، بلى . أليس ذات الانسان فقر و عجز و ذلة ، أوليس يتحسس البشر هذه الحقيقة عند السجود ، عندما يضع ناصيته فوق التراب تذللا ؟ و اذا عرف الانسان حقيقة نفسه رفع حجاب الكبر الذي يفصله عن معرفة ربه ، و استشعر بفيض نوره يغمر فؤاده ، من هنا جاء في الأثر المروي عن النبي - صلى الله عليه وآله - " أقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجدا " (١. (

و روي عن الامام الرضا - عليه السلام - : " اقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ، و ذلك قوله : عز وجل : " و اسجد و اقترب " (٢. (

و قد اوجب فقهاء الاسلام السجدة عند تلاوة هذه الآية ، و اعتبروا سجدة سورة العلق من العزائم الأربع التي يفرض فيها السجود ، و الثلاثة الأخرى " : الم السجدة " و " فصلت " و " النجم. "

و هكذا روي عن الامام أميـر المؤمنين عليه السلام انه قال : " عزائم السجود أربع : " الم " و " حم تنزيل من الرحمن الرحيم " و " النجم " و " إقرأ باسم ربك. "

اما ذكر السجدة فقد روي ان الامام الصادق عليه السلام يقول في سجدة العزائم " : لا إله إلا الله حقا حقا ، لا إله إلا ايمانا و تصديقا ، لا إله إلا الله عبودية و رقا ، سجدت لك يا رب ! تعبدا و رقا ، لا مستنكفا و لا مستكبرا بل أنا عبد ذليل خائف مستجير ، ثم يرفع رأسه و يكبر " (٣. (

(1)المصدر / ص ٦١٢.

(2)المصدر / ص ٦١١.

(3)المصدر.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن سيف بن عميرة عن أبي جعفر - عليه السلام - : " من قرأ إنا أنزلناه في ليلة القدر " فجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله عز وجل ، و من قرأها سرا كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله ، و منقرأها عشر مرات محى الله عنه الف ذنب من ذنوبه. "

- 2و باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ " إنا أنزلنا في ليلة القدر " في فريضة من فرائض الله نادى مناد : يا عبد الله ! غفر الله لك ما مضى فاستأنف العمل. "

- 3في مهج الدعوات لابن طاوس رحمه الله انه قيل للصادق - عليه السلام - : بما احترست من المنصور عند دخولك عليه ؟ فقال : " بالله و بقراءة " إنا أنزلناه " ثم قلت :يا الله يا الله سبعا ، إني أتشفع اليك بمحمد وآله - صلى الله عليه وآله - من ان تقلبه لي ، فمن ابتلى بذلك فليصنع مثل صنعي ، ولولا اننا نقرؤها و نأمر بقراءتها شعيتنا لتخطفهم الناس و لكن هي و الله لهم كهف. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦١٢

الاطار العام

لان الحقيقة واحدة تنبسط فتصبح مفصلات ، و تتركز فتكون هدى و بينات ، فان القرآن قد يبسطها عبر آياته كما في سورة البقرة ، و قد يجملها في سورة قصيرة كما في سورة القدر التي لو تدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.

لقد أنزل الله كتابه في ليلة القدر التي هي عظيمة لا يكاد يحيط العقل بأبعادها ، لانها خير من ألف شهر . لماذا ؟ لانها ميعاد الانسان الصالح مع ملائكة الله و أعظم منهم مع الروح .. و هم حين يهبطون ينزلون بما يقدر الله من كل أمر.

في هذه الليلة التي تتواصل ملائكة الله و الروح مع عباد الله الصالحين في الارض تتجلى رحمة الله و بركاته و مغفرته التي تتمثل في كلمة (السلام) و تستمر الليلة حتى مطلع الفجر.

و هكذا بينت هذه السورة كيف يتم الاتصال بين الانسان و بين ملائكة الله و الروح .. و هذه الصلة التي تتجلى في القرآن كما في الأقدار الحكيمة و البركات هي من أعظم الحقائق القرآنية.

و ما أدراك ما ليلة القدر

بينات من الايات

[1]عندما انهمر فيض الوحي على قلب الرسول - صلى الله عليه وآله - في ليلة القدر في شهر رمضان ، و تنزلت ملائكة الرحمة و الروح بالقرآن ، رسالة السلام ، و بشير الرحمة ، عندئذ خلد الله هذه المناسبة المباركة التي عظمت في السموات و الارض ، و جعلها ليلةمباركة خيرا من ألف شهر.

انها حقا عيد الرحمة ، فمن تعرض لها فقد حظى بأجر عظيم !! فقال الله سبحانه:

]إنا أنزلنا في ليلة القدر [

و كذلك قال ربنا سبحانه " : إنا أنزلنا في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم. (1) "

(1)الدخان / ٣ - ٤.

كذلك نزل القرآن كله على قلب الرسول في تلك الليلة ، ثم نزل بصورة تدريجية طيلة ثلاث و عشرين عاما ، لتأخذ موقعها من النفوس ، و ليكون كتاب تغيير يبني الرسول به أمة و حضارة ، و مستقبلا مشرقا للانسانية.

و كذلك قال ربنا سبحانه " : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " (١. (

و معروف ان القرآن تنزل بصورته المعهودة في أيام السنة جميعا ، فله إذا نزلة أخرى جملة واحدة.

و السؤال : لماذا سميت هذه الليلة بليلة القدر ؟

يبدو ان أهم ما في هذه الليلة المباركة تقدير شؤون الخلائق ، و قد استنبط اللفظ منه ، فهي ليلة الأقدار المقدرة ، كما قال ربنا : " فيها يفرق كل أمر حكيم . "

و قال بعضهم : بل لانها ليلة جليلة القدر ، قد انزل الله فيها كتابا قديرا ، و لان الذي يحييها يكون عند الله ذا قدر عظيم.

[2]من ذا الذي يستطيع ان يدرك أبعاد تلك الليلة التي باركها الله لخلقه بالوحي ، و جعلها زمانا لتقدير شؤون العالمين ، مـــن ذا الذي يدرك عظمة الوحي ، و جلال الملائكة ، و معاني السلام الإلهي . انها ليست فوق الإدراك بصورة مطلقة ، و لكنها فوق استيعاب الانسان لجميع أبعادها ، و على الانسان ألا يتصور انه قد بلغ علم ليلة القدر بمجرد معرفة بعض ابعادها ، بل يسعى و يسعى حتى يبلغ المزيد من معانيها ، وكلما تقدم في معرفتها كلما استطاع الحصول على مغانم أكبر منها.

]وما أدراك ما ليلة القدر[

(1)البقرة / ١٨٥.

سبق القول من البعض : ان هذه الجملة وردت في القرآن لبيان أهمية الحقيقة التي تذكر بعدها.

بينما تترك الحقيقة مجملة إذا ذكرت عبارة و ما يدريك .. هكذا قالوا ، و اعتقد ان كلتا الجملتين تفيدان تعظيم الحقيقة التي تذكر بعدها.

[3]كيف نعرف اهمية الزمان ؟ أليس عندما يختصر المسافة بيننا و بين أهدافنا ، فاذا حصلت في يوم على ميلون دينار ، و كنت تحصل عليه خلال عام أليس هذا اليوم خير لك من عام كامل ؟ كذلك ليلة القدر تهب للانسان الذي يعرف قدرها ما يساوي عمرا مديدا : ثلاثا و ثمانين سنة و أربعة أشهر ، و بتعبير أبلغ : ألف شهر.

]ليلة القدر خير من ألف شهر [

أجل الواحد منا مسمى عند الله و قد يكون قصيرا ، قد لا يبلغ الواحد منا معشار أهدافـــه فيه ، فهل

يمكن تحدي هذا الواقع ؟ بلى . و لكن ليس بالصورة التي يتخيلها الكثير ، حيث يتمنون تطويل عمرهم ، و قليل هم الذين يحققون هذه الأمنية ، لان عوامل الوفاة عديدة و أكثرها خارج عن إرادة الانسان ، فما هو إذا السبيل الى تمديد العمر ؟ انما بتعميقه ، و مدى الانتفاع بكل لحظة لحظة منه ، تصور لو كنت تملك قطعة صغيرة من الارض ، و لا تستطيع توسيعها فكيف تصنع ؟ انك سوف تبني طوابق فيها بعضها تحت الارض و بعضها يضرب في الفضاء و قد تناطح السحب ، كذلك عاش بعض الناس سنين معدودات في الارض و لكنهم صنعوا عبرها ما يعادل قرونا متطاولة ، مثلا عمر رسولنا الكريم - صلى الله عليه وآله - لا يتجاوز الثلاث و الستين ، و أيام دعوته ثلاث و عشرون عاما منها ، ولكنها أبعد أثرا من عمر نوح المديد ، بل من سني الانبياء جميعا و هكذا خص الله أمته بموهبة ليلة القدر ،التي جعلها خيرا من ألف شهر ، ليقدروا على تمديد أعمارهم في البعد الثالث (اي بعد العمق) و لعل الخبر المأثور عن رسول الله (ص) يشير الى ذلك ، فقد روي ان رسول الله - صلى الله عليه وآله و سلم - أري أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمر مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فاعطاه الله تعالى ليلة القدر ، و جعلها خير من ألف شهر . (١)و في حديث آخر : انه ذكر لرسول الله رجل من بني اسرئيل انه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر ، فعجب من ذلك رسول الله عجبا شديدا ، و تمنى ان يكون ذلك في أمته ، فقال : " يارب ! جعلت أمتي أقصر الناس أعمارا ، و أقلها أعمالا ، فأعطاه الله ليلة القدر ، و قال : " ليلة القدر خير من ألف شهر " الذي حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولأمتك من بعدك الى يوم القيامة في كل رمضان " (٢. (

انك قد تحيي ليلة القدر بالطاعة فيكتب الله اسمك في السعداء ، و يحرم جسدك على نار جهنم أبدا ، وذلك بما يوفقك له من إصلاح الذات إصلاحا شاملا ، من هنا جاء في الدعاء المأثور في ليالي شهر رمضان مجموعة من البصائر التي تتحول بتكرار تلاوتها الى أهداف و تطلعات يسعى نحوها المؤمن بجد و مثابرة ، و يجتهد في طلبها من ربه.

"اللهم اعطني السعة في الرزق ، و الأمن في الوطن ، و قرة العين في الأهل و المال و الولد ، و المقام في نعمك عندي و الصحة في الجسم ، و القوة في البدن ، و السلامة في الدين ، و استعملني بطاعتك و طاعة رسولك محمد - صلى الله عليه و آله - أبدا ما استعمرتني ، و اجعلني من أوفر عبادك عندك نصيبا

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 133

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦١٥.

في كل خير أنزلته و تنزله في شهر رمضان في ليلة القدر " (١)و هكذا ينبغي ان يكون هدفك في ليلة القدر تحقيق تحول جذري في نفسك ، تحاسب نفسك بل تحاكمها أمام قاضي العقل ، و تسجل ثغراتها السابقة ، و انحرافاتها الراهنة ، و تعقد العزم على تجاوز كل ذلك بالندم من إرتكاب الأخطاء ، و العزم على تركها و الالتجاء الى الله ليغفر لك ما مضى و يوفقك فيما يأتي.

و قد جاء في تأويل هذه الآية : انها نزلت في دولة الرسول التي كانت خير من دول الظالميـن من بني أمية ، حيث نقل الترمذي عن الحسن بن علي عليهما السلام : " ان رسـول الله - صلى الله عليه وآله - أري بني أمية على منبره فساءه ذلك ، فنزلت " إنا أعطيناك الكوثر " يعني نهرا في الجنة ، و نزلت " إنا أنزلنا في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر " يملكها بعدك بنو أمية " (٢) وكانت حكومة بني أمية ألف شهر لا تزيد و لا تنقص.

و هكذا فضيلة حكومة العدل و أثرها العظيم في مستقبل البشرية أكثر من ألف شهر من حكومة الجور.

[4]لماذا أمست ليلة القدر خيرا من ألف شهر ؟ لانها ملتقى أهل السماء بأهل الارض ، حيث يجددون ذكرى الوحي ، و يستعرضون ما قدر الله للناس في كل أمر.

]تنزل الملآئكة[

و الكلمة أصلها تتنزل ، و صيغتها مضارع تدل على الاستمرار ، فنستوحي منها:

(1)كلمات من دعاء ابي حمزة الثمالي الماثور لاسحار شهر رمضان / انظر مفاتيح الجنان - ص ١٩٦.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 133

ان ليلــة القدر لم تكن ليلة واحدة في الدهر ، و انما هي في كل عام مرة واحدة ، و لذلك أمرنا النبي - صلى الله عليه وآله - بأحيائها.

فقد جاء في الأثر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - انه لما حضر شهر رمضان - و ذلك في ثلاث بقين من شعبان - قال لبلال : " ناد في الناس " فجمع الناس ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله و أثنى عليه ، ثم قال : " أيها الناس ؟ ان هذا الشهر قدخصكم الله به ، و حضركم ، وهو سيد الشهور ، ليلة فيه خير من ألف شهر " (١)و روي عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام انه قال لابن العباس " :ان ليلة القدر في كل سنة و انه ينزل في تلك الليلة أمر السنة ، و لذلك الأمر ولاه بعد رسول الله " فقال ابن عباس من هم ؟ قال (عليه السلام " (أنا و أحد عشر من صلبي " (٢. (

]و الروح[

ما هو الروح ؟ هل هو جبرائيل - عليه السلام - أم هم أشراف الملائكة ؟ أم هم صنف أعلى منهم وهم من خلق الله ، أم هو ملك عظيم يؤيد به أنبياءه ؟

استفاد بعضهم من الآية التالية : ان الروح هو جبرئيل - عليه السلام - حيث قال " نزل به الروح الأمين " (٣)و استظهر البعض من الآية التالية : ان الروح هي الوحي ، فان الملائكة يهبطون(١) نور الثقلين / ج ٥ ص ٦١٨.

(2)المصدر / ص ٦١٩.

(3)الشعراء / ١٩٣.

في ليلة القدر به قال الله تعالى : " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " (١)و جاء في حديث شريف ما يدل على ان الروح أعظم من الملائكة ، فقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه سئل هل الروح جبرئيل (ع) ؟ فقال " : جبرئيل من الملائكة ، و الروح أعظم من الملائكة ، أليس ان الله عز وجل يقول : "تنزل الملائكة و الروح " (٢(

و قد قال ربنا سبحانه " : و أيده بروح منه " مما يدل على ان الروح هو ما يؤيد الله به أنبياءه.

و يبدو ان الروح خلق نوراني عظيم الشأن عند الله ، و ان الله ليس يؤيد انبياءه - عليهم السلام - به فقط ، وإنما حتى الملائكة و منهم جبرائيل يؤيدهم به ، و بهذا نجمع بين مختلف الاحتمالات و الأدلة ، و الله العالم.

]فيها بإذن ربهم[

عظيمة تلك الليلة التي تتنزل الملائكة فيها ، و عظيمة لان الأعظم منهم هو الروح يتنزل ايضا ، و لكن لا ينبغي ان نتوجه الى عظمة الروح بعيدا عن عظمة الخالق سبحانه ، فانهم عباد مكرمون ، مخلوقون مربوبون ، و ليسوا أبدا بأنصاف آلهة ، و ليس لهم من الأمر اي شيء و لذلك فان تنزلهم ليس باختيارهم و انما بإذن ربهم.

]من كل أمر[

قالوا : معناه لأجل كل أمر ، او بكل أمر ، فالملائكة - حسب هذا التفسير - يأتون لتقدير كل أمر ، و لكن أليس الله قد قدر لكل أمر منذ خلق اللوح و أجرى عليه(١) الشورى / ٥٢ .

(2)تفسير نمونه / ج ٢٦ -ص ١٨٤ نقلا عن تفسير البرهان / ج ٤ - ص ٤١٨.

القلم ؟ بلى . إذا فما الذي يتنزل به الملائكة في ليلة القدر ؟ يبدو ان التقديرات الحكيمة قد تمت في شؤون الخلق ، و لكن بقيت أمور لم تحسم و هي تقدر في كل ليلة قدر لأيــام عام واحد ، فيكون التقدير خاصا ببعض جوانب الأمور ، و ليس كل جوانبها ، بلى . تشمل التقديرات جميع الأمور ، و لكن من كل أمر جانبا ، و هكذا يكون حرف " من " للتبعيض وهو معناه الأصلي ، وهو ايضا ما يستفاد من النصوص المأثورة في هذا الحقل:

سأل سليمان المروزي الامام الرضا - عليه السلام - و قال : ألا تخبرني عن " إنا أنزلناه في ليلة القدر " في اي شيء نزلت ، قال : " يا سليمان ! ليلة القدر يقدر الله عز وجل فيها ما يكون من السنة الى السنة ، من حياة أو موت ، أو خير أو شر أورزق ، فما قدره الله في تلك الليلة فهو من المحتوم " (١)و هكذا تختلف بصائر الوحي عن تصورات البشر ، فبينما يزعم الانسان انه مجبور لا اثر لمشيئته في حياته يعطيه الوحي قيمة سامية ، حيث يجعله قادرا على تغيير مجمل حياته : من سعادة و شقاء ، و خير و شر ، و نفع و ضر ، كل ذلك بإذن الله ، و عبر الدعاء الى الله في ليلة القدر.

ان البشرية في ضلال بعيد عن حقيقة المشيئة ، فهم بين من ظن انه صاحب القرار ، و قد فوض الله الأمور اليه تفويضا مطلقا ، فلا ثواب و لا عقاب و لا مسؤولية و لا أخلاق ، و بين من زعم انه مضطر تسوقه الأقدار بلا حرية منه و لا اختيار.

و لكن الحق هو أمر بين أمرين : فلا جبر لاننا نعلم يقينا ان قرارنا يؤثر في حياتنا ، أولست تأكل و تشرب و تروح و تأتي حسب مشيئتك و قرارك ؟ و كذلك لا تفويض لان هناك أشياء كثيرة لا صنع لنا فيها : كيف ولدت ، و أين تموت ،(١ (نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٣٠.

وماذا تفعل غدا ، و كم حال القضاء بينك و بين ما كنت تتمناه ، و كم حجزك القدر عن خططك التي عقدت العزمات على تطبيقها ؟

بلى .ان الله منح الانسان قدرا من المشيئة لكي يكون مصيره بيده ، إما الى الجنة و إما الى النار ، و لكن ذلك لا يعني انه سيــدخل الجنة بقوته الذاتية أو النار بأقدامه ، و انما الله سبحانه هو الذي يدخله الجنة بأفعاله الصالحة ، أو يدخله النار بأفعاله الطالحة.

إذا الانسان يختار ، و لكن الله سبحانه هو الذي يحقق ما أختاره من سعادة و شقاء ، و ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وها هنا تتركز أهمية الدعاء و بالذات في ليلة القدر التي هي ربيع الدعاء ، وقد تتغير حياة الانسان في تلك الليلة تماما ، فكم يكون الانسان محروما و شقيا إن مرت عليه هذه الليلة دون أن يستفيد منها شيئا.

و يتساءل البعض : أليس هذا يعني الجبر بذاته ؟ فاذا كانت ليلة تحدد مصير الانسان فلماذا العزم و السعي و الإجتهاد في سائر أيام السنة ؟!

كــلا .. ليس هذا من الجبر في شيء ، و نعرف ذلك جيدا إذا وعينــا البصائر التالية:

البصيرة الأولى : يبدو أن التقدير في هذه الليلة لا يطال كل جوانب الحياة ، فهناك ثلاثة أنواع من القضايا : نوع قدر في ليلة واحدة في تاريخ الكون ، فقد روي عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - قال : "

قال رسول الله - صلى الله عليه و آله وسلم -: أتدري ما معنى ليلة القدر ؟ فقلت : لا يا رسول الله ! فقال : ان الله تبارك و تعالى قدر فيها ما هو كائن الى يوم القيامة ، فكان فيماقدر - عز وجل - ولايتك و ولاية الأئمة من ولدك الى يوم القيامة (1) "و النوع الثاني : تقديرات تتـــم فـي السنة التي يعيشها الانسان ، بينما النوع الثالث : تبقى مفتوحة تخضع لمشيئة الانسان و هي الفتنة ، مثلا :ان الله يقدر للانسان في ليلة القدر الثروة ، أما كيف يتعامل الانسان مع الثروة هل ينفق منها أم يبخل بها و يطغى، فان ذلك يخضع لمشيئة الانسان و به يتم الابتلاء ، كذلك يقدر الله للانسان المرض أما صبر المريض أو جزعه فانه يتصل بإرادته.

و مع ذلك فان لله البداء ، اذ لا شيء يحتم على ربنا سبحانه ، و قد قال سبحانه : " يمحوا الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب " (٢) وقد جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال " : إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة و الروح و الكتبة الى السماء الدنيا ، فيكتبون ما يكون من قضاء الله في تلك السنة ، فاذا أراد الله ان يقدم شيئـا او يؤخره ، او ينقص أمر الملك ان يمحو ما شاء ، ثم أثبت الذي أراد " قلت : و كل شـــيء هـــو عنـده و مثبت في كتاب ؟ قال : " نعم " قلت فأي شـــيء يكـون بعده ؟ قال : " سبحان الله ! ثم يحدث الله ايضا ما يشاء تبارك و تعالى " (٣. (

هكذا تبقـــى كلمة الله هي العليا ، و مشيئته هي النافذة ، و لكن الاتكال على البداء ، و تفويت فرصة ليلة القدر نوع من السذاجة ، بل من السفه و الخسران.

البصيرة الثانية : ان الله يقدر لعباده تبعا لحكمته البالغة و لقضائه العدل ، فلا يقضي لمؤمن صالح متبتل ما يقدر لكافر طالح ، و ما ربك بظلام للعبيد . و هكذا(١ (المصدر / ص ٦٢٩.

(2)الرعد / ٣٩.

(3)تفسير نور الثقلين /ج ٥ - ص ٦٣١.

يؤثر الانسان في مصير نفسه بما فعله خلال العام الماضي ، و ما يفعله عند التقدير في ليلة القدر ، و ما يعلمه الله من سوء إختياره خلال السنة ، مثلا : يقدر الله لطاغوت يعلم ان لا يتوب بالعذاب في هذه السنة لانه سوف يظلم الناس خلالها ، ولو افترضنا انه وفق للتوبة و لم يظلم الناس خلالها ، فان لله البداء في أمره ، و يمحو عنه السقوط و يمد في ملكه ، و قد قال ربنا سبحانه : " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم(1) " البصيرة الثالثة : ان الناس يزعمون ان هناك احداثا تجري عليهم ، لا صنع لهم فيها كموت عزيز ، و الاصابة بمرض عضال ، و الابتلاء بسلطان جائر ، او بالتخلف ، او بالجفاف ، و لكن ألامر ليس كذلك إذ ان حتى هذه الظواهر التي تبدو انها خارج إطار مشيئة الانسان انما تقع بإذن الله و تقديره و قضائه ، و ان الله لا يقضي بشيء إلا حسبما تقتضيه حكمته و عدالته ، و من عدله ان يكون قضاؤه و تقديره حسب ما يكسبه العباد ، أولم يقل ربنا سبحانه : " ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس " (٢)وان في ذلك لكرامة بالغة لمشيئة الانسان ان يجعل الله تقديره وفق قرار ما ، أليس كذلك.

[5]السلام كلمة مضيئة تغمر الفؤاد نورا و بهجة ، لانها تتسع لما تصبو اليه النفس ، و تتطلع نحوه الروح ، و يبتغيه العقل ، فلا يكون الانسان في سلام عندما يشكو من نقص في أعضاء بدنة ، أو شروط معيشته ، أو تطلعات روحه ، فهل للمريض سلام ، أم للمسكين عافية، أم للحسود أمن ؟ كلا .. انما السلام يتحقق

(1)الرعد / ١١.

(2)الروم / ٤١.

بتوافر الكثير الكثير من نعم الله التي لو افتقرنا الى واحدة منها فقدنا السلام . أولم تعلم كم مليون نعمة

تتزاحم على بدنك حتى يكون في عافية ، و كم مليون نعمة تحيط بمجمل حياتك و تشكلان معا سلامتها ، و ليلة القدر ليلة السلام ، حيث يقول ربنا سبحانه:

]سلام هي حتى مطلع الفجر[

حينما تنسب هذه الموهبة الإلهية الى الزمن نعرف انها تستوعبه حتى لتكاد تفيض منه ، فالليل السلام كل لحظاته سلام لكل الانام ، كما اليوم السعيد كله هناء و فلاح ، بينما اليوم النحس تتفجر النحوسة من أطرافه.

فماذا يجري في ليلة القدر حتى تصبح سلاما الى مطع الفجر ؟

لا ريب ان اللــه سبحانه يغفر في تلك الليلـــة لفئـام من المستغفرين ، و ينقذهم - بذلك - من نار جهنم ، وأي سلام أعظم من سلامة الانسان من عواقب ذنوبه في الدنيا و الآخرة.

من هنا يجتهد المؤمنون في هذه الليلة لبلوغ هذه الأمنية و هي العتق من نار جهنم ، و يقولون بعد ان ينشروا المصحف أمامهم : " اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه ، و فيه إسمك الأكبر ، و أسماؤك الحسنى و ما يخاف و يرجى ان تجعلني من عتقائك من النار(1) "

كذلك يقدر للانسان العافية فيها ، و اتمام نعم الله عليه ، و قـد سأل أحدهم النبي - صلى الله عليه و آلــه - : أي شيء يطلبه من الله في هذه الليلة فأجابه - حسب الرواية - " العافية " (٢)(١) مفاتيح الجنان / ص ٢٢٥.

(2)المصدر / ص ٢٢٦.

و قد تدخل على فرد هذه الليلة وهو من الأشقياء فيخرج منها سعيدا ، أوليست الليلة سلاما ؟ من هنا ينبغي للانسان ان يدعو فيها بهذه الكلمات الشريفة:

"اللهم امدد لي في عمري ، و أوسع لي في رزقي ، و أصح لي جسمي ، و بلغني أملي ، وإن كنت من الأشقياء فامحني من الأشقياء ، و اكتبني من السعداء ، فانك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل - صلواتك عليه وآله - : " يمحو الله ما يشاء و يثبت و عندهأم الكتاب " (١(

وفي هذه الليلة يقدر الله الرزق لعباده ، وهو جزء من السلام و الأمن ، وعلى الانسان ان يطلب منه سبحانه التوسعة في رزقه.

كما يقدر الأمن و العافية و الصحة و الذرية و كلها من شروط السلام.

حقا ..ان المحروم هو الذي يحرم خيرها كما جاء في حديث مأثور عن فاطمة الزهراء -عليها السلام - انها كانت تأمر أهلها بالإستعداد ، لاستقبال ليلة ثلاث و عشرين من شهر رمضان المبارك بـأن يناموا فـي النهار لئـلا يغلب عليهم النعاس ليلا و تقــول : "محروم من حرم خيرها " (٢(

و قال البعض : ان معنى السلام في هذه الآية : ان الملائكة يسلمون فيها على المؤمنين و المتهجدين في المساجد ، و ان بعضهم يسلم على البعض ، و قيل : لانهم يسلمون على إمام العصر - عليه السلام - وهم يهبطون عليه.

ليلة القدر متى هي ؟

إذا كان القرآن قـد نزل في شهر رمضان وفي ليلة القدر حسب آيتين في القرآن ،(١) المصدر/ ص ٢٢٥.

(2)المصدر / ص ٢٢٦.

فان ليلة القدر تقع في هذا الشهر الكريم ، و لكـن متى ؟ جـاء فـي بعـض الاحـاديث : " إلتمسوها في العشر الأواخر " (١)و روى عن الامام الباقر - عليه السلام - انه قال في تفسير " إنا أنزلناه في ليلة مباركة " قال " " نعم . ليلة القدر و هي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر ، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر " (٢)و جاء في حديث آخر تحديد واحدة من ليلتين : احدى و عشرين و ثلاث و عشرين ، فقـد روى ابـو حمزة الثمالي ، قال : كنت عند أبـي عبـد اللـه الامـام الصادق - عليه السلام - فقال له أبو بصير : جعلت فداك ! الليلة التي يرجـى فيها ما يرجى ؟ فقال : " فـي إحدى و عشرين أو ثلاث و عشرين " قال : فان لم أقو على كلتيهما ؟ فقال " : ما ايسر ليلتين فيما تطلب ؟ " قلت فربما رأينا الهلال عندنا و جاءنا من يخبرنا بخلاف ذلك من أرض أخرى ؟ قال : " ما أيسر أربع ليال تطلبها فيها ؟ "قلت : جعلت فداك ! ليلة ثلاث و عشرين ليلة الجهني ؟ (٣) فقال : " ان ذلك ليقال " ثم قال : " فاطلبها في ليلة إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين ، و صل في كل واحدة منهما مائة ركعـة ، و أحيهما - ان استطعت - الى النور ، و اغتسل فيهما " قال قلت : فان لمأقدر على ذلك و أنا قائـم ، قال : " فصل و أنت جالس " قال : قلت فان لم استطع ، قال : " فعلى فراشك ، و لا عليك ان تكحل اول الليل بشيء من النوم ، ان أبواب السماء تفتح في رمضان ، و تصفد الشياطين ، و تقبـل أعمال المؤمنين ، نعم الشهر رمضانكان يسمى على عهد رسوله الله : المرزوق " (٤. (

(1)حسب رواية عن رسول الله (ص) تفسير نور الثقلين ج ٥ - ص ٦٢٩.

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٢٥.

(3)سوف نذكره انشاء الله.

(4)المصدر / ص ٦٢٥.

و قد استفاضت أحاديث النبي و أهل بيته في إحياء هاتين الليلتين ، إلا أن حديثا يروي عن رسول الله يحدده في ليلة ثلاث و عشرين ، حيث يرجى أن تكون هي ليلة القدر حيث قال عبد الله بن أنيس الانصاري المعروف بالجهني لرسول الله - صلى الله عليه وآله - : أن منزلي ناء عن المدينة فمرني بليلة أدخل فيها فأمره بليلة ثلاث و عشرين . (١)و يبدو من بعض الاحاديث : ان ليلة القدر الحقيقية هي ليلة ثلاث و عشرين بينما ليلة التاسع عشر و واحد و عشرين هما وسيلتان اليها ، من وفق للعبادة فيهما نشط في الثالة ، و كان أقرب الى رحمة الله فيها.

هكذا روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال لمن سأله عن ليلة القدر : " أطلبها في تسع عشر و إحدى و عشرين ، و ثلاث و عشرين " (٢)وجاء في حديث آخر : ان لكل ليلة من هذه الثلاث فضيلة و قدرا ، فقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال " :التقدير في ليلة القدر تسعة عشر ، و الإبرام في ليلة إحدى و عشرين ، و الإمضاء في ليلة ثلاث و عشرين " (٣)و جاء في علامات ليلة القدر : " ان تطيب ريحها ، و ان كانت في برد دفئت ، و ان كانت في حربردت فطابت " (٤)وعن النبي - صلى الله عليه وآله - : انها ليلة سمحة ، لا حارة و لا باردة ، تطلع الشمس في صبيحتها ليس لها شعاع " (٥. (

نسأل الله ان يوفقنا لهذه الليلة الكريمة و يقدر لنا السعادة فيها.

(1)تفسير نور الثقلين /ج ٥ - ص ٦٢٦.

(2)المصدر / ص ٦٢٨.

(3)المصدر / ص ٦٢٧.

(4)المصدر / ٦٢٣.

(5)المصدر.

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة " لم يكن الذين "كان بريئا من الشرك ، و أدخل في دين محمد - صلى الله عليه وآله - و بعثه الله - عز وجل - مؤمنا ، و حاسبه حسابا يسيرا "و عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : قال " لو يعلم الناس ما في " لم يكن الذين كفروا " لعطلوا الأهل و المال و تعلموها " فقال رجلمن خزاعة : ما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ قال : " لا يقرأها منافق أبدا ، و لا عبد في قلبه شك في الله عز وجل ، و الله ان الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق الله السموات و الارض لا يفترون من قراءتها ، وما من عبد يقرأها بليل إلا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه و دنياه ، و يدعون له بالمغفرة و الرحمة ، فان قرأها نهارا أعطي عليها من الثواب مثل ما أضاء عليها النهار ، و أظلم عليه الليل. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٤٢

الاطار العام

كلا ..لن يقدر الانسان الخروج من نفق الضلال بغير هدى من الله (البتة) ، و لا يكره الله الناس على اتباع البينة حينما تأتيهم ، فترى بعضهم يهتدون بها ، و أكثرهم يضلون عنها بأهوائهم و هكذا اختلفوا.

كلا .. ليست خلافاتهم في البينة ، لان البينة قد أمرتهم بعبادة الله وحده بعيدا عن اي خلاف.

حول هذه المحاور الثلاث جاءت آيات سورة البينة التي خصت بصائر كثيرة فصلت في الكتاب الكريم ، واوضحت كذلك صفات البينة : انها تتمثل في رسول يحمل من الله كتابا طاهرا من أي زيف أو باطل ، وهو يدعو الى توحيد الله الخالص من أي شائبة مادية.

وهذا الخلاف الذي انتشر بينهم يرجع الى القرآن ، وهو يحكم بأن شر البرية الذي يكفر برسالات الله ، سواء كان من أهل الكتاب او من المشركين ، وان خيرالبرية هم المؤمنون الذين يجزيهم الله بجنات عدن ، و يرضى عنهم ، و يرزقهم الرضا عنه ، كل ذلك لخشيتهم من الله.

أولئك هم خير البرية

بينات من الآيات

[1]لقد أنعم الله على الانسان بالعقل ، و فطر نفسه على الايمان ، بيد انه ينفلت عن ظلال وغي ، و لا يكفيه ما لديه من فطرة و عقل ، بل يحتاج الى تذكرة الوحي و دعوة الرسول ، و أنى له ذلك و هو يتعرض لتيار عنيف من شهوا ت نفسه ، و وساوس شيطانه ، و تضليل أدعياء الدين ، و قمع أولي السلطة و الثروة . ألا ترى كيف لا يؤمن إلا نفر قليل بالرغم من ان الله ينزل الوحي ، و يدعوهم اليه داعي الفلاح ، و يخوض الرسول و المؤمنون صراعا شاملا في سبيل الدعوة.

]لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين حتى تأتيهم البينة]ويبدو ان الآية هذه التي صعبت على فهم بعض المفسرين حتى اعتبرها أعتد آية ، انما تذكرنا و بعبارات بسيطة و بينة بضرورة الرسالة الإلهية ، فمن دون رسالةالاسلام هل كان من الممكن إزالة تلك الحجب الكثيفة التي تراكمت عبر عصور الظلمات فوق بعضها ، و منعت إنارة العقل و هدى الفطرة ، و حرفت تعاليم الدين ، و مسخت

شخصية الانسان.

كلا ..لان الفساد كان قد أطبق على البشرية ، فلم يعد أحد بقادر على مقاومته بسهولة ، فبعث الله النبي برسالة طاهرة من دنس ضلالاتهم و خبث ثقافتهم.

[2]لقد تنازع خطان قيادة الانسان عبر العصور : خط الوحي المتمثل في انبياء الله - عليهم السلام - و المؤمنون بهم ، و خط الجاهلية المتمثلة في الطغاة و المترفين ، و ثقافة الخـط الأول كانت نابعة من الوحي ، بينما ثقافة الجاهلية قائمة على أساس الضلالة.

و كلما انحسر الوحي أو ضعف دعاته استشرت الجاهلية ، و كانت المشكلة العاتية عندما يستسلم المؤمنون بالوحي تحت ضغط الجاهلية ، كما حدث قبيل بعثة النبي اذ لم يعد اتباع آخر الانبياء عيسى - عليه السلام - يشكلون قوة تذكر ، لا بسبب قلة عددهم بل لانهم بايعواالقياصرة في حقل السلطة ، و اتبعوا الفلاسفة في الحقل الثقافي ، و داهنوا المترفين و المستكبرين في المجتمع ، و لم يبق من الدين عندهم إلا طقوس فارغة ، فبدل ان يناهضوا سلطات الجور ، و يدافعوا عن المظلومين و المحرومين التهوا بمحاربة بعضهم ، و خلق عداوات جانبية بين مذهب و مذهب ، حقا .. أصبحوا كما كانت اليهود من قبل و تفشى فيهم ذات الاخلاق الفاسدة التي بعث عيسى بن مريم - عليه السلام - لإصلاحها ، و كذلك في حقل الثقافة فلم يدافعوا عن قيم الوحي في مقابل مفاهيم الفلسفة الضالة ، بل تراهم يلهثـون وراء التوفيقبينهما ، حتى و لو كان ذلك على حساب صفاء الوحي و نقائه . أرأيت كيف ذهبوا الى فكرة التثليث اتباعا للافلاطونية الجديدة ، و من هنا أصبحت الرسالة الإلهية أشد ضرورةمن اي وقت مضى ، ليس فقط لإصلاح البشرية من الفساد العريض الذي أحاط بها ، و انمـا ايضـا لتطهير الرسالة مما لحق بها من زيغ و انحراف على أيدي أهل الكتاب الكافرين ، و لإضاءة تلك المشاعل التي انطفأت او كادت بسبب عصف الشهوات العاتية ، فلم تعد تنير طريق السالكين ، و لكي يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

و هكذا بعث الله رسوله الخاتم بصحف طاهرة من دنس الإنحرافات الثقافية التي حرفت الديانات ، و طاهرة من تأثير الحكام الظلمة و المترفين الأشقياء.

]رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة[

و هكذا تتم البينة بالرسالة و الرسول معا ، إذ الرسول يدعو اليها بحكمة ، و يمثلها في سلوكه لتتجلى للناس روعتها ، و يدافع عنها بصبر و استقامة ، ثم ان الرسالة التي يحلمها مطهرة من شوائب الزيغ و الانحراف ، فتتقبلها الفطرة السليمة ، و العقل الرشيد.

[3]ماذا نقرأ في تلك الأوراق الطاهرة ؟ نقرأ كتبا أحكمت آياتها و فصلت ، لا تجد فيها عوجا و لا زيغا.

]فيها كتب قيمة[

يبدو ان معناها : الحقائق المكتوبة التي لا شبهة فيها و ريب ، و هي واضحة لا لبس فيها و لا غموض ، مستقيمة لا زيغ فيها و لا تحريف ، و على هذا فالكلمة أشارت الى الآيات المحكمة التي هي تكفي الانسان هدى و نورا ، و التي اليها يرجع ما تشابه من آيات الذكر بسبب تساميها عن مستوى كل الناس ، و تخصصها بالراسخين في العلم منهم فقط.

[4]و لعل البعض يتشابه عليه الأمر ، فيظن ان تفرق أهل الكتاب و اختلافهم في الدين كان من نقص في الحجة ، فاذا تمت الحجة و اكتملت البينة فلا أحد يختلف مستقبلا في الدين ، كلا ..ان الكتاب يوفر للناس فرصة الهداية ، و لكنه لا يفرضها عليهم فرضا ، فان آمنوا به فقد اهتدوا ، و إلا فهم المسؤولون عن ظلالهم و شقائهم.

]وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة]يبدو ان أشد الضلال عند أهل الكتاب تفرقهم ، أليس الايمان بالله و رسله و شرائعه يوحد أهله في إطار الغايات التي يرسمها ، و المناهج التي يفرضها ، و السلوك الذي يوصي به ؟

لقد تفرق اليهود الى اثنين و سبعين فرقة ، أبرزهم طوائف الصدوقيين و الفريسيين ، و الآسيين ، و الغلاة ، و السامريين ، و كان لكل فرقة منهم ميزاتهم في الفكر و السلوك (١. (

و بذات العدد تفرق النصارى و كان أبرز طائفتين منهم (الملكانية) الذين ذهبوا الى عقيدة ازدواج الطبيعة عند السيد المسيح - عليه السلام - و (المنوفوسية (الذين زعموا ان طبيعته واحدة هي الألوهية ، و حاول الامبرطور الروماني 641 / 610) م) ان يجمع مذاهب الدولة بالمنع عن الخوض في القضايا الكلامية ، الا ان القبط في مصر نابذوه العداء ، و وقع - جرا ء ذلك - اضطهاد فظيع على يد قيصر مصر استمر عشر سنين ، فكانوا يعذبون الرجال ثم يقتلونهم غرقا ، و توقد المشاعل على الضحايا حتى يسيل دهنهم ، و قد يوضع الضحية في كيس رمل و يلقى حيا في البحر (٢. (

(1)في ظلال القران / ص . 3950

(2)المصدر / ٣٩٥١.

و اختلاف الأمم بعد رسل الله و تمام الحجة عليهم دليل على مدى حاجة البشر الى الوحي ، حيث تراهم يختلفون حتى بعد تنزل الوحي بينهم ، و بمجرد ان يخبو ضوءه عنهم ، فكيف بهم إذا حرموه رأسا ؟!

[5]من أين يشجر الخلاف بين البشر ؟ من الشرك بالله ، حيث يقدس كل حزب شيئا لم يأذن الله به ، فتختلف المقدسات ، و تتفاوت القيم ، و يقع الخلاف ، بينما إذا كانوا جميعا يرجعون إلى تلك البصائر التي جاء بها الوحي ولم يقدسوا مصلحة أو أرضا أو عشيرة أو أشخاصا من دون الله إذا توحدت كلمتهم ، و صلحت أمورهم.

]وما أمروا إلا ليعبدوا الله[

دون الأنداد و الشركاء الموهومين ، ولا تتم العبادة إلا بالتسليم لله وحده ، و نبذ الخضوع لأية قيمة أو سلطة من دونه.

]مخلصين له الدين حنفآء[

يبدو أن معنى الدين هو : ما يخضع له الإنسان من تلقاء نفسه من شريعة أو نظام ، و خلوصه رفض ازدواجية الولاء بين الله و الرسل و الأولياء ، و بين سائر السلطات المادية ، و هذا مالم يستقم عليه أهل الكتاب ، إذ تراهم ابتدعوا الكلمة الشائعة : ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، و من اتبع هوى قيصر كيف يخلص دينه لله ؟!

وقد سبق منا اختيار معنى الطهر لكلمة الحنيف ، فلماذا تأتي الكلمة بعد بيان الإخلاص في الدين ؟ لعل التوحيد درجات : أولها الشهادة به لسانا ، و عقد القلب به مجملا ، و ثانيتها : رفض الأنداد ، و مواجهتهم ، و التمرد ضد سلطانهم ، و الثالثة : تطهير القلب منحبهم أو الميل إليهم ، و تطهير الفكر من رواسب ثقافتهم ، و تطهير السلوكمن آدابهم و أخلاقهم . و هذه درجة الحنيفية و الله العالم ، و من أبعادها الإلتزام بشرائع الله : من اقامة الصلاة على وجهها ، الى الخضوع فيها و تعاهدها دائما ، وكذلك إيتاء الزكاة.

]و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة و ذلك دين القيمة]قالوا : دين الكتب القيمة ، بدلالة قوله : آنفا : " فيها كتب قيمة " بلى . انها كتب لا عوج فيها و لا تعقيد ، و لا تفاوت و لا اختلاف . ولا نشوز عن فطرة البشر

او حقائق الخلق.

[6]لا يجوز الاختلاف بين اتباع دين واحد ، كما لا يمكن توحيد دين الحق و مذهب الباطل ، بل لا بد ان يبقى الخلاف ماثلا بين الحق و الباطل وهو أساس توحيد الله ، و حينما ينماث الخلاف بينهما هنالك يغلب الباطل و يهزم أهل الحق ، و هكذا يذكرنا السياق هنا بأنالكفار هم شر البرية.

]ان الذين كفروا من أهل الكتاب في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية]لقد زعم بعض أحبار النصارى الأسبقون انهم يخدمون دين الله لو أدخلوا فيه بعض التعديلات ، و استخدموا كلمات الفلسفة لبيان مقاصده ، حتى استقرضوا من الثقافات الشركية بعض مفاهيمها و ألفوها مع حقائق الوحي ، ثم داهنوا القياصرة و المترفين فتنازلوا لهم عن الدنيا ليسمحوا لهم بممارسة طقوسهم الدينية الفارغة.

كلا .. ان المشركين هم شر البرية ، و من كفر من أهل الكتاب بقيم الدينالحق و داهن المشركيـــن فهو مثلهم تماما شر البرية ، و في ذلك انذار بالغ الوضوح لنا - نحن المؤمنين بالقرآن - الا نحذو حذو علماء اليهود و النصارى فنهادن الطغاة ، و نصانع المستكبرين طمعا في اعترافهم ببعض الدين.

و شر البرية تعبير بالغ الحدة لانه يعني انهم أضل سبيلا من كل ما خلق الله و برأه ، ولكن لماذا ؟ لانهم رفضوا الحق بعد البينة ، و كفروا بأعظم رسول ، الذي جاء بأفصح حجة و أبلغ إنذار.

[7]و حتى لو كانوا مستضعفين في الارض يأوون الى رؤوس الجبال ، و غور كهوفها ، و يسيحون في الارض فرارا بدينهم ، فان المؤمنين هم خير البرية.

]ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك هم خير البرية]لانهم آمنوا بأفضل نبي ، و اتبعوا أكمل منهج ، و اهتدوا بأبلج نور.

لقد خلق الله كل شيء في الارض للانسان ، و لكن اي انسان ، هل الذي يغتال كرامة نفسه ، و يدسها في وحل الجهل و الغرور ؟ كلا ..انه لا يساوي عند الله شيئا ، بل الذين يؤمن بالله و رسالاته ، و يعمل صالحا ، فيصبح أكرم خلق الله جميعا.

و جاء في الأثر في تأويل هذه الآية عن ابن عباس : لما نزلت قال النبي - صلى الله عليه وآله - لعلي (عليه السلام) : " هو أنت و شيعتك ، تأتي أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ، و يأتي عدوك عقبانا مقمحين " (١. (

و ذكر الدر المنثور للسيوطي طائفة من الأحاديث المماثلة نذكر منها ما يلي:

(1)شواهد التنزيل / ج - 2ص ٣٥٧ عن تفسير نمونه / ج ٢٧ - ص ٢١١.

- 1أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ، قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وآله - فأقبل علي ، فقال النبي - صلى الله عليه وآله - : " و الذي نفسي بيده ان هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة " و نزلت : " ان الذين آمنوا و عملواالصالحات أولئك خير البرية ، فكان أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله - إذا أقبل علي قالوا : جاء خير البرية.

- 2و أخرج ابن عدوي و ابن عساكر ، عن ابي سعيد مرفوعا : علي خير البرية.

- 3و أخرج ابن عدي عن ابن عباس : لما نزلت " الآيـــة " قـــال رســـول الله - صلى الله عليه وآله - لعلي : " هو أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين. "

- 4و أخرج ابن مردوية ، عن علي ، قال : " قال لي رسول الله - صلى الله عليه وآله - : ألم تسمع قول الله : " ان الذين آمنوا و علموا الصالحات أولئك هم خير البرية " أنت و شيعتك ، و موعدي و موعدكم

الحوض ، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرا محجلين " (١. (

[8]ما هو المقياس لخير البرية ، هل كثرة الأموال و الأنصار ؟ كلا .. بل رضوان الله و الجنة ، اما الثـروات و الأولاد فانها فتنة و ابتلاء يقدرهما الله للناس جميعا.

]جزآؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا]أليس قد صلحت طينتهم فأصبحوا أهل الجنة دائمين فيها ، لان الجنة هي ذاتها(١) تفسير الدر المنثور / ج ٦ - ص ٣٧٩.

الصلاح ، و قد أعدت لأهل الصلاح ، و أعظم من الجنة رضوان الله الذي يغمر قلوبهم رضا و سكينة و نورا.

]رضى الله عنهم و رضوا عنه [

كيف يبلغ الانسان درجة الرضوان ؟ انما بمعرفة الله وخشيته ، التي هي ميراث معرفته سبحانه ، و علامة القرب منه ، و شهادة رفع حجب الذنوب بينه و بينهم .

]ذلك لمن خشى ربه[

لذلك جاء في الدعاء المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك و أسعدني بتقواك. "

و جاء في الآية الكريمة " : إنما يخشى الله من عباده العلماء " (١. (

فالخشية هي زينة العلماء بالله ، و هكذا جاء في دعاء الصباح المأثور عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام : " لا إله إلا أنت سبحانك اللهم و بحمدك ، من ذا يعرف قدرك فلا يخافك ، و من ذا يعلم ما أنت فلا يهابك. "

نسأل الله ان يملأ قلوبنا خشية و فرقا منه ، و شوقا اليه ، حتى نكون من خير البرية ، و من شيعة علي التابعين لنهجه حقا . آمين رب العالمين.

(1)فاطر / ٢٨.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في اصول الكافي باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " لا تملوا من قراءة " إذا زلزت الارض زلزالها " فانه من كانت قراءته بها في نوافله لم يصبه الله - عز وجل - بزلزلة أبدا ، و لم يمت بها ، و لا بصاعقة و لا بآفة من آفات الدنياحتى يموت ، فاذا مات نزل عليه ملك كريم من عند ربه ، فيقعد عند رأسه ، فيقول : يا ملك الموت ! أرفق بولي الله ، فانه كان كثيرا ما يذكرني و يذكر تلاوة هذه السورة ،و تقول له السورة مثل ذلك ، و يقول ملك الموت : قد أمرني ربي أن اسمع له و أطيع ، و لا أخرج روحه حتى يأمرني بذلك ، فاذا أمرني أخرجت روحه ، و لا يزال ملك الموت عنده حتى يأمره بقبض روحه ، و إذا كشف له الغطاء فيرى منازله في الجنة فيخرج روحه في ألين ما يكونمن العلاج ، ثم يشيع روحه الى

الجنة سبعون ألف ملك يبتدرون بها الى الجنة. "

وعن أنس : انه سأل النبي - صلى الله عليه وآله - رجلا من أصحابــه ، فقال " : يا فلان هلا تزوجت ؟ " قال : لا و ليس عندي ما أتزوج به ، قال : " أليس معك " قل هو الله أحد" ؟ " قال : بلى ، قال : " ربع القرآن " قال؟ أليس معك " قل يا أيها الكافرون " قال ؟ بلى . قال : " ربع القرآن " قال " : أليس معك " إذا زلزلت " ؟ " قال : بلى . قال : " ربع القرآن " ثم قال " : تزوج تزوج تزوج. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٤٧

الاطار العام

سنة الله في الجزاء تتجلى في البصيرة التي تبينها سورة الزلزلة : ان من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، و ان من يعمل مثقال ذرة شرا يره ، لكي لا يستهين الانسان بأعماله التي تتجسد له يوم القيامة ، ذلك اليوم الثقيل الذي تزلزل الارض زلزالها ، و تخرج الارض ما في جوفها من أجساد و معادن و أجسام مختلفة ، و يستبد بالانسان حيرة و يتساءل : ما لها ؟ و ترى الناس يصدرون في مذاهب شتى ، حسب أفعالهم و حسب درجاتهم.

إذا زلزلت الأرض زلزالها

بينات من الآيات

[1]ليست الحياة الأولى التي تملأ أعيننا و قلوبنا بخيرها و شرها ، بأنظمتها و أحداثها و ظواهرها سوى ظلال باهتة ، لذلك الحيوان العريض الواسع و الخالد ، وإنما جيىء بنا اليها لنستعد و لنتزود ، و ما الحياة الدنيا الا متاع الغرور.

و نحن في الدنيا نشهد أهوالا تفزعنا و تكاد تقتلع أفئدتنا ، و منها الزلازل العظيمة التي قد تبتلع في لحظات مدينة كبيرة بناها الانسان عبر قــرون متماديــة ، و إنها - على ذلك - ليست سوى زالزال محدود يضرب ناحية من الارض ، فكيف إذا كان شاملا للارض كلهــا؟! أي منظر رهيب ، أم أي فزع عظيم ، أم أي داهية كبرى يكون ذلك الزلزال!

]إذا زلزلت الأرض زلزالها[

و لعل ضمير " ها " العائد الى الارض يوحي بان الزلزال لا يخص منطقة ، و انهيكون كأشد ما يقع في الارض من زالزال.

[2]ماذا يحدث عندئذ ؟ هل تفور النواة المركزية للكرة الارضية بعوامل غير معروفة لدينا فتهتز القشرة الفوقية للارض هزات عنيفة و متتالية ، ثم تقذف فوقها المواد التي احتسبت فيها منذ ملايين السنين ؟ هكذا يبدو من الآيات التي تصرح بان الارض تلقي أثقالها.

]و أخرجت الارض أثقالها[

و هكذا قال ربنا سبحانه في آية اخرى : " و ألقت ما فيها و تخلت " (١. (

و قال بعضهم : الأثقال هي كنوز الارض و معادنها ، و قال آخرون بل هي الأموات التي تخرجهم الارض في النفخة الثانية ، فاذا هم قيام ينظرون.

و يبدو ان الكلمة تتسع لكل هذه التطبيقات ، على ان إخراج المواد الكامنة في مركز الارض أقرب الى ما نعرفه من سبب الزلزال ، أليس سببه الغازات الارضية المحتبسة في النواة المركزية . ألا ترى ان بعض الزلازل يكون مــن البراكين التي تخرج المواد الذائبة ؟ و يؤيد ذلك ما جاء في حديث:

"تقيىء الارض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة " (٢. (

[3]و يبقى الانسان حائرا مدهوشا !ماذا حدث للارض حتى تزلزت ، و أخرجت ما في أحشائها ، و لماذا وما هي الغاية ؟

]و قال الانسان ما لها[

(1)الانشقاق / ٤.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 147

قال بعضهم : هذا هو الكافر الذي جحد بالآخرة ، فتساءل مع بروز أشراطها عنها و قال : ماذا حدث ؟ و لكن يبدو ان تلك الحوادث المروعة تحمل كل انسان على التساؤل.

[4]ولن يطول التعجب لان الارض تشرع بالإجابة ، مما يشهد بتحول عظيم في عالم الطبيعة ، لا يختص بمظاهرها فقط وإنما يجري على طبائعها ، فكيف تتحدث الارض ، و كيف يلتقط سمع الانسان حديثها ، لولا تغيير كبير يحصل فيها.

]يومئذ تحدث أخبارها[

و أول خبر تنطق به الارض و بحوادثها أو بلسانها : ان الساعة قد قامت ، وأن الدنيا قد أدبرت ، و لعل الخبر الثاني لها بيان حكمة الفزع الأكبر الذي يجري على ظهرها ، أما أهم الأخبار فهي شهادتها على أفعال الناس فوق ظهرها ، فقد جاء في حديث مـأثـور عــن رسول الله - صلى الله عليه وآله - انه قرأ هذه السورة فقال : " أتــدرون ما أخبارها ؟. "

قالوا : الله و رسوله اعلم ، قال : " فان أخبارها ان تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل يوم كذا كذا و كذا " قال : " هذه أخبارها " (١. (

وفي حديث آخر : روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " حافظوا على الوضوء و خير أعمالكم الصلاة ، فتحفظوا من الارض فإنها أمكم ، وليس فيها أحد يعمل خيرا او شرا إلا وهي مخبرة به " (٢. (

[5]و لعل الارض تحدث الناس بأخبار أخرى ايضا ، اما كيف تتحدث ، هل(١) المصدر / ١٤٨.

(2)تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان / ج ١٠ ص ٥٢٦.

بكلام يخلق فيها ، أم بما ينعكس عليها من آثار أعمال الانسان فتظهر يومئذ كما الشريط الصوتي أو المصور ، أم بان الله يؤتي الانسان ما يلتقط به إشارات الارض ؟ المهم انها تتحدث بإيحاء الله لها.

]بأن ربك أوحى لها[

[6]يبدو ان الارض التي انعكست عليها أقوال الناس و أفعالهم منذ أن عاشوا عليها تبدأ بإعادة تمثيلها لهم كما الشريط المصور الذي تنعكس عليه صور الحوادث ، ثم يعرض علينا لنراها من جديد ، و لذلك قال ربنا سبحانه:

]يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم[

اننا نعرف كيف تنعكس ذبذبات الصوت على الشريط الكاسيت ، و لكن لا نعرف كيف تنعكس ايضا على ذرات التراب التي تحيط بنا ، و لعل الانسان يتقدم علميا حتى يبلغ هذا السر في يوم ما ، انما علينا الآن ان نبقى حذرين من كل شيء محيط بنا ، فانه يسجل أفعالنا التي تحفظ الى يوم القيامة لنراها ، فأي يوم رهيب ذلك اليوم ، حيث يرى الانسان ما عمله خلال حياته محضرا . ان الانسان قد يرتكب جريمة أو يقترف إثما ، فيلاحقه ضميره بالتأنيب ، فيحاول جهده تناسي الأمر حتى لا يصاب بوخز الضمير فيما بينه و بين نفسه ، فكيف إذا جيء بهعلى رؤوس الأشهاد ، و صورت له أفعاله ! أي خزي يلحق المجرمين في ذلك اليوم ، أم أي عار عظيم ؟!

قالوا : صدور الناس : نشورهم من قبورهم ، و حركتهم باتجاه محكمة الرب ، و قيل : انه مستوحى من صدور الإبل من الماء ، أما الأشتات فانه يعني متفرقين ، و أعظم ما يفرقهم الايمان و الكفر ، فمن آمن اتخذ سبيلا مختلفا عن الكفار ، كما قالربنا سبحانه " : يومئذ يتفرقون .. " والآية التالية تشهد بهذا المعنى.

و قال بعضهم :بل معنى الأشتات : انهم يصدرون من مقابرهم وهي مبثوثة في أنحاء مختلفة من الارض ، كما انهم مختلفون في المذاهب و النحل ، و يبعث كل أمة منهم بإمامهم.

[7]وليست الاعمال الكبيرة وحدها التي تتجسد ذلك اليوم ، بل حتى أصغر ما يتصوره الانسان من عمل ، من وسوسة الصدر ، حتى لمحة بصر ، و نصف كلمة ، و نفضة من حركة كلها مسجلة.

]فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره[

قالوا :عن الذرة انها النملة او ما يلصق باليد من تراب إذا وضعها على الارض ، فكل حبة ذرة ، او ما يرى في شعاع إذا دخـل من كوة صغيرة ، و نقل نص مأثور يقول : " الذرة لا زنة لها " (١. (

و اليوم حيث عرف البشر الذرة و عرف انها اصغر مما كان يتصوره الأقدمون ، فأاي حساب دقيق ينتظرنا يومئذ ، فما لنا نغفل عما يراد بنا.

[8]وإذا كانت كل ذرة من خير تؤثر في مصيرنا ، فعلينا ان نزداد منها أنى استطعنا ، وإذا كانت كل ذرة من شر نحاسب عليها ، فعلينا ان نتحذر منها.

]و من يعمل مثقال ذرة شرا يره[

و لذلك جاء في الحديث المأثور عن الرسول - صلى الله عليه وآله - : " ما من أحد يوم القيامة إلا و يلوم نفسه ، فإن كان محسنا ، فيقول : لم لا ازددت إحسانا ،(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٥٠.

و ان كان غير ذلك يقول :لم لا نزعت عن المعاصي " (١. (

بلى .و الانسان يزداد حسرة يوم القيامة إذا رأى من أعماله الصالحة مثقال ذرة قد عمله لغير الله كما الكفار و المنافقون ، هكذا نقرأ في نـص مأثـــور عن الامام الباقر - عليه السلام - في تفسير قوله : " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره " قال : " ان كان من أهل النار و قد كان عمل في الدنيا مثقال ذرة خيرا يره يوم القيامة حسرة أنه كان عمله لغير الله " و من يعمل مثقال ذرة شرا يره " يقول : " ان كان من أهل الجنة رأى ذلك الشر يوم القيامة ثم غفر له " (٢. (

و جاء في حديث آخر عن الامام الصادق - عليه السلام - قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : ان العبد ليحبس عن ذنب من ذنوبه مائة عام ، و إنه لينظر الى أزواجه في الجنة يتنعمن " (٣. (

حقا ..اذا وعى الانسان هذه الآية من القرآن كفته وعظا و زكاة و طهرا ، لأنه سوف يقيس من أفكاره و أقواله و أعماله كل صغيرة و كبيرة ، و من ضبط صغائره هانت عليه الكبائر ، أوليست الكبائر تبدأ بسلسلة من الصغائر ، أرأيت الذي يزني لا يرتكب الفاحشة إلا بعد ان يوسوس له الشيطان بفكرة الزنا ، فإذا لم

يردع نفسه عنها ، فتش عن زانية و سعى اليها ، ثم نظر اليها ، ثم تحدث معها ثم لامس و زنى . إنها خطوات متدرجة ، كل واحدة أنكى من سابقتها ، و هي صغائر تنتهي الى كبيرة ، أو تصبح بمجموعها كبيرة . أليس كذلك ؟

من هنا رأى ابن مسعود هذه الآية أحكم آية في القرآن و روى المطلب بن خطب أن إعرابيا سمع النبي - صلى الله عليه وآله - يقرؤها ، فقال : يا رسول الله!

(1)المصدر / ص ١٥٠.

(2)نور الثقلين / ج ٥ ص ٦٥١.

(3)المصدر.

امثقال ذرة ؟ قال : " نعم " فقال الإعرابي : واسوأتاه مرارا ، ثم قام وهو يقولها فقال النبي - صلى الله عليه وآله - " لقد دخل قلب الإعرابي الايمان " (١. (

و روي أن رجلا جاء الى النبي - صلى الله عليه وآله - فقال : علمني مما علمك الله ، فدفعه الى رجل يعلمه ، فعلمه : " إذا زلزلت - حتى إذا بلغ - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * و من يعمل مثقال ذرة شرا يره " قال : حسبي ، فأخبر النبي - صلى الله عليه وآله - : فقال : " دعوه فإنه قد فقه " (٢. (

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 153

(2)المصدر.

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة العاديات ، و أدمن قراءتها ، بعثه الله عز وجل مع أمير المؤمنين - عليه السلام - يوم القيامة خاصة ، و كان في حجره و رفقائه. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٥١

الإطار العام

بعد أن يصور السياق ببلاغة نافذة معركة منتصرة ، يمتطي المجاهدون فيها الخيول التي تعدو و تحمحم ، و تنقدح من حوافرها الشرار ، ثم تغير مع بواكير الصباح على العدو ، مثيرة غبارا كثيفا ، ثم تبلغ وسط الهدف.

بعد أن يصور السياق ذلك و يقسم به إكراما له (لانه غاية الجود و الشهامة و الايثار) يبين أن الطبيعة الأولية للانسان (قل ان يتربى و يتزكى) هو الكند ، و البخل ، و حب الخير لنفسه ، و الاستئثار به ، و لكن متى يفقه حقا خطأه ؟ عندما تتكشف القبور عما سترتها من أجساد ، و تتكشف الصدور عما خبأتها من اسرار .. يومئذ يعرف الانسان ان ربه خبير به.

هكذا تربي هذه السورة الكريمة التي جاء في بعض الأحاديث أنها بمثابة نصف القرآن ، تربي الانسان على الإيثار و التضحية في سبيل الله.

إن الانسان لربه لكنود

بينات من الآيات

[1]لكي نفقه كرامة المجاهدين على الله ، و عظمة دور خيلهم العاديات في سبيله ، يقسم القرآن بها ، لانها تحمل نور الاسلام الى الآفاق ، و تحمل صفوة عباد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.

]والعاديات ضبحا[

يبدو أن العدو في الاصل تجاوز الحد ، و يسمى العدو عدوا لأنه يتجاوز الحد في معاملته ، و منه العدوان لأنه تجاوز للحق ، و السرعة القصوى في المشي تسمى عدوا لأنها ايضا تجاوز للحد.

و هكذا قالوا في الخيل سميت العاديات لاشتقاقها من العدو ، و هو تباعد الأرجل في سرعة المشي ، و أنشدوا لصفية بنت عبد المطلب:

فلا و العاديات غداة جمع بأيديها اذا سطع الغباراما الضبح ، فقالوا : انه التنفس بقوة ، و قيل : انه حمحمة الخيل ، و الأقرب عندي : تغير الحال أو تغير اللون ، و يقال : انضبح لونه إذا تغير ، و لعله لذلك يسمى الرماد ضبحا لأنه يتغير لونه من أصله ، وإنما تسمى الخيل ضابحة إذا تغير من العدو حالها مما ظهر على لونها و تنفسها و حمحمة صوتها ، وقد استخدمت الكلمة في الثعلب ، و قيل في الآية : ان الخيل كانت تكعم (و الكعم شيء يوضع في فم البعير) لئلا تصهل فيعلم العدو بهم ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة و أنشدوا:

و الخيل تعلم حين تضبح في حياض الموت ضبحا[٢] كانت الخيل تعدو بسرعة ، و لكن من دون صهيل ، و كانت الحركة في الليل - فيما يبدو - حيث تتطاير الشرر من حوافرها التي تحتك بالحصى ، مما يظهر أن الارض كانت وعرة ، فجاء السياق يقسم بها و هي تنساب بين الصخور في رحم الظلام.

]فالموريات قدحا[

و الإيراء : الاشعال ، و القدح : ضرب الحجارة ببعضها طلبا للنار.

[3]و تقترب خيل المجاهدين العادية من ارض العدو ، و تنتظر إنبلاج الفجر فتفاجىء العدو بغارتها الخاطفة.

]فالمغيرات صبحا[

و هكذا كانت الغارات الناجحة ، فإذا أرادوا العدو ساروا الى أرضه ليلا ، و انتظروا الصباح للبدء بالهجوم ، حيث لا تزال العيون نائمة ، و الأعصاب مخدرة.

[4]و عند الهجوم المباغت تثير الخيل بحوافرها الغبار ، و كلما ازداد الغبار كشف عن شدة المعركة.

]فأثرن به نقعا[

و لعل النقع : الغبار الغليظ الذي يشمل الارض ، ذلك لان أصل النقع - كما قيل -الغور في الماء او غور الماء - و لهذا يسمى الماء الراكد بالنقيع ، لانه يغور في الارض أو يغور فيه الغاطس ، قالوا : لذلك سمي الغبار نقيعا فكأنه يغور فيه الانسان.

و تساءلوا عن ضمير " به " أين مرجعه ، فقال البعض : انه يعود الى العدو المفهوم من العاديات ، و قال آخر : بل يعود الى المكان الذي تقع فيه المعركة ، و المفهوم من السياق ، و أظن انه يعود الى قوله " ضبحا " لأنه الأقرب ، وإذا نسب بالزمان شيء كان أبلغ في معنى الشدة ، كما نقول يوم نحس أو يوم سعيد ، أي كله سعادة أو نحوسة.

بلى . قد أثارت الخيول نقعا جعل الصباح مغبرا.

[5]الغارة القاهرة هي التي تقع مفاجئة ، و صباحا ، و تبلغ أهدافها بسرعة خاطفة ، و هكذا كانت تلك الغارة التي اخترقت قلب العدو.

]فوسطن به جمعا[

يقال :وسطت القوم أي صرت في وسطهم ، و الجمع بمعنى : تجمع العدو ، وهو كناية عن قلب جيشهم ، و مركز قوتهم ، و ضمير " به " يعود الى العدو أو الى المكان أو الصباح حسبما سبق في الآية الماضية.

كان ذلك التأويل الأقرب الى ظاهر الآيات ، و هناك تأويل آخر ذكره طائفة من المفسرين ، حيث قالوا : تعني الآيات خيل الحجيج أو ابلهم ، حيث يفيضون الى عرفات ثم مزدلفة فمنى و يكون معنى الإيراء اشعال النيران لطعامهم ، و معنى الجمع : مزدلفة ، أما معنى المغيرات صبحا - حسب التفسير - فهي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى الى جمع ، و السنة إلا تدفع حتى تصبح.

و يبدو ان تأويل الآيات في الحج و مناسكه و مشاعره لا يتنافى مع تأويلها في الجهاد ، أليس الحج جهاد المستضعفين ؟ و يشبه مناسكهم و حركتهم ، و هكذا نجد الرواية التالية المأثورة عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - تجمع بين التأويلين ، تدبر قليلا فيها:

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال : بينما أنا في الحجر جالس ، اذ أتاني رجل فسأل عن " العاديات ضبحا " فقلت له : الخيل حين تغزو في سبيل الله ، ثم تأوي الى الليل ، فيضعون طعامهم ، و يورون نارهم ، فانفتل عني و ذهب الى علي بن أبي طالب عليه السلام - و هو تحت سقاية زمزم - فسأله عن " العاديات ضبحا " فقال : " سألت عنها أحدا قبلي " قال " نعم ، سألت عنها ابن عباس ، فقال : الخيل حين تغزو في سبيل الله ، قال : " فاذهب فادعه لي " فلما وقف على رأسه قال : " أتفتي الناس بما لا علم لك به ، و الله إن كانت لأول غزوة في الاسلام بدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير ، و فرس للمقداد بن الأسود ، فكيف يكون العاديات الخيل ؟ بل العاديات ضبحا الإبل من عرفة الى المزدلفة ، ومن مزدلفة الى منى " قال ابن عباس: فرغبت عن قولي و رجعت الى الذي قاله علي (١. (

و يؤيد الجمع بين التأويلين ما جاء في سبب نزول السورة : أنه كان في سرية(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٥٦ ، و نجد روايات مشابهة في سائر التفاسير . راجع تفسير القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٥٥.

قادها الامام علي - عليه السلام - حيث أخبر جبرئيل - عليه السلام - النبي - صلى الله عليه وآله - : ان أهل وادي اليابس قد اجتمعوا في اثني عشر ألف فارس ، و تعاقدوا و تواثقوا ان لا يتخلف رجل عن رجل . و لا يخذل أحد أحدا حتى يقتلوا محمدا و عليا ، فبعث رسول الله اليهم بسرية يقودها أبو بكر في أربعة آلاف رجل ، فلما رأى بأسهم و بعد ديارهم لم يحاربهم ، فأرسل رسول الله عمرا بالمهمة ، فعاد هو الآخر لذات السبب ، فلما بعث اليهم عليا مشى اليهم من غير الجادة ، و أعنف في السير ، فما أحاط بأرضهم ، أغار عليهم صباحا وهم غافلون ، فلما يعلموا حتى وطأتهم الخيل ، و أقبل بالأسارى و الأموال الى رسول الله فنزلت السورة (١. (

[6]قسما بكل ذلك الايثار العظيم الذي يتجلى في معارك المجاهدين ، قسما بتلك القمم السامقة التي بلغوها بايمانهم و يقين قلوبهم : ان الانسان قد طبع على كفران النعمة ، و لن يتسامى الى أفق الإيثار من دون جهاد نفسه و تزكيتها.

]إن الانسان لربه لكنود[

كلما ذكرت كلمة (الانسان) اريد بها - فيما يبدو - طبيعة الانسان الأولية قبل التزكية و التعليم ، و قد ذكروا تفسيرات شتى للفظة " لكنود " أبرزها : الكفور ، العاصي ، البخيل ، السيء الملكة ، و قال بعضهم : هو الذي يكفر باليسير ولا يشكر الكثير، و قيل : انه الجاحد للحق ، و أنشدوا:

كنود لنعماء الرجال و من يكن كنودا لنعماء الرجال يبعدو يبدو أن الصفات السيئة يتسع بعضها ، مما يجعل المعنى الاصلي للكلمة الدالة على واحدة منها ضائعا فيختلف فيه الناس ، و قد تكون الكلمة موضوعة كشخصية(١ (المصدر / ص ٦٥٢ بتصرف و اختصار ، وراجع ايضا موسوعة بحار الانوار / ج ٢١ - ص ٦٦ ، و كذلك مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٥٢٨.

متصفة بها جميعا ، كما سبق في معنى كلمة " عتل " وإذا قلنا بأن لكلمة (كنود) معنى واحدا ، فليكن البخيل الذي يحس دائما بأن حقه أعظم مما أوتي فلا يشكر نعم الله عليه بالانفاق ، و من هنا جاء في الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وآله: -

"الكنود هو الذي يأكل وحده ، و يمنع رفده ، و يضرب عبده " (١. (

و قال الشاعر:

دع البخلاء ان شمخوا و صدوا و ذكرى بخل غانية كنودو هكذا يكون معنى " لربه " لفضل ربه و نعمه.

[7]و الكفران و الجحود و البخل و سائر الصفات السيئة التي تجمعها كلمة كنود حقائق يعترف الانسان بوجودها في نفسه ، فعليه مسؤولية تخليص نفسه منها ، ولا يمكنه التملص عن المسؤولية بأنه كان جاهلا:

]و إنه على ذلك لشهيد[

أولم يقل ربنا سبحانه في آية أخرى : " بل الانسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره " (٢) و قال بعضهم معنى الآية : أن الله على ذلك لشهيد وهو بصير ، لان السياق يحدث عن الانسان فالأولى عودة الضمير اليه.

[8]ولكن لماذا لم يتخلص من كند نفسه ؟ لأنه شديد الحب للخير ، ومن شدة حبه له تراه يبخل به و لا يشكر ربه عليه بانفاقه.

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 160

(2)القيامة / ١٤ - ١٥ .

]وإنه لحب الخير لشديد[

و حب الخير بذاته فضيلة ، و لكنه يصبح رذيلة إذا اشتد في الانسان ، و طغى على حبه لله و للرسالة ، و فضله الانسان على الآخرة التي هي الخير حقا.

ولكن أي خير هذا الذي يهدده الموت في أية لحظة ، قال الشاعر:

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد[٩] و لا يتخلص الانسان من حب الدنيا إلا بذكر الآخرة فمن اشتاق الى الجنة سلا عن شهوات الدنيا ، و من اشفق من النار هانت عليه مصيبات الحياة.

]أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور[

أي أثير و قلب ، من قولهم : بعثرت المتاع أي جعلت أسفله أعلاه ، و يبدو أن ذلك إشارة الى البعث و النشور ، حيث تثار القبور لاستخراج ما فيها.

[10]هنالك يحشر الناس للحساب ، و تشهد عليها جوارحهم ، و تظهر ما في جوانحهم ، من نكد و حب للدنيا.

]و حصل ما في الصدور[

حيث تبلو يومئذ السرائر ، و تسقط الأقنعة ، و يعرف الانسان مدى خسارته للفرصة اذ لم يزك نفسه.

[11]هنالك يعلم الناس يقينا ان الله محيط بهم ، ذلك لأنهم يرون كيف يجازيهم بأفعالهم ، بل و يسأل عن سرائرهم ، و ما اضمروا فيها من خير أو شر ، فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء.

]إن ربهم بهم يومئذ لخبير[

و يفعل بهم ما يشاء بحكمة ، فلذلك اليوم فليستعد الانسان و ليزك نفسه ، و ينمي فيها الفضائل ، و من أبرزها الجهاد في سبيل الله . وفقنا الله له.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

فـي كتاب ثواب الأعمال للصدوق باسناده عن أبي جعفر - عليه السلام - قال " : من قرأ و أكثر من قراءة القارعة آمنه الله - عز وجل - من فتنة الدجال أن يؤمن به ومن قيح جهنم يوم القيامة ، إنشاء الله " .

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٥٨

الاطار العام

خلق الله كل شيء بمقدار ، كلما حولك موزون بدقة ، فهل يسمح للانسان أن يعبث بحياته بلا نظام ولا حساب . كلا .. إن حياته هي الأخرى محسوبة عليه ، كل وسوسة و فكرة و عزم ، كل كلمة و كل حركة مسجلة عليه ، و عليه أن يزيد من صالح أعمالـه ما يثقل ميزانه ، و إلا فإن مصيره الى نار حامية ، متى ؟ عندما تقرع ساعة القيامة ، و عندها يكون الناس كالفراش المبثوث ، و كالجراد المنتشر ، و تكون الجبال كما الصوف المنفوش.

وما أدراك ما القارعة
بينات من الآيات

] [1]القارعة[

تلك هي الساعة تقرع الخلائق بأهوالها ، و تقول العرب قرعتهم القارعة ، إذا نزل بهم أمر فظيع.

[2]و كل داهية قارعة و لكن قارعة الساعة أمر عظيم ، لا يبلغ وعي الانسان مدى فظاعتها.

]ما القارعة[

[3]و أنى كانت عظمتها فعلينا ان نقترب من وعيها ، لاننا بذلك نستطيع مقاومة لغفلة و الجهالة و الفوضى في أنفسنا.

]وما أدراك ما القارعة[

ان النفس البشرية شديدة الميل الى الانفلات و التحلل و الفوضى ، لولا قرعها بنصائح الآخرة ، وما فيها من أهوال تجعل الولدان شيبا ، و لذلك جاءت آيات الذكر شديدة الأنذار ، بالغة التحذير ، لعلنا نعقل ان نسمع ، و نوقظ عقولنا من السبات العميق.

[4]الألقاب التي نخدع أنفسنا بها اليوم ، و الأسماء العريضة ، و المفاخر و الأمجاد تتلاشى ذلك اليوم ، و يحشر عشرات الألوف من بلايين البشر كما الهمج الطائر ، الذي يكثر أيام الصيف ، فتراه كالسحابة من شدة تراكمها فوق بعضها ، أو الجراد الكثيف الذي يتداخل في بعضه كأنه غبار كثيف ، فما قيمة بعوضة في الهمج ، أو جرادة في سيل الجراد أنا وأنت نصبح هكذا بين من يحشر من أبناء آدم ، منذ كان آدم والى قيام الساعة.

]يوم يكون الناس كالفراش المبثوث[

قالــوا :الفــراش : الطيــر الذي يتساقط في النار و السراج ، و قيل : كل همج طائر يسمــى فراشا ، و منه الجراد ، و روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " مثلي و مثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب يقعن فيها ، و هو يذبهن عنها ، و أنا آخذ بحجركم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي " (١. (

حالات مختلفة و متدرجة في ذلك يذكرنا السياق بواحدة منها ، كما سبق في آيات مشابهة.

قالوا : المبثوث المنتشر المتفرق.

[5]أكثر ما في الدنيا وهم ، و يتلاشى الوهم في الآخرة ، بل حتى حقائق الدنيا تتلاشى يومئذ ، فترى الجبال التي تحسبها قوة ثابتة كما الصوف المتفرق ، تحركها(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٦٥.

الرياح.

]و تكون الجبال كالعهن المنفوش [

قالوا :أي الصوف الذي ينفش باليد ، أي نعيدها هباء ، و يبدو ان للجبال حالات مختلفة و متدرجة في ذلك يذكرنا السياق بواحدة منها ، كما سبق في آيات مشابهة.

[6]بلى . ينتفع الانسان يومئذ بشيء واحد ، يعطيه قيمة بين الناس ، إنه عمله الصالح الذي لو رجحت كفته في الميزان حسنت عيشته.

]فأما من ثقلت موازينه[

يبدو ان الموازين تعني الأفعال التي توزن وليست ذات الكفتين و اللسان ، و قال بعضهم : الموازين : الحجج ، و استشهدوا بقول الشاعر:

قـد كنت قبـل لقائكـم ذا مـرة عنـدي لكـل مخاصـم ميـزانهو قد سبق الحديث في سورة الرحمن : أن الميزان هو الامام الناطق ، الذي جسد قيم الوحي في حياته ، و كان حجة على عباد الله.

[7]و إذا كانت عاقبة انسان رهينة رجحان حسناته ، وإذا كان حتى مثقال ذرة من أفعاله محسوبة له أو عليه ، فينبغي ألا يقصر الانسان فيها ، فلعل حسنة واحدة ترجح كفة الحسنات ، و تجعلك من أهل الجنة حيث العيشة التي ترضاها.

]فهو في عيشة راضية[

و حين تكون العيشة راضية ، فان كل جوانب حياتك تجلب رضاك و تكون فيمستوى طموحك ، و قالوا : معناها عيشة مرضية ، و قيل : بل عيشة لينة منقادة.

[8]و الويل لمن أضاع فرصة العمر ، و قصر في استغلال فرص الخير ، و استهان بالذنوب حتى تراكمت في ميزانه ، و استخف بالحسنات حتى خفت موازينها عنده.

]وأما من خفت موازينه[

] [9]فأمه هاوية[

أي مصيره الجحيم ، قالوا : الأم ما يأوي اليها الانسان ، كما يأوي الى الأم و أنشدوا:

فـالأرض معقلنـا و كـانت أمنـا فيهـا مقابـرنـا و فيهـا نولـــدو لكن يبدو أن كلمة الأم من أم أي قصد ، و الأم هو المقصد يعيد اليه الانسان باختياره و قيل الأم : هـــي أم الرأس ، من قولهم : سقط على أم رأسه و قالوا عن الهاوية : انها المهواة ، أو الوادي بين جبلين ، لان قعر جهنم بعيد ، قد يهوون فيها مئات السنين.

[11 - 10]أوتدري ما الهاوية ، انها ليست مجرة مهواة يسقط الانسان فيها فيموت ، و ينتهي كل شيء ، كلا .. إنها النار المشتعلة.

]وما أدراك ماهية * نار حامية[

انها شديدة الحرارة ، حتى أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءا منها ، نستجير بالله منها.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله - عليه السلام - : " من قرأ سورة التكاثر في فريضة كتب الله له ثواب أجر مائة شهيد ، ومن قرأها في نافلة كتب له ثواب خمسين شهيدا ، و صلى معه في فريضة أربعون صفا من الملائكة إنشاء الله. "

وفي أصول الكافي باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من قرأ " ألهاكم التكاثر " عند النوم وقي فتنة القبر. "

الاطار العام

بين حاجة الانسان و حرصه مسافة كبيرة ، و ما يلهيه عن ذكر الله و عن المكارم ليست حاجته ، بل حرصه الذي يبعثه يحرضه على التكاثر في الأموال و الأولاد ، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله و ولده شيئا ، و حوسب على نعيم الله ، و تلاشى عنه ما يلهيه ، لأنه سوفيرى الجحيم عين اليقين . و هكذا تعالج السورة حالة التلهي بالدنيا عبر التذكرة بالموت ثم العقاب و الحساب.

ألهاكم التكاثر

بينات من الآيات

[1]جاء في حديث شريف : " يا ابن آدم ! ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فأيسر ما فيها يكفيك ، و ان كنت تريد ما لا يكفيك فكل ما فيها لا يكفيك " ، و جاء في حديث آخر عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " يقول ابن آدم : مالي مالي ، و مالك منمالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت " (١. (

و هكذا الذي يسعى نحو إشباع حرصه و طموحه يزور قبره قبل ان يحقق معشار حرصه ، هل سمعت بقصة أصحاب البلايين ؟ ألا فكرت في سبب اجتهادهم في الحصول على المزيد من حطام الدنيا وهم يملكون اضعاف ما قد يحتاجونه ؟ ! انهم لا يزالون - حسب ظنهم - في وسط الطريق ، لانهم يبحثون دوما عن أعلى رقم ، و الارقام لا تنتهي ، و قال قال لي أحدهم : انه لا يحصي ما يملك ، و قال آخر : ان سبب(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦٠.

جهده البالغ ليس الحصول على الثروة ، بل استباق غيره فيها ، ولما سألته : و الى متى ؟ قال هناك دائما من هو أغنى مني ، فأنا في بحث دائم!

و هذا هو التكاثر الذي يستبد بمشاعر الانسان و لا يدع متسعا للتفكير في الآخرة.

]ألهاكم التكاثر[

اي شغلكم الاهتمام بالتكاثر فأنساكم الآخرة ، و قد اختلف المفسرون في الذي ألهاهم هل هو المفاخرة و المباهاة حسبما يأتي في بيان شأن النزول ، أم التجارة و التشاغل بأمر المعاش حسبما جاء في رواية ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وآله - أنه قرأ : "ألهاكم التكاثر " و قال : " التكاثر : الأموال التي جمعها من غير حقها ، و منعها من حقها ، و شدها في الأوعية. (1) "

يبدو ان الدافع النفسي الى التكاثر ، و التنافس في الأموال و الأولاد هو الذي ألهاهم ، سواء تجسد في السعي نحوهما او في المباهاة بهما ، لان هذا الدافع موجود بالتالي هنا و هناك.

و لذلك لا أجد تناقضا بين ما يظهر من معنى اللفظ من التشاغل بالتجارة و بشؤون الأولاد ، و ما ذكر في قصة نزول السورة من المباهاة و المفاخرة بذلك ، لانهما يدخلان تحت عموم اللفظ ، و ينتهيان الى الدافع ذاته.

أما شأن النزول فان المفسرين اختلفوا فيه كثيرا ، مما يدل على ان مراد السابقين من شأن النزول ان السورة تنطبق على ما يقولون ، و لا تدل بالضرورة انها نزلت فيهم حقا ، و هكذا قال بعضهم : انها نزلت في اليهود ، حيث تفاخرت قبائلهم على بعضهم ، و قال البعض:
بل في قبيلتين من الأنصار ، و قال ابن عباس : بل في حيين(١) المصدر / ٦٦٢.

من قريش و هما بنو عبد مناف و بنو سهم . و أضاف : تعادوا و تكاثروا بالسادة و الاشراف في الاسلام ، فقال : كل حي منهم : نحن أكثر سيدا ، و أعز عزيزا ، فكثر بنو عبد مناف سهما ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم سهم ، فنزلت " ألهاكم التكاثر " بأحيائكم ،فلم ترضوا حتى " زرتم المقابر " مفتخرين بالأموات.

بلى . لا يزال الناس يفتخرون بأمجاد الغابرين ، و يتكاثرون بمن أمسوا ترابا ، و كأنهم يغنون عنهم شيئا

من أمور دينهم او دنياهم ، هيهات . يقول الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - و قد تلا هذه الآيات:

"ياله مراما ما أبعده ! و زورا ما أغفله ! و خطرا ما أفظعه ! لقد استخلوا منهم أي مدكر ، و تناوشوهم من مكان بعيد ! افبمصارع آبائهم يفخرون ، ام بعديد الهلكي يتكاثرون ! يرتجعون منهم أجسادا خوت ، و حركات سكنت ، ولأن يكونوا عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا ، ولأن يهبطونهم جناب ذلة أحجى من ان يقوموا بهم مقام عزة لقد نظروا اليهم بأبصار العشوة ، و ضربوا منهم في غمرة جهالة " (١. (

من عبر التاريخ ما ينقله الرواة عن مصير هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين ، يقول قتادة : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ، و نحن أعز من بني فلان ، وهم كل يوم يتساقطون الى آخرهم ، و الله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم (٢. (

و كلمة أخيرة : ان الانسان لا يني يكافح حتى يزداد مالا و ولدا ، حتى إذا انهارت قواه ، و لما يبلغ مناه تراه يتفاخر بالغابرين ، و يتكاثر بأهل القبور البالية . ما أكفر الانسان ، وما أبعده في الضلال ! أفلا يعتبر بمن هلك من قومه ، و يقول : اني من(١) المصدر / ص ٦٦١ نقلا عن نهج البلاغة.

(2)القرطبي / ج ١٠ - ص . 169

بعدهم لهالك ، أفلا ارتدع عن التلهي بالدنيا ، و أنا وارد موردهم ، و نازل بمنازلهم.

[2]و يبقى الانسان سادرا في غفلته ، لاهيا بالتنافس على حطام الدنيا ، حتى يزور المقابر ، ليرى بيت الوحشة مظلما لم ينوره بمصابيح الصلاح ، و لم يمهده بحميد الفعال ، فلا ينفعه يومئذ مال و لابنون ، و لا يغنيه مجد و لا فخر.

جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام " : - إذا وضع الميت في قبره مثل له شخص ، فقا له : يا هذا ّ! كنا ثلاثة : كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك ، وكان أهلك فخلفوك و انصرفوا عنك ، و كنت عملك فبقيت معك ، أما إني كنت أهون الثلاثة عليك" (١. (

]حتى زرتم المقابر[

و لعل التعبير بـ " حتى " للدلالة على ان التكاثر الذي يضر بصاحبه هو الذي يتصل بالموت فلو تاب صاحبه من قبل نفعته توبته ، و للدلالة ايضا على ان التكاثر يبقى يلهي صاحبه حتى الموت ، فعلينا ألا نسترسل معه ، و لا ينظر بعضنا الى ما أنعم الله علىالآخر من أزواج و أموال و أولاد ، بل ينظر في أمور الدنيا الى من دونه ، وفي شؤون الآخرة الى من هو فوقه ، قال تعالى " : و لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير و أبقى. "

و السؤال : لماذا قال " : زرتم المقابر " أجابوا : لان العرب يقولون لمن مات قد زار قبره ، و يبدو ان التعبير يوحي ايضا بأن من يموت لا يفنى ، انما ينتقل من عالم لآخر فهو كالزائر.

(1)بحار الانوار / ج ٦ -ص ٢٦٥.

و قيل :ان معنى زيارة المقابر : التفاخر بالأموات ، و التكاثر بعددهم ، حسبما سبق في بيان نزول السورة ، و قلنا هناك : ان الآية تتسع لهذا المعنى ايضا ، و لذلك ذكر بعض المفسرين أهمية زيارة القبور وأنها تذكر الانسان بالموت ، و تزهده في الدنيا ، و ذكروانصا مأثورا عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - انه قال : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهد في الدنيا ، و تذكر الآخرة " (١. (

و قد حث الاسلام على ذكر الموت ، و الذي يتم بعضه بزيارة القبور ، حتى جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - : " ما أكثر ذكر الموت انسان إلا زهد في الدنيا (2) " و حينما سئل النبي -

صلى الله عليه وآله - عن أكيس المؤمنين من هو ؟
قال - صلى الله عليه وآله - : " أكثرهم ذكرا للموت ، و أشدهم استعدادا " (٣. (

[3]و الــذي يردع النفس من التلهي بالتكاثر خشيته من لقاء ربه عندما يزور قبره ، و يواجه عمله.

]كلا سوف تعلمون[

و العلم ينقض الشك ، كما ينقض الإنذار التلهي ، و هذه الآية إنذار من رب العالمين بان هذا التكاثر سوف يعلم ان من جمعه لم ينفعه.

[4]و لان نزعة التكاثر عميقة النفاذ في النفس ، بالغة الأثر في قرار الانسان ، وما أهلك الانسان مثل الفخر ، ولا أضله مثل التكاثر ، لذلك عاد السياق و أكد(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٧٠.

(2)بحار الانوار / ج ١٢٦ .

(3)المصدر.

الإنذار تلو الإنذار.

]ثم كلا سوف تعلمون[

و على الانسان ان يشتغل بإصلاح نفسه عن لهو التكاثر بذكر الموت هادم اللذات و مفرق الجماعات ، حتى لا يفاجئه ملك الموت و هولاه ساه.

و قد ذكر البعض : ان هذه الآية مجرد تأكيد للآية السابقة ، بينما ذهب البعض الى ان هذه الآية تذكرنا بعذاب الآخرة ، بينما الأولى تنذر بعذاب الدنيا الذي يجري حين الموت و بعده في القبر على امتداد أيام البرزخ و الى حين يبعثون ، و قد ورد نص مأثور عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - في ذلك ، حيث روى زربن حبيش عنه ، قال : " ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت " ألهاكم التكاثر " الى قوله " كلا سوف تعلمون " يريد في القبر " ثم كلا سوف تعلمون " بعد البعث " (١. (

و هكذا حذرنا أولياء الله من فتنة القبر و عذابه ، فهذا الامام علي ابن ابي طالب - عليه السلام - يكتب لمحمد بن أبي بكر : " يا عباد الله ! ما بعد الموت - لمن لا يغفر له - أشد من الموت ، القبر فاحذروا ضيقه و ضنكه و ظلمته و غربته ، ان القبر يقولكل يوم :أنا بيت الغربة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الدود و الهوام . و القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . ان العبد المؤمن إذا دفن قالت له الأرض : مرحبا و أهلا ، قد كنت ممن أحب أن تمشي على ظهري فاذا وليتك فستعلم كيف صنيعي بك ، فيتسع له مد البصر ، و ان الكافر إذا دفن قالت له الأرض : لا مرحبا بك و لا أهلا ، لقد كنت من أبغض من يمشي على ظهري فإذا وليتك فستعلم كيف صنيعي بك ، فتضمه حتى تلتقي(١ (نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦١.

أضلاعه " (١. (

[5]لو علم الانسان ما يصير اليه لما ألهاه التكاثر لأن المعرفة تورث الخشية ، هكذا قال ربنا سبحانه : انما يخشى الله من عباده العلماء " ولكن حجب الشك و الغفلة و الشهوات تمنع عنه بصائر العلم و اليقين.

]كلا لو تعلمون علم اليقين [

إذا أسلمت النفس البشرية لهدى الله آمنت ، وإذا طهرت من الشكوك و الظنون أوتيت اليقين ، و لليقين درجات ، وما أوتي الانسان أشرف من اليقين ، هكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - حيث قال : " انما هو الاسلام ، و الايمان فوقه بدرجة ، و التقوى فوق الايمان بدرجة ، و اليقين فوق التقوى بدرجة ، و لم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين " قال الراوي : قلت : فأي شيء اليقين ؟ قال : " التوكل على الله ، و التسليم لله ، و الرضا بقضاء الله ، و التفويض الى الله " (٢. (

هكذا جعل الامام أسمى درجات الايمان و أشرفها اليقين ، مما يدل على ان اليقين هو : طهارة القلب من دنس الشرك و الشك و الظنون ، و سائـر وساوس ابليس و همزاته.

و جاء في حديث آخر تفسير اليقين بالتغلب على خوف المخلوق ، قال الامام الصادق - عليه السلام - : " ليس شيء إلا وله حد " فقال الراوي : فما حد التوكل ؟ قال الامام - عليه السلام - : " اليقين " فقال السائل : فما حد اليقين ؟

(1)بحار الانوار / ج ٦ -ص ٢١٩.

(2)بحار الانوار / ج ٦ -ص ٢١٨.

قال الامام - عليه السلام - : " ألا تخاف مع الله شيئا " (١. (

و اليقين يجعل عمل المـــؤمن مقبـــولا ، بل و يعظم ثوابه ، يقول الامام الصادق - عليه السلام - : " ان العمل الدائم القليل مع اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين " (٢. (

أرأيت الذي يصلي و قلبه متصل بنور الله ، و نفسه طاهرة من الرياء ، و العجب و الاستكبار ، و يجاهد ، و نيته لله وحده ، كمن يصلي و قلبه مليء بالوسواس ، و يزكي رياء ، و يجاهد للاستعلاء في الارض ؟!

لذلك كان أئمة الهدى - عليهم السلام -يحأرون الى الله في طلب الزيادة من اليقين ، و يحثون اتبـاعهم علـى مثـل ذلك ، هكذا جاء في الحديث : كان علي بن الحسين (الامام زين العابدين عليه السلام) يطيل القعود بعد المغرب يسأل الله اليقين . (٣)و روي عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - أنه قال في خطبة له : " أيها الناس !سلوا الله اليقين ، و ارغبوا اليه في العافية ، فإن أجل النعمة العافية ، و خير ما دام في القلب اليقين ، و المغبون من غبن دينه ، و المغبوط من غبط يقينه " (٤.(

ولا يبلغ الانسان درجة اليقين إلا بعد العروج في درجات التسليم و الايمان و التقوى و كلها تقتضي المزيد من العمل الصالح و الخالص لوجه الله و المنبث على سائر جوارح البدن ، و جوانح النفس ، و حتى بعد الحصول على اليقين عليه ان يسعى جاهدا حتى يتجاوز عقد الشك و الإرتياب بالتفكر و التعلم و الدعاء . ألا ترى كيف(١) المصدر / ج ٧٠ - ص ١٤٢.

(2)المصدر / ص ١٤٧.

(3)المصدر / ص ١٧٦.

(4)المصدر.

سعـــى إبراهيم نحو اليقين حين سأله ربه سبحانه قائلا : " رب أرني كيف تحيي الموتى " . فلما قال له ربه : " أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي . " و لم يكن في قلبه ذره شك و لكنه حسب حديث مأثور عن الامام الرضا - عليه السلام - " أراد من الله الزيادة في يقينه " (١. (

و علامة صدق اليقين دوام الاستقامة على صراط الحق ، وألا يتخذ الانسان وليجة من دون الله و رسوله

، و يكون مستعدا لكل تضحية و في كل موقع . أولا سمعت قصة الأعرابي الذي جاء الى رسول الله و قال : يا رسول الله بايعني على الاسلام فقال له الرسول - صلى اللهعليه وآله. -

"على أن تقتل أباك . "

فكف الأعرابي يده ، و أقبل رسول الله - صلى الله عليه وآله - على القوم يحدثهم.

و قد بين بعضهم درجات اليقين حسب فهمه بثلاث:

)ألف) : علم اليقين ، و ضرب مثلا له كمن يعلم بوجود النار لما يراه من ضوئها أو دخانها.

)باء) : حق اليقين و مثله كمن يرى النار بعينه مشاهدة.

)جيم) : عين اليقين مثل الذي يلامس النار فيحس حرارتها.

و هذا - حسبما يبدو لي - مجرد أمثلة ، وإلا فقد يكون يقين من يعلم بوجود النار بسبب علائمها أشد من الذي يلامسها ؛ لان قلبه أوعى لحقيقتها من صاحبه . أرأيت(١) المصدر / ص ١٧٧

الطبيب قد يكون أفقه بحالة المريض و خصائص دائه من المريض ذاته ، و لذلك جاء في الحديث : " رب حامل فقه الى من هو أفقه منه " (١) و لا ريب أن هناك في المسلمين الأواخر من كان أشد يقينا بصدق الرسالة من بعض الذين عاصروا النبي و صاحبوه ، كل ذلك لأناليقين ليس مجرد علم بل روح في القلب ، تجعله يطمئن الى العلم و يسكن اليه ، كما الايمان و التقوى ، و بتعبير آخر : ان اليقين - كما قلنا في بداية الحديث - نقطة التقاء العلم بالإرادة ، كما ان الايمان : التسليم و الاذعان للعلم ، و عزم و عقد عزمات القلب علىقبول مشاهدات العلم مهما بلغ الثمن ، و هذا لا يكون بمجرد ظهور آيات الحقيقة للنفس ، بل و ايضا بتصديق النفس لها ، و السكون اليها ، و لذلك يكون يقين المؤمن بالغيب أشد من علم الكافر بالشهود ، و يبلغ اليقين ببعضهم حدا يعايشون الغيب بكل جوارحهم ، و يقول أميرهم الامام علي - عليه السلام - : " و الله لو كشف الغطاء لما ازددت يقينا " (٢) و يقول في صفة المؤمنين:

"فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون " (٣. (

جاء في الكافي ، عن محمد بن يحيى ، عن احمد بن محمد ؛ و علي ، عن أبيه ، عن ابن محبوب ، عن أبي محمد الوابشي و ابراهيم بن مهزم ، عن اسحاق بن عمار قال : سمعت أبا عبد الله - عليه السلام - يقول : " أن رسول الله - صلى الله عليه وآله - صلى بالناس الصبح فنظر الى شاب في المسجد وهو يخفق و يهوي برأسه ، مصفرا لونه ، قد نحف جسمه ، و غارت عيناه في رأسه ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله - كيف أصبحت يا فلان ؟ قال : أصبحت يا رسول الله ! موقنا ، فعجب رسول الله من قوله ، و قال له : إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك ؟

(1)اصول الكافي / ج ١ -ص ٤٠٣.

(2)غرر الحكم و درر الكلم / ص ٦٠٣.

(3)نهج البلاغة / خ - 193ص ٣٠٣.

فقال :ان يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني ، و أسهر ليلي و أظمأ هواجري ، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني انظر الى عرش ربي و قد نصب للحساب ، و حشر الخلايق لذلك ، وأنا فيهم ، و كأني أنظر الى أهل الجنة يتنعمون في الجنة و يتعارفون على الآرائك متكئون ، و كأني أنظر الى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون ، و كأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله - هذا عبد نور الله قلبه بالايمان ، ثم قال له : الزم ما أنت عليه فقال الشاب : ادع الله لي يا رسول الله ان أرزق الشهادة معك ، فدعا له رسول الله - صلـــى الله عليه وآله - فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي - صلى الله عليه وآله - فأستشهد بعد تسعة نفر و كان هو العاشر " (١. (

[6]ان الكافر ليرى الجحيم بعينه ، يلامسها بجوارحه ، فيعلم يقينا أنه مواقعها ، وأنه كان في ضلال عنها مبين ، بينما المؤمن يعي وجود النار ، و يشاهدها ببصائر قلبه ، فيعلم يقينا بها.

]لترون الجحيم[

[7]أوليس الأحجى بنا و الأحرى أن نؤمن بها و نحن بعيدون عنها ، و قبل أن نردها ثم لا نصدر منها ؟!

]ثم لترونها عين اليقين[

قالوا :ان الآية تشير الى أن كل البشر يردون النار أو يمرون عليها . لقوله سبحانه : " وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. "

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٠ - ص ١٥٩.

فيمر عليها بعضهم كالبرق ، و بعضهم كالريح و بعضهم كالطير ، و يتباطئ بعضهم بذنوبه حتى يحترق بنارها قليلا ، و بينما يغط بعضهم فيها و يمكث المذنب فيها بقدر ذنبه ، قبل ان يتطهر كليا و يدخل الجنة ، و منهم الخالدون فيها أبدا و العياذ بالله.

[8]لكي لا يلهينا عن الآخرة التكاثر بحطام الدنيا لابد ان نعرف اننا مسؤولون يومئذ عن النعيم ، و كلما زادت نعم الله علينا طال وقوفنا للحساب عند ربنا ، فهل نملك الجواب الصواب ؟!

يقال : ان النبي سليمان يختلف عن إخوانه الأنبياء ألف عام يوقف للحساب ، يسأل عن ملكه و نعيمه بينما هم يتنعمون في الجنة.

قالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - : لما كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قدمت اليه عند إفطاره طبقا فيه قرصان من خبز الشعير ، و قصعة فيها لبن و ملح جريش ، فلما فرغ من صلاته أقبل على فطوره ، فلما نظر اليه و تأمله حرك رأسه و بكى بكاءا شديدا عاليا ، و قال : " يا بنية ! ما ظننت ان بنتا تسوء أباها كما قد أسات أنت إلي " قالت : و ماذا يا أباه ؟ قال " : يا بنية ! اتقدمين الى أبيك إدامين في فرد طبق واحد ؟ أتريدين ان يطول وقوفي غدا بين يدي الله عز وجل يوم القيامة أنـــا أريـد ان أتبع أخي و إبن عمي رسول الله - صلى الله عليه وآله - ما قدم اليه إدامان في طبق واحد الى ان قبضه الله ، يا بنية ! ما من رجل طاب مطعمه و مشربه و ملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، يا بنية ان الدنيا في حلالها حساب و في حرامها عقاب وقد أخبرني حبيبي رسول الله - صلى الله عليه وآله - ان جبرئيل - عليه السلام - نزل اليه و معه مفاتيح كنوز الأرض و قال : يا محمد ! السلام يقرؤك السلام و يقول لك : إن شئت صيرت معك جبال تهامة ذهبا و فضة ، و خذ هذه مفاتيح كنوز الأرض ولاينقص ذلك من حظك يوم القيامة ، قال :يا جبرئيل و ما يكون بعد ذلك ؟ قال : الموت ، فقال : إذا لا حاجة لي في الدنيا ، دعني أجوع يوما و أشبع يوما ، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرع الى ربي و أساله ، و اليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي و أحمده ، فقال له جبرئيل : وفقتلكل خير يا محمد " . ثم قال عليه السلام : " يا بنية ! الدنيا دار غرور و دار هوان ، فمن قدم شيئا وجده ، يا بنية ! و الله لا آكل شيئا حتى ترفعين أحد الإدامين " فلما رفعته تقدم الى الطعام فأكل قرصا واحدا بالملح الجريش ، ثم حمد الله و أثنعليه ، ثم قام الى صلاته فصلى ... " (١. (

ولو وعى الانسان هذه الحقيقة كبح شهوة التكاثر في نفسه ، و لم يدع هذه الحالة تلهيه عن ذكر الله.

]ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم [

ما هو النعيم ؟ اختلف المفسرون ، بل و اختلفت النصوص ، و يبدو أن الكلمة تتسع لكل الأقوال و لو بدرجات مختلفة ، فقد ينفي نص أن يكون طعام الانسان و شرابه مما يسئل عنه يوم القيامة ، فقد جاء في مجادلة الامام الصادق (ع (مع أبي حنيفة:

قال أبو حنيفة : أخبرني جعلت فداك عن قول الله عز وجل : " ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم " قال " فما هو عندك يا أبا حنيفة ؟ " قال : الأمن في السرب ، و صحة البدن ، و القوت الحاضر . (٢) فقال : " يا أبا حنيفة ! لئن وقفك الله أو أوقفك يوم القيامة حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها و شربة شربتها ليطولن وقوفك. "

قال : فما النعيم جعلت فداك ؟ قال : النعيم : " نحن الذين أنقذ الله الناس بنا(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٤٢ - ص ٢٧٦.

(2)المصدر / ج ١٠ - ص . 209

من الضلالة ، و بصرهم بنا من العمى ، و علمهم بنا من الجهل " قال : جعلت فداك فكيف كان القرآن جديدا أبدا ؟ قال : " لانه لم يجعل لزمان دون زمان فتخلقه الأيام ، ولو كان كذلك لفنى القرآن قبل فناء العالم " ، بينما يثبت ذلك نص آخر ، فما هو تفسير اختلاف النصين ؟ يبدو أن أحدهما ينفي المسؤولية بمعنى العقاب بينما يثبت الثاني السؤال . أو أن الأول ينفي التشديد في السؤال ، بينما الثاني يثبت السؤال . و يدل على ذلك ما جاء في الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " كل نعيم مسؤول عنهصاحبه إلا ما كان في غزو أو حج " (١. (

و نعود و نتساءل : عماذا يسأل العبد يوم القيامة ؟ بلى . أنه يسأل عن طعامه من أين اكتسبه و كيف صرفه ، و في حديث مفصل قال النبي - صلى الله عليه وآله - لأبي بكر و عمر " و الذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم . يوم القيامة " و كانا قد خرجاجائعين فصاحبا رسول الله الى ضيافة مالك بن التيهان - أحد الأنصار - فأكرمهم بقراه فقال لهما الرسول ذلك ، و اضاف : " أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم " (٢. (

و روي عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير النعيم ، أنه قال : " النعيم : الرطب و الماء البارد " (٣. (

كما يسأل المرء عن مجمل ماله من أين اكتسبه و فيم صرفه ، هكذا في الأحاديث المأثورة : يسأله عن شبابه فيما أفناه ، و ماله فيما أنفقه ، و عن أمنه و عافيته . أليست الصحة نعمة كبيرة و جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " نعمتان(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦٥.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 175

(3)تفسير نمونه / ج ٢٧ -ص ٢٨٦.

مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " (١. (

و في نص معروف " : نعمتان مجهولتان الصحة و الأمان. "

و عن جاهه عند الناس : فقد جاء في الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وآله " : -إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد مــن عباده فيوقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه ، كما يسأل عن ماله " (٢. (

ولكن أعظم نعمة يسأل العبد عنها يوم القيامة هي نعمة الهداية و التي تتجلى في الرسالة و في الرسول و فيمن استخلفه الرسول من أئمة الهدى ، أوليست نعمة الرسالة هي التي من الله بها على عباده إذ قال : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم. "

و قال : " يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليك ان هداكم للاسلام. "

و هكذا كانت ولاية أئمة الهدى أعظم مصداق للنعيم المسؤول عنها يوم القيامة ، و بذلك استفاضت النصوص - مثل الحديث المأثور عن الامام الرضا عليه السلام -قال له بعض الفقهاء : يقول الله عز وجل : " ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم " اما هذه النعيم في الدنيا وهو الماء البارد.

فقال له الرضا (عليه السلام) و علا صوته : " كذا فسرتموه أنتم ، وجعلتموه على ضروب ، فقالت طائفة : هو الماء البارد ، و قال غيرهم : هو الطعام الطيب ، و قال آخرون : هو طيب النوم " ثم نقل الامام الرضا عليه السلام حديثا عن آبائه ، جاء فيه: " ان الله عز وجل لا يسأل عباده عما تفضل عليهم به " ثم قال : " و لكن(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٧٧.

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٦٤ و هناك نصوص أخرى في هذا الحقل.

النعيم حبنا أهل البيت ، و موالاتنا يسأل الله عنه بعد التوحيد و النبوة ، لأن العبد إذا وفى بذلك أداه الى نعيم الجنة الذي لا يزول " ثم نقل الامام الرضا - عليه السلام - حديثنا عن آبائه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - صريحا في هذا التفسير (٣.(

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - قال : " من قرأ " و العصر " في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقا وجهه ، ضاحكا سنه ، قريرا عينه ، حتى يدخل الجنة. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦٦

الاطار العام

لكي يتبصر الانسان واقع الزمن ، و كيف يهدم عمره لحظة بلحظة ، ثم لكي يعرف بماذا يقاوم خسرانه ، جاءت سورة العصر عصارة لبصائر الذكر في هذا الموضوع الأساسي ، الذي لو وعاه الانسان وعى حقيقة عمره ، و حقائق العالم المحيط به.

قسما بالزمن ، انك لولا الايمان في خسران ، و كل لحظة لا ايمان فيها ولا عمل صالح جزء ضائع من كيانك ، و لكن الانسان في غفلة عن هذا العدو الخطير ، بيد ان المؤمنين يذكر بعضهم بعضا و يوصي بعضهم بعضا.

و العصر إن الانسان لفي خسر

بينات من الآيات

[1]يزعم الانسان انه كلما طال عمره كبر و زاد ، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما ، فكلما مضى من عمره شطر اقترب منه أجله ، و تناقص رأسمال حياته ، و نقص ما تبقى منه ، فزيادة المرء - إذا - في دنياه نقصان ، و هو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأسماله كل لحظة.

هكذا يحلف القرآن بالعصر و يقول:

]و العصر[

قال ابن عباس : أنه قسم بالدهر ، و يبدو لي : ان أقرب العصور هو عصر أنت فيه ، و أشرفها عصر الرسالة حيث انبعث النبي به ، و عصر العدالة حين يقوم الحجة القائم به.

و قال بعضهم : انما سمي الزمن بالعصر لانه يعتصر الانسان كما يعصر المرء غسيله ، و ان القسم بالدهر انما كان بلحاظ عصره للانسان ، و أنى كان فان الحلف به يتناسب و الموضوع التالي : أي خسارة الانسان لعمره ، أوليس الزمن هو سبب الخسارة ؟

[2]لو عرف الانسان كيف تتبدل خلايا جسده ، و كيف يستهلك كل يوم الآف الخلايا من مخه ، دون ان يستعيض عنها شيئا ، و كيف تتسارع ما حوله من أشياء في سبيل الفناء ، حتى البيت الذي يسكنه يستهلك بسرعة لا يتصورها.

لو عرف الانسان ان عمره بالقياس الى عمر الارض التي يعيش اليوم عليها ثم ينام في رحمها يكاد لا يكون شيئا مذكورا . انه أقصر من نسيم يهب عليه في يوم قائض ، و أسرع من سحابة في يوم عاصف ، بل انه كالبرق الخاطف او كخيال عابر.

لو عرف ان كل لحظة من عمره مسؤولية كبيرة ، فاما هي خطوة الى الجنة أو سقطة في النار.

لو عرف ذلك كله لأصلح نفسه . ولما ضيع نفسه . ولما ضيع من عمره شيئا . لانه في خسارة لولا الايمان.

]إن الانسان لفى خسر[

يحيط به الخسر كما تحيط بالانسان الدار . و أية خسارة أعظم من ان يفقد كل يوم جزءا من عمره و جزء من رأسماله ، و التالي جزء من ذاته . أليست ذاته ممتدة على أيام حياته ، فاذا مضى يوم فقد انقضى بعض ذاته.

يقول الامام علي عليه السلام :

"من كانت مطيته الليل و النهار يسار به و ان كان واقفا " (١. (

و لذلك يقول الشاعر:

و لــن يلبث العصــران يــوم و ليلة إذا طلبــا ان يدركــا ما تيممــا[٣ [حينما يعي المؤمن هذه الحقيقة يبادر بالعمل الصالح حتى يستوعب كل لحظة و كل لمحة و كل سعرة حياتية من حياته بما يحول الخسار فلاحا و أملا ، فان أتعبه الكفاح من أجل العيش استراح الى الصلاة ليتزود منها الحيوية ، وإذا أرهق عضلاته الجهد البدني اشغل لسانه بالشكر ، و قلبه بالفكر ، و نفسه بالحب و الشوق الى لقاء ربه ، و قد ترى أعضاءه غارقة في جهد بدني يفلح الارض ، أو يسعى على مناكبها طلبا للرزق ، أو يسخر ما فيها لتوفير العيش و في ذات الوقت تجد قلبه في ذكر الله ، و التدبر في آياته ، و لسانه يلهج بحب الله.

أنه متعدد الأبعاد ، واسع النشاط ، عريض الطموح ، سامي الهمة ؛ لأنه قد وعى حقيقة الزمن ، و تزود بسلاح تحديه عبر العمل الصالح.

]إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات[

و لكن تيار الزمن ، و شهوات النفس ، و عادات المجتمع يضغط عليهم باتجاه الغفلة و الكسل ، فكيف يعالج المؤمنون هذه الظاهرة ؟ انما بتكوين بيئة رشيدة تحيط بهم ؟ و لا تدعهم يخلدون الى الراحة و الكسل . أوتدري كيف ؟ بتطبيق التواصي.

]و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر[

ان الكبير يوصي الصغير ، و الصغير بدوره يوصي الكبير ، و العالم يوصي الجاهل ،(١) نهج البلاغة / ك ٣١ -ص ٤٠٠.

و الجاهل ايضا يوصي العالم .. و هذا المبدء يتسع لفريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، كما يتسع لواجب الدعوة الى الله ، و تبليغ رسالاته ، و إرشاد الجاهل .. و يتسع للمزيد.

ذلك ان التواصي : و مضة روح ، و إشراقة أمل ، و عتاب لطيف . إنه يصنع جوا ايمانيا يساعدك على ممارسة واجباتك . أنه يوجه حس التوافق الاجتماعي في الإتجاه الصحيح.

و التواصي يكون بالحق و بالصبر ، فما هما ؟

ان معرفة الحق بحاجة الى مساعدة الصالحين فهم يرشدونك اليه ، و يرفعون الغموض الذي يسببه دعايات الضالين . وإذا تناقضت المذاهب ، و اختلفت الآراء ، و تشابهت عليك الأفكار هناك لابد من إرشاد العلماء الصالحين و المؤمنين الواعين و تواصيهم بالحق.

فإذا عرفت الحق ، كان الوقوف الى جانبه و الدفاع عنه و الاستقامة عليه بحاجة الـى صبر عظيم ، يتواصى به المؤمنون حتى لا ينهار بعضهم أمام شدائد الزمن.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ " ويل لكل همزة " في فريضة من فرائض الله بعد عنه الفقر ، و جلب عليه الرزق ، و يدفع عنه ميتة السوء . "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦٧

الاطار العام

في تسع آيات مباركات تبين سورة الهمزة حالة المتكبر الخاسر التي تخالف المؤمن المتواصي بالحق والصبر ، حيث تتجلى صفة الخسارة ، فمن يزعم أنه قد ربح الدنيا يجمع مالها و تعدادها . و الاستكبار على الناس بهمزتهم و لمزهم ، وأية خسارة أعظم من نبذه في النار تحطم عظامه ، أوليست تتقد و تتطلع على الأفئدة ؟ إنها حقا سجن مغلق في صورة أعمدة ممددة.

ويل لكل همزة لمزة

بينات من الآيات

[1]كما صفات الخير تتداعى صفات السوء في أصحابها ، لأنها تنبعث من جذر واحد ، و هكذا ترى القرآن الكريم يذكرها معا ، لكي نعرف الناس و نقيمهم على مجمل سلوكهم و ليس ببعض ما تبدر منهم من صفات شاردة و شاذة.

انه الويل واللعنة لكل أولئك الذين يهمزون الناس في وجوههم علوا في الأرض و استكبارا ، و يلمزونهم -

إذا غابوا عنهم - إفسادا في الارض و فتنة ، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أو يدعي الايمان ، فليست هذه صفات المؤمنين ، و ليست بين الله و بين أحد من خلقه صلة قرابة أو رحم يمنعه عن عقابه بمثل هذه الأفعال الاجرامية.

]ويل لكل همزة لمزة[

قالوا : معنى الويل الخزي و العار ، و قالوا : انه واد في جهنم ، و لاتناقض بينهما.

و قالوا : أصل الهمز الدفع أو الكسر ، يقال : همزت الجوز بكفي أي كسرته ،وقيل لإعرابي : أتهمزون (الفارة) أي هل تجعلون فوق ألف لفظة الفارة همزة و تقرأونها فأرة . فقال : إنما تهمزها الهرة ، أي الهرة تكسر الفأرة و تأكلها ، ومن هنا أنشدوا لشاعر قوله:

و من همــزنا رأســه تهشمــا

وأنه هنا يعني أن يطعن المرء في وجهه ، و أنشدوا لحسان قوله:

همـزتــك فاختضعت بــذل نــفس بقافيــة تأجــج كالشـــــواظو قال بعضهم : أن الهمز هو الاغتياب بالقول ، بينما اللمز : هو الاغتياب بالإشارة ، وأنهما معا بالتالي نوع الحديث عن غائب ، و أنشدوا لشاعر قوله:

تدلــى بــودي إذا لاقيتنــي كذبــا وإن أغيــب فــأنت الهــامز اللمــزةأما اللمز فقال بعضهم : إنه الاغتياب ، أو ذكــر معايب الناس ، و المشيء بالنميمة.

و يبدو ان الهمز اشد من اللمز ، فإذا كان الهمز بالوجه فاللمز بالغيبة ، وأن كان الهمز بالنطق فاللمز بالإشارة ، وإذا كان الهمز يهدف العلو في الارض ، فأن اللمز يبقى الفساد فيها . الأول سمة التكبر و التجبر ، و الثاني علامة المكر و الاحتيال ، و قطع الأرحام ، و إثارة الفتن.

و جاء في الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله " : - شرار عباد الله : المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب " (١. (

[2]هؤلاء الهمازون اللمازون يحسون بنقص في أنفسهم ، حيث جاء في(١) القرطبي ج ٢٠ - ص . 181

الحديث المأثور عن النبي - صلى الله عليه وآله و سلم - : " أذل الناس من أهان الناس " (١. (

و هذا الإحساس يجعلهم يستكبرون على الناس ، و يبحثون عما يجبر نقص أنفسهم بجمع المال و تعداده ، و الافتخار به ، و التعالي على الناس بسببه.

]الذي جمع مالا و عدده[

يبدو ان معنى " عدده " أحصاه و عدده المرة بعد الأخرى مباهاة به ، و اعتمادا عليه ، ولكي يرى هل بلغ مستوى طموحه أم لا ؟ أرأيت الاطفال كيف يحسبون دراهمهم باستمرار فرحا و فخرا.

[3]ما لذي يبعثه نحو جمع المال وعده ؟ هل مجرد المباهاة به . و الاستكبار عبره على الآخرين ؟ لا بل و ايضا رغبة جامحة في الخلود ، تلك الرغبة التي كانت وراء أكل أبينا آدم - عليه السلام - من الشجرة المحرمة ، تلك الرغبة التي تدفع الملوك لبسط سلطانهم و البطش بمن يخالفهم ، و تلك الرغبة التي تبعثنا نحو أكثر أفعالنا و أعمالنا.

و لكن هل المال يخلد الانسان في الدنيا ؟ هيهات.

]يحسب أن ماله أخلده[

فأين قارون بكنوزه التي أرهقت مفاتحة الأشداء من الرجال ؟! وأين فرعون الذين استبد بملك مصر ، و افتخر بالأنهر التي تجري من تحته ؟ ! وأين القياصرة و الأكاسرة ؟! أين من ملك مليارات الدولارات ؟ ! كلهم أحبوا البقاء و ولهوا(١) تفسير نمونه نقلا عن موسوعة البحار ج ٧ - ص ١٤٢.

بالخلود ، و لكنهم لم يحملوا معهم الى قبورهم سوى الكفن ، و ذهبوا الى غير رجعة.

[4]تنعم الآخرون بجهدهم ، بينما هم يعودون الى ربهم محاسبون على كل درهم درهم من أموالهم ، من أين اكتسبوه و فيم صرفوه.

]كلا[

لا يخلد المال أحدا ، بل قد يعجل في وفاته ، وإننا نسمع كل يوم عن بعض المعمرين الذين تجاوزا المائة عام فلا نجد فيهم إلا عادة البسطاء من الناس ، ولو كانت الثروة سببا للخلود لكانت أعمار الناس تقاس بقدر أموالهم بينما قد نجد العكس.

ثم ان جمع المال بكمية كبيرة لا يكون إلا بالحرام مما يجعل صاحبه أكبر خاسر ، يجمع المال بكدح بالغ ثم يكون وبالا عليه ، جاء في الحديث المأثور عن الامام علي بن موسى الرضا - عليه السلام " : - لا يجتمع المال إلا بخمس خصال : بخل شديد . و أمل طويل ،و حرص غالب ، و قطيعة رحم ، و إيثار الدنيا على الآخرة " (١. (

]لينبذن في الحطمة[

لقد أهانوا الناس بهمزتهم ، و سخروا منهم بلمزهم ، فاليوم يلقون نبذا في نار جهنم التي تحطمهم.

[5]و هل تدري ما هي الحطمة ؟ إننا نعرف أن التحطيم من شأن ارتطام شيء خشن بمثله ، بينما النار سيالة فكيف تحطم ؟

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٦٨.

]ومآ أدراك ما الحطمة[

ان علم البشر بحقائق الآخرة محدود جدا ، و عليه ان يتزود بمقاييس جديدة ليعرف ابعاد الحقائق فيها.

[6]مثــلا النار ذات طبيعة سيالة في الدنيا لانها هنا مخففة سبعين مرة عنها هناك ، اما نار الله التي أوقدها جبار السموات و الارض تجليا لغضبه فانها -حسبما يبدو - تتفجر و تفجر مما تجعل كل شيء فيها عظيما.

]نار الله الموقدة[

و كفى بك أن تعرف أنها نار الله بعظمته و جلاله ، و شديد سطواته ، و عريض كبريائه ، و نسبتها الى الله بسبب أن ربها هو الذي أوقدها ، و لعل إيقاد النار غير إشعالها ، بل الهابها و تشديدها ، قالوا : ان الله عز أسمه قد أوقد عليها ألف عام ، و ألف عام ، و ألف عام حتى اسودت ، انتظارا لاعداء الله . أعاذنا الله منها .

[7]و لشدة النار تراها تطلع على الأفئدة ان تحرق الجلود و اللحم و العظام ، قالوا : فإذا بلغت الفؤاد عاد

اليهم جلودهم و اللحم و العظام ، فيعذبون من جديد.

]التي تطلع على الأفئدة[

قـال بعضهم : أن نار جهنم تتجه رأسا الى لب الانسان فتحرقه ، و قال بعضهم : بل أنها شاعرة ، تعرف ماذا في قلوب المجرمين فتعذبهم بقدر ما فيها من كفر و نكد.

[8]و بعد ان ينبذوا في نار جهنم تطبق عليهم ، و توصد أبوابها ، فلا روح ، و لا نسيم ، و لا شكوى ، و لا كلام . انما هي شهيق ، و زفير ، و آهات ، و أنات ، و عذاب شديد.

]إنها عليهم مؤصدة[

أي مطبقة عليهم مغلقة أبوابها.

[9]جاء في الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " ثم إن الله يبعث اليهم ملائكة بأطباق من نار ، و مسامير من نار ، و عمد من نار ، فتطبق عليهم بتلك الأطباق ، و تشد عليهم بتلك المسامير ، و تمد بتلك العمد ، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ، و لا يخرج منه غم ، و ينساهم الرحمن على عرشه ، و يتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، و لا يستغيثون بعدها أبدا ، و ينقطع الكلام ، فيكون كلامهم زفيرا و شهيقا ، فذلك قوله تعالى : " إنها عليهم مؤصدة " (١. (

]في عمد ممددة[

اختلفوا في هذه العمد الممدة ماذا تكون ؟

هل هي أغلال في أعناقهم ، أم قيود في أرجلهم ، أم هي الاوتاد التي تشد الأطباق بها ام ماذا ؟ و قال بعضهم : انها كناية عن الدهر . فهي في دهور متطاولة و قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب او حديد ، و هو أصل للبناء مثل العماد.

و يحتمل أن تكون في النار اسطوانات يدخل أهلها فيها ، فهم في هذه العمد أي وسطها و الله العالم.

و أنى كان فان نهاية فظيعة تنتظر كل مستكبر في الأرض ، هماز لماز ، ولكي لا يغرنا الشيطان بما نملك من أموال و بنين نقرأ معا حديثا مفصلا عن الامام الباقر - عليه السلام - يحذرنا بما في النار من عذاب رهيب ، و نكتفي بذكر بعض مقاطع(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ١٨٦.

الحديث اختصارا.

"و يغضب الحي القيوم فيقول : يا مالك ! قل لهم : ذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ، يا ملك ! سعر سعر فقد اشتد غضبي على من شتمني على عرشي ، و استخف بحقي ، و أنا الملك الجبار ، فينادي مالك : يا أهل الضلال و الاستكبار و النعمة في دار الدنيا ! كيف تجدونمس سقر ؟ ! فيقولون : قد أنضجت قلوبنا ، و أكلت لحومنا ، و حطمت عظامنا ، فليس لنا مستغيث ، و لا لنا معين ، فيقول مالك : و عزة ربي لا أزيدكم إلا عذابا ، فيقولون : ان عذبنا ربنا لم يظلمنا شيئا ، فيقول مالك : " فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير " يعني بعدا لأصحاب السعير ، ثم يغضب الجبار فيقول : يا مالك ! سعر سعر ، فيغضب مالك ، فيبعث عليهم سحابة سوداء يظل أهل النار كلهم ، ثم يناديهم - فيسمعها أولهم و آخرهم ، و أفضلهم و أدناهم - فيقول : ماذا تريدون أن أمطركم ؟ فيقولون : الماء البارد ، واعطشاه ! و أطول هواناه ! فيمطرهم حجارة و كلاليبا و خطاطيفا ، و غسلينا ، و ديدانا من نار ، فينضج وجوههم و جباههم ، و يغض أبصارهم ، و يحطم عظامهم ، فعند ذلك ينادون : واثبوراه ! فاذا بقيت العظام عواري من اللحوم اشتد غضب الله ، فيقول : يا مالك ! اسجرها عليهمكالحطب في النار ، ثم يضرب أمواجها أرواحهم سبعين خريقا في النار ، ثم يطبق عليهم أبوابها من الباب الى الباب مسيرة خمسمائة عام ، و غلظ الباب

مسيرة خمسمائة عام ، ثم يجعل كل رجل منهم في ثلاث توابيت من حديد من نار بعضها في بعض ، فلا يسمع لهم كلام أبدا إلا أن لهم شهيق كشهيق البغل ، و زفير مثل نهيق الحمير ، و عواء كعواء الكلاب ، صم بكم عمي فليس لهم فيها كلام إلا أنين ، فيطبق عليهم أبوابها ، و يسد (يمد د خ ل (عليهم عمدها ، فلا يدخل عليهم روح أبدا ، ولا يخرج منهم الغم أبدا ، فهي " عليهم مؤصدة " يعني مطبقة ، ليس لهم من الملائكة شافعون ، ولا من أهل الجنة صديق حميم ، و ينساهم الرب ، و يمحو ذكرهم من قلوب العباد ، فلا يذكرون أبدا " (١. (

(1)موسوعة بحار الانوار /ج ٨ - ص ٣٢٣.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ في فرائضه " ألم تر كيف فعل ربك " شهد له يوم القيامة كل سهل و جبل و مدر بأنه كان من المصلين ، و ينادي له يوم القيامة مناد : صدقتم على عبدي ، شهادتكم له و عليه ، أدخلوه الجنة ولا تحاسبوه، فإنه ممن أحبه الله و أحب عمله"

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٦٨

وفي بحار الأنوار ، بخط الشهيد رحمه الله : ان الصادق - عليه السلام - يقرأ في وجه العدو سورة الفيل.

موسوعة بحار الانوار / ج ٩٢ - ص ٣٣٨

الاطار العام

تموجت الجزيرة العربية بالصراعات الدموية و بقيت مكة بلدا آمنا كمثل جزيرة ساكنة في بحر هائج ، حتى أن ملك اليمن (أبرهة) عندما سعى الى غزوها رد على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجارة من سجيل.

أليس في ذلك دليلا على حرمة البيت ، و آية لإكرام الله لأهله ، و نعمة عظيمة ينبغي أن يشكروا الله عليها بالايمان به و برسالاته ؟.

الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل

بينات من الايات

[1]كثيرة عبر التاريخ التي لا تزال آياتها مرسومة على صفحات الزمن و في ذاكرة الأجيال ، ولكن قليل هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم الى كهف التاريخ ليدرسوه بإمعان ، و يعبروا بحوادثه ، و كانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قريش ، ولاذت بالجبال فرارا ، كانت لا تزال عالقة في أذهان أهل مكة ، حتى قيل : أن بعض من رافقوا حملة أبرهة المشؤوم كانوا لا يزالون أحياء ، بيد أن قريشا التي أمنها الله من تلك الداهية كفرت بأنعم الله ، و جحدت آياته ، و جاء الوحي يذكرهم قائلا:

]ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل[

قد تكون الحادثة التاريخية شديدة الوضوح الى درجة تكاد ترى ، و لا تحتاج منا الى ان نتوجه اليها بأعين بصيرة ، و هكذا يبدو أن الرؤية هنا جاءت بمعنى العلمبها ، و النظر الى آثارها ، و سماع أنبائها مما يجعلك كأنك قد رأيتها .

و قد تجلت عظمة الله في ردع أكبر حملة قادها الأعداء ضد مكة ، و بفعل خارج عن ظاهر السنن الجارية

، حيث دمرهم بطير أبابيل.

[2]لقد عبؤوا طاقاتهم ، و جندوا اثني عشر ألفا بأفضل عتادهم - حسب التواريخ - و كان الفيل الذي استقدموه لإثارة الهيبة سلاحا جديدا في محيط الجزيرة العربية . زعمت العرب الا قبل لهم به ، و لكن الله أضل كيدهم ، و أفشل خطتهم ، فلم يحققوا به الغاية المطلوبة.

]ألم يجعل كيدهم في تضليل[

قال بعضهم : تضليل كيدهم بمعنى فشلهم في هدم الكعبة ، و تصفية آثار الحنفية الإبراهيمية ، و توجيه العرب الى بيت جديد كان أبرهة قد بناه في اليمن.

و لكن السؤال : كيف أضل الله كيدهم ؟ هل بفعل طير الأبابيل فقط أم بأمر آخر ؟ يبدو أن الآية تشير الى حادثة أخرى لم يذكرها المفسرون ، و لعلهم ابتلوا بأمراض فتاكة كالجدري ، أو وقعت بينهم الفتنة ، أو ضلوا السبل أو ما أشبه ، أو أصيب فيلهم بعاهة بسبب اختلاف المناخ ، وقد أشارت الروايات التاريخية الى بعض هذه القضايا.

[3]ولا ريب ان أخطر ما أصابهم وقضى على حملتهم ، كانت الطير التي قدمت عليهم - حسب التاريخ - من ناحية البحر لم تعرفها المنطقة ، فرمتهم بحجارة قاتلة.

]و أرسل عليهم طيرا أبابيل [

لم تخطأهم الطير بل اتجهت مباشرة اليهم ، و كانت تتلاحق عليهم أسرابا فأسرابا ، و هذا ما فسرت به كلمة أبابيل ، قالوا : تعني مجتمعة ، و قيل : متتابعة ، و قيل : متفرقة ، تأتي من كل ناحية ، و أصل الكلمة من قولهم : فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه و يكثر، و اشتقاقها من الأبل.

[4]بعد ان انتشرت فوقهم الطير كسحابة سوداء ، أخذت تمطرهم بحجارة قاتلة ، قالوا : كان كل طير يحمل ثلاث أحجار : واحدة في منقاره و اثنتان بين أرجلها ، و كانت الحجارة إذا أصابت جانبا من أبدانهم فرقته و خرجت من الطرف الآخر ، فاذا أصابت بيضة الرأس أخترقتالدماغ و خرجت من الدبر ، وقال بعضهم ، إذا أصاب الحجر أحدهم من الجدري لم ير قبل ذلك ، وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجدري.

]ترميهم بحجارة من سجيل[

قالوا :الحجارة من طين ، طبخت بنار جهنم ، وقال بعضهم : السجيل : أصله السجين ، و أبدلت النون لاما ، ولا يبعد لك إذا كانت الكلمة معربة للتساهل فيما عربت من الكلمات ، وقال بعضهم ، بل السجيل من السجل حيث كتب عليهم ذلك ، و الأول أقرب.

ولعل الحجارة كانت مسمومة أو تحمل جراثيم أمراض فتاكة كالجدري ، حسبما نقرء في التفاسير كما جاء في حديث مأثورعن الامام الباقر -عليه السلام - عن قوم كانوا يقطعون السبيل ، و يأتون المنكر : " ... مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران في مخالبه ، و حجر فيمنقاره ، فجعلت ترميهم بها حتى جدرت أجسادهم ، فقتلهم الله عز وجل بها ، وما كانوا قبل ذلك رأوا شيئا منذلك الطير ولا من الجدر " (١. (

[5]يبــدو أن مرض الجدري قضى على خلايا جسدهم ، حتى غدوا كالقشور البالية.

]فجعلهم كعصف مأكول[

قالوا :جعلهم الله كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل ، ذلك أن العصف عندهم : ورق الزرع ، كجلب القمح و الشعير ، و قال بعضهم : العصف المأكول : الورق الذي أكل لبه و رمي قشره.

قصة أصحاب الفيل:

اهتمت قريش بقصة أصحاب الفيل ، حيث أنها كانت تتخذ من هذه الواقعة ذريعة لسيطرتهـا على أهل الجزيرة ، و لذلك جعلوها بداية لتاريخهـم ، و قد كانت ولادة النبـي - صلى الله عليه وآله - في ذات السنة حسب أشهر الروايات ، فأضفى عليها صبغة شرعية ، وقد ذكرواتفاصيل كثيرة فيها اختلافا واسعا ، و نذكرها : جاء في مجمع البيان ما نصفه:

أجمعت الرواة على ان ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم ، و قيل : أن كنيته ابو يكسوم ، ثم أن أبرهة بني كعبة باليمن ، و جعل فيها قبابا من ذهب ، فأمر أهل مملكته بالحج اليها يضاهي بذلك البيت الحرام ، وأن رجلا من بنـي كنانة خرج ، حتى قدم اليمن ، فنظر اليها ، ثم قعد فيها - يعني لحاجة الانسان - فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها ، فقال : من اجترأ علي بهذا و نصرانيتي ، لأهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبدا ، و دعا بالفيل ، و أذن قومه(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٧٢.

بالخروج ومن أتبعه من أهل اليمن ، و كان أكثر من أتبعه منهم عك و الاشعرون و خثعم ، ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليدعوا الناس الى حج الذي بناه ، فتلقاه ايضا رجل من الحمس من بني كنانة فقتله ، فازداد بذلك حنقا ، و حث السير و الإنطلاق ، و طلب من أهل الطائف دليلا ، فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له : نفيل : فخرج بهم يهديهم ، حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه و هو من مكة على ستة أميال ، فبعثوا مقدماتهم الى مكة ، فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال ، و قالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء ، و لم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته ، و غير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت ، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول :

لا هم ان المرء يمنع رحله فأمنع حلالك

لا يغلبو بصليبهم و محالهم عدوا محالك (١(

لا يدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدا لك

ثم أن مقدمات أبرهة أصابت نعما لقريش فاصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم - و كان حاجب أبرهة رجلا من الاشعرين و كانت له بعبد المطلب معرفة - فاستأذن له على الملك ، و قال له :أيها الملك ! جاءك سيد قريش الذي يطعم أنسها في الحي و وحشها في الجبل ، فقال له : ائذن له - و كان عبد المطلب رجلا جسيما جميلا - فلما رآه أبو يكسوم أعظمه ان يجلسه تحته ، و كره ان يجلسه معه على سريره ، فنزل من سريره ، فجلس على الارض ، و أجلس عبد المطلب معه ، ثم قال : مـا حاجتك ، قال:
حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك ، فقال أبو يكسوم : والله لقد رأيتك فأعجبتني ، ثم تكلمت فزهدت فيك ، فقال : ولم أيها الملك ؟ قال : لأني جئت الى بيت عزكم و منعتكم(١) الحلال : القوم الحالون في المكان و المحال : التدبير و القوة.

من العرب و فضلكم في الناس ، و شرفكم عليهم ، و دينكم الذي تعبدون فجئت لأكسره و أصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك ولم تطلب إلي في بيتكم ! فقال له عبد المطلب : أيها الملك ! أنا أكلمك في مالي و لهذا البيت رب هو يمنعه ، ليست أنا منه في شيء ، فراع ذلك أبا يكسوم ، و أمر برد إبل عبد المطلب عليه ، ثم رجع و أمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها ، كأنها تكلمهم كلاما لاقترابها منهم ، فأحست نفوسهم بالعذاب ، و خرج دليلهم حتى دخل الحرم و تركهم ، و قام الاشعرون و خثعم فكسروا رماحهم و سيوفهم ، و برؤا الى الله ان يعينوا على هدم البيت ، فباتوا كذلك بأخبث ليلة ، ثم أدلجوا بسحر ، فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا بمكة ، فوجهوه الى مكة ، فربض ، فضربوه ، فتمرغ ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا ، ثم إنهم أقبلوا على الفيل ، فقالوا : لك الله ان لا نوجهك الى مكة ، فانبعث فوجهـوه الـى اليمن راجعا ، فتوجه يهرول ، فعطفوه حين رأوه منطلقا ،

حتى إذا ردوه الى مكانه الأول ربض ، فلما رأوا ذلك عادوا الى القسم ، فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة ، جعلت ترميم و كل طائر في منقارة حجر ، و في رجليه حجران ، وإذا رمت بذلك مضت و طلعت أخــرى ، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه ، ولا عظم إلا أوهاه و ثقبه ، و ثاب أبو يكسوم راجعا قد أصابته بعض الحجارة ، فجعل كلما قدم أرضا انقطع له فيها أرب ، حتى إذا انتهى الى اليمن لم يبق شيء إلا باده ، فلما قدمها تصدع صدره و انشق بطنه فهلك ، و لم يصيب من الاشعريين و خثعم أحد ، و كان عبد المطلب يرتجز و يدعوا على الحبشة يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكاان عدو البيت من عاداكا انهم لم يقهروا قواكا (١)(١) مجمع البيان / ج ١٠ - ص ٥٤٠.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله (ع) قال : " من أكثر من قراءة " لإيلاف قريش " بعثه الله يوم القيامة على مركب من مراكب الجنة ، حتى يقعد على موائد النور يوم القيامة "موسوعة بحار الانوار / ج ٩٢ - ص ٣٣٧

الاطار العام

انها حقا ارهاصات رسالة ، و بشائر حضارة ، حيث كانت في قريش بقية من آثار الحنفية الإبراهيمية . ألم يحتفوا ببيت الله الحرام الذي آمنه الله من الدواهي ، ألم يقدر الله ان يبعث فيهم رسول الله فيكونوا حملة رسالاته الى الآفاق ، ألم يجعل أئمة المسلمين من صفوة قريش بني هاشم ، و صفوة الصفوة أولاد محمد و علي عليهما السلام.

بلى . لقد آلفهم الله حول بيته ، و آلفهم لرحلة الشتاء و الصيف ، و هيأ لهم مدينة راقية بين مثيلاتها في الجزيرة ، إذا ليعبدوا رب هذا البيت ، و يتعالوا عن خرافات الجاهلية التي لا تتناسب ومستوى حضارتهم ، أوليس رب هذا البيت قد أطعمهم من جوع ، و آمنهم منخوف ؟ فلماذا البقاء مع أساطير التخلف و الخوف ؟

و تأتي السورة متممة لبصائر سورة الفيل السابقة حتى قيل : أنهما معا سورة واحدة.

فليعبدوا رب هذا البيت

بينات من الآيات

[1]هل هما سورتان أم سورة واحدة تفصل بينهما البسملة ، أم البسملة هي الأخرى محذوفــة ؟ كمــا نقل عــن مصحف أبي ، فيه أقوال مختلفات ، أقربها أنهما -كما في عامة المصاحف - سورتان متقاربتان المحتوى ، وإن جاز - حسب بعض النصوص - الجمع بينهما في الفريضة، فقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - أنه قال : " لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى و ألم نشرح ، و ألم تر كيف و لإيلاف قريش " (١. (

ذلك ان ما فعله الله بأصحاب الفيل كان مثلا واضحا لكرامة البيت الحرام عند الله سبحانه ، وأنه قد استجاب فيه لدعوة مجدد بنائه إبراهيم الخليل - عليه السلام - فجعله بيتا آمنا ، و رزق أهله من الثمرات ، وكل ذلك وفر شروط المدنية عنده ، حيث بنت قبيلة قريش حضارتها و إيلافها ، و كانت تمهيدا لحضارة

(1)مجمع البيان / ج ١٠ -ص ٥٤٤.

الاسلام المجيدة ، فقال ربنا سبحانه تعليقا على قصة أصحاب الفيل:

]الإيلاف قريش[

قالوا معناه : فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لكي يألفوا مكة ، و تتوفر لهم شروط الرحلة الى الشام و اليمن.

و قال البعض : بل الحديث في هذه السورة مستقل مستأنف ، و أن كـان مكمـلا - محتوى و معنى - لما بينه القرآن في السورة السابقة ، و معناه : ان الله وفر الأمن لقريش حتى تتسنى لهم رحلة الشتاء و الصيف.

و هكذا فسروا الإيلاف : بايجاب الألف ، وهو الاجتماع المقرون . بالإلتئام ، و نظيـره الايناس ، و نقل عن الأزهري أنه يشبه الإجارة و الخفارة ، يقال : ألف يؤلف :اذا أجار الخمائل بالخفارة (١) حيث أن الله وفر لقريش فرصة التجارة ، بما كانت لهم من علاقاتحسنة مع سائر العرب ، و بما كانت لهم من هيبة في نفوس التاس باعتبارهم في جوار بيت الله.

و أنى كان أصل معنى الايلاف فان اللفظ يشير الى معنى المدنية و الحضارة ، لأن كلمة المدنية مشتقة من المدينة ، و الإيلاف بدوره يوحي بالتواجد في مكان واحد ، أما الحضارة فهي مشتقة من حضور الناس عند بعضهم ، بينما الإيلاف يدل على الحضور و التآلف ، و معروفأن التآلف أهم من مجرد الحضور ، و قد جعله الله سبحانه نعمة كبرى حين قال سبحانه : " و ألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألف بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم " (٢. (

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 204

(2)الانفال / ٦٣.

و قريش كانت القبيلة العربية التي ظهرت فيها بوادر المدنية باستقرارها في منطقة استراتيجية ، و أمنها ، و اشتغالها بالتجارة التي هي اكثر من مجرد علاقات اقتصادية ، لأنها توفر ايضا فرصة التواصل الثقافي.

و لا ريب ان كل هذه الفرص لم تتوفر لقريش إلا بفضل ما بقيت لديهم من آثار الوحي ، ومن تراث الحنفية الإبراهيمية ، وحسب النصوص الشرعية : كان النبي - صلى الله عليه وآله - من سلالة طاهرة موحدة ، لم تدنسها الجاهلية بشركها و فسوقها.

و كلمة قريش : جاءت من القرش بمعنى المال ، باعتبارهم كانوا تجارا ، و التقريش بمعنى الاكتساب ، و قيل : بل جذر الكلمة من الاجتماع ، حيث يقال تقرشوا : أي اجتمعوا ، و انما سموا بذلك حينما جمع قصي بن كلاب سائر قريش في الحرم و أنشدوا بعضهم:

أبونا قصي كان يدعى تجمعا به جمـع اللـه القبائـل مـن فهـرو يقال : ان الكلمة مأخوذة من سمك القرش ، لانه الأعظم بين أحياء البحر ، و قريش كانت الأعظم بين أحياء العرب.

و أنى كان الاسم و مصدره فان القبائل التي كانت تنتمي الى النضر بن كنانة بن خزيمة كانت تسمى بهذا الاسم.

و قد ذكر بعضهم قصة تعكس بداية اهتمام هذه القبيلة بأمر التجارة في عهد عمرو بن عبد مناف (١) وهي تدل على ان ذلك كان بسبب مجاعة اصابتهم ، كما ان تلك المجاعة دعتهم الى تنظيم علاقاتهم الاجتماعية بصورة أفضل ، حتى قال(١ (القرطبي / ج ٢٠ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

شاعرهم في صفة التواسي بينهم:

و الخالطـون فقيـرهم بغنيهـم حتـى يصيـر فقيـرهـم كالكـافـي[٢] [إيلافهم رحلة الشتاء و الصيف[

أي ألفوا هذه الرحلة بفعل الله و فضله ، و كانوا يرحلون في الشتاء الى اليمن لانها بلاد دافئة ، بينما يتجهون صيفا الى الشام لمناخها المعتدل.

و قال بعضهم : بل كانوا يشتون بمكة ، و يصيفون بالطائف و أنشدوا:

تشتـي بمكـة نعمـة و مصيفهـا بالطـائـفو سواءا كانت التشتي و الاصطياف بهذه الارض او تلك او بهدف التجارة او المتعة ، فان ذلك يعكس مستوى رفيعا من المدنية و الغنى ، أليس الانسان كلما تحضر أكثر كلما بحث عن وسائل الراحة ، حتى ولو اقتضى الأمر الارتحال من بلد لآخر ؟

[3]ما الذي جعلهم في أمن و غنى ، أليس جوارهم لبيت الله ؟ فلماذا الشرك به و التمرد على رسالاته ؟ ! وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ! واي انتكاسة كبيرة في فطرة الانسان تلك التي تجعل جزاء الإحسان كفرا و عصيانا ؟!

]فليعبدوا رب هذا البيت[

فلأجل شكر نعمة إيلاف الله رحلة الشتاء و الصيف لقريش عليهم ان يعبدوا رب هذا البيت ، الذي كان محور إيلافهم و وحدتهم و حضارتهم ، و كما تفاعل المجتمع مع محور تقدمه و حضارته ، ومع أسباب رفاهه و غناه كلما كان ذلك سببالدوام نعم الله عليه و زيادتها و تناميها.

[4]بسبب الإيلاف الذي كان بدوره نابعا من جوار البيت الحرام ، وفر الله لقريش أهم نعمتين : الغنى و الأمن بالرغم من تواجدهم في بلاد قاحلة ، لا زرع فيها ولا ضرع ، بلاد قاسية دعت أهلها المعدودين الى الصراع مـــن أجل البقاء ، فكانوا في حروب لا تنتهي ،شعارهم الخوف ، و دثارهم السيف . في هذه البيئة القاسية الفقيرة الخطيرة وفر الله لقريش الطعام و الأمن . ألا يدعوهم ذلك الى الشكر و الطاعة ؟

]الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف[

ان قريشا نسبت ان كل ذلك كان بفضل آثار الرسالة الإبراهيمية التي تجلت في دعاء مجدد بناء الكعبة المشرفة ، الذي جار الى الله قائلا : " قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا و اجنبني و بني أن نعبد الاصنام " (١. (

لكنهم أخطؤوا في تفسير هذه الظاهرة الفريدة في محيط الجزيرة العربية الذي كانت القبيلة في دوامة من الحروب الدامية ، و الأزمات الاقتصادية الخانقة ، و كان خطأ قريش في تفسير ذلك حائلا إذ جعلهم يواجهون رسالة الاسلام ، مما أزال سيادتهم على الجزيرة ، و سلبمنهم شرف سدانتهم للحرم ، و فتح الله مكة لنبيه الكريم محمد - صلى الله عليه وآله - و جعلهم الطلقاء بعد ان كانوا سادة العرب!

و يبدو ان هذه السورة الكريمة وفرت فرصة ذهبية لقريش لكي تصحح نظرتها الى نفسها ، حتى لا تفتخر بما تملك من متعة و غنى ، و لا تتخذها وسيلة للطغيان و العصيان ، و نشر الفساد في الارض ، و الاستكبار على الناس . و لكن قريشا لم(١) ابراهيم / ٣٥.

تنتفع بذلك لا في عهد هبوط الآية ولا بعدئذ ، حيث انها كادت لرسول الله ، و حاربت رسالته ، فلما نصره الله عليهم دخلوا في الاسلام و قلوبهم مليئة بأحقاد الجاهلية ، ثم انضووا تحت راية الحزب الأموي الحاقد على الاسلام ، و انتقموا من آل الرسول ، و قال شاعرهم يزيد بن معاوية بعد قتله للامام الحسين عليه السلام :

لعبـت هـاشـم بالملـك فـلا خبـر جـاء و لا وحـــي نـــزللست مـن خنـدف ان لم انتقـم مـن بنـي هاشـم ما كـان فعـلو هكذا أذلهم الله و جعلهم عبرة لكل معتبر.

و اليوم إذا استمرت العرب تفتخر بثرواتها و بأمجادها بعيدة عن رسالات الله فان مصيرها لن يكون أفضل من عاقبة قريش و حزبه الأموي ، أما إذا اعتزو بالاسلام فان الله يرفع شأنهم ، و يعيدهم الى شرفهم الأسمى ، و مجدهم التليد.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي جعفر - عليه السلام - قال : " من قرأ " أرأيت الذي يكذب بالدين " في فرايضه و نوافله قبل الله عز وجل صلاته و صيامه ، و لم يحاسبه بما كان معه منه في الحياة الدنيا "نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٧٧

الإطار العام

القران ميزان ومن دونه لا يملك الانسان بصيرة بنفسه ليعرف من هو وكيف هو ؟ أليس حب الذات يجعله يزعم أبدا انه على صواب ؟ بينما هنالك مقاييس ان طبقت عليه كان صالحا ، وإلا لا يغنيه التنمي و التظني و الإدعاء شيئا.

ولا يكفي ان يدعي أحد انه مسلم ، و انه يؤمن بالآخرة ، انما يجب ان يصدق عمله قوله . و سورة الماعون تذكرنا بهذه الحقيقة ، و تبين صفات المكذب بالدين وإن ادعى التصديق به و هي : طرد اليتيم ، الرغبة عن المسكين ، الاستهانة بالصلاة و الرياء فيها ، و منع الخير عن أهله.

و هكذا تأتي السورة المباركة فرقانا يميز المؤمن حقا بالدين و المكذب به.

أرأيت الذي يكذب بالدين

بينات من الآيات

[1]تلك الصفات التي تسوقها سورة الماعون هل تؤخذ مفردة أم جميعا ؟ نقل عن بعضهم الثاني ، فالمكذب بالدين هو الذي يجمع الصفات الثلاث ، وهذا هو الظاهر ؛ لان صفات الشر تتداعى كما تتداعى صفات الخير ، و هكذا تعرفنا السورة الكريمة بالذين يكذبون بالدين من هم ، حتى نتقي تلك الصفات وما يؤول اليها من التكذيب بالدين.

]أرايت الذي يكذب بالدين[

هل رأيته بشخصه و عرفته بصفاته ؟ و الدين هو الجزاء ، و قيل : بل الاسلام و القرآن ، و لكن محور اي دين هو الايمان بالجزاء ، الذي ينعكس على النفس بالإحساس بالمسؤولية ، وهو معنى الدين بمعناه الشامل.

[2]الايمان بالدين يزكي نفس الانسان ، و يخرجها من شحها و ضيقهاو جهلها ، و يستثير فيها فطرة الحب ، و بواعث الخير ، و حوافز المعروف ، و يجليها بالعواطف الجياشة تجاه المستضعف و المحروم ، بينما الذي يكذب الدين تراه يدع اليتيم ، ذلك الطفل البريء الذي حرم حب والده (او والدته) و حنانه و

عواطفه.

]فذلك الذي يدع اليتيم[

قالوا :الدع : الطرد و الدفع بعنف وقوة ، وهو يكشف عن قسوة القلب ، و تبلد العاطفة ، و قد لا يطلب اليتيم منهم شيئا سوى الترحم حتى يستعيض به ما فقده من بركات والده ، و لكن القلب القاسي الذي يتمحور حول المصالح لا يجد باعثا لاستقبال اليتيم ، لانه لا يتوقع من ورائه مصلحة دنيوية عاجلة.

وقد حض الاسلام على احترام اليتيم و ايوائه ، حتى روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " من ضم يتيما من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة. (1) "

[3]من أسوء ما يبتلى به الذي يكذب الدين مسخ الشخصية ، و انتكاسة الفطرة ، فتراه لا يتأثر بمنظر المسكين الذي يتضور جوعا ، ولا يحض أحدا على توفير نصيبة من الطعام ، انه لم يعد انسانا ينبض قلبه بحب نظرائه من البشر.

]و لا يحض على طعام المسكين [

قالوا : الحض بمعنى الترغيب ، و قال بعضهم ، الطعام هنا بمعنى الإطعام ، و قال بعضهم : بل الطعام بمعنى ما يستحقه اليتيم من الطعام ، إشارة الى انه من حقهم و من مالهم ، كما قال ربنا سبحانه : " و الذين في أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم " (٢. (

(1)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 211

(2)المعارج / ٢٥.

و هكذا لا يعتبر اطعام المسكين سوى رد حقه اليه ، و على المجتمع ان يكون شاهدا على ذلك و رقيبا ، كما يراقب وضع السلطة و الأمن و الاقتصاد ، و كما يشهد على سائر الحقوق ان ترد الى أهلها ، ومن لم يقم بشهادته ، و ترك المسكين يتضور جوعا فانه يستحق القعاب ،لانه ساهم في إفساد المجتمع ، و نشر الفقر في أرجائه ، كالذي يرى الطاعون ينتشر بين الناس فلم يمنعه وهو قادر على المنع ، او يترك الأسد ينهش طفلا فلا يردعه ، او يترك الصبي يتردى ، و الأعمى يصطدم و لا يحرك ساكنا.

ومن هنا يصبح الحض على طعام المسكين واجبا بحد ذاته و تركه حراما ، وهو واجب يشترك في مسؤوليته القادر على إطعام المسكين و غير القادر عليه.

[4]و طعام المسكين أبرز مصاديق الزكاة ، و الزكاة عدل الصلاة ، و عادة ما يذكران معا في القرآن ، بيد ان الصلاة ليست مظهرا خارجيا من مظاهر الدين ، بل هي قبل ذلك صلة العبد بالرب ، فالذي يفسد هذه الصلة بالرياء ، و يستخدم أقدس مقدساته في أمور الدنيا فانله الويل و اللعنة.

]فويل للمصلين[

الذين اتخذوها وسيلة الدنيا ، وهي معراج الآخرة ، و هكذا تساهلوا فيها.

[5]فتراهم ينشطون الى الصلاة في الملأ ، و يسهون عنها في الخلاء ، و الصلاة حقا هي التي تبتلك عن الخلق الى الخالق ، وعن الدنيا الى الآخرة ، وعن الجسد الى الروح ، و المؤمن ينبعث اليها في الخلوات في رحم الظلام عند سبات الطبيعة ، حينما تحلو المؤانسة معخير الذاكرين ، و المناجاة مع رب العالمين ، بينما المنافق يسهو عنها عندئذ و يخلو الى الغفلة و اللذة و وساوس ابليس.

]الذين هم عن صلاتهم ساهون [

ومن أبعاد السهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها لغير عذر ، هكذا روي في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - قال : " تأخير الصلاة عن أول وقتها لغير عذر " (١. (

و روي عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - " ليس عمل أحب الى الله عز وجل من الصلاة ، فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا ، فان الله - عز وجل - ذم أقواما فقال : " الذين هم عن صلاتهم ساهون " يعني انهم غافلون ، استهانوا بأوقاتها " (٢(

[6]و الصلاة تمد المسلم بزاد الايمان الذي يحتاج اليه في كل شؤون الحياة ، و من اتخذها هزوا ، أو عملها رياءا فقد أفنى زاده و هلك.

]الذين هم يراءون[

[7]و الصلاة الحقيقية تحرر الانسان من شح ذاته ، فتكون يده سخية ، ينصر المظلوم ، و يعين المحروم ، بينما الذي يرائي في صلاته يمنع أبسط الحقوق المفروضة عليه.

]و يمنعون الماعون[

قالوا الماعون : أصله المعنى وهو القليل ، ومعناه كل ما فيه منفعة ، وقالوا : انه ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو ، و الفاس و القدر ، و مالا يمنع كالماء و الملح (٣. (

(1)الميزان / ج ٢٠ - ص . 368

(2)المصدر / ص ٣٦٩.

(3)جاء في مجمع البيان انه روي مرفوعا عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - المصدر / ج ١٠ - ص ٥٤٨.

و جاء في الحديث عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " هو القرض تقرضه ، و المعروف تصنعه ، و متاع البيت تعيره ومنه الزكاة " (قال الراوي) فقلت : ان لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسروه و أفسدوه ، فعلينا جناح ان نمنعهم ؟ فقال : " لا . ليس عليك جناح ان تمنعهم إذا كانوا كذلك(1) " و بالرغم من أنهم ذكروا اثنتي عشر قولا ، فان الأقوال تعود جميعا الى أمر واحد هو المعروف كله ، و لكن يبدو انه المعروف الذي يعتبر الذي يمنعه خسيسا و منبوذا اجتماعيا ، لانه من النوع الذي يقارن فيه الناس عادة ، مثل إعارة الظروف ، و إعطاء النار و الملحو ما أشبه.

و السورة - عموما تدل على ان مكارم الاخلاق ميراث التصديق بالدين ، كما ان التكذيب بالدين يورث الرذائل التي يرفضها العقل و العرف ، فترى الساهين عن الصلاة يمنعون عن الآخرين حتى الماعون الذي يتبادله الناس بينهم.

(1)المصدر.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ " إنا أعطيناك الكوثر " في فرائضه و نوافله سقاه الله من الكوثر يوم القيامة ، و كان محدثه عند رسول الله - صلى الله عليه وآله - في أصل طوبى "نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٨٠

الإطار العام

يجمل القرآن في ثلاث آيات قصار معارف ربانية يبينها في مفصلات السور ، فاذا بهما معا معجزة في الحكمة و الخطاب.

فهذا القرآن ، و تلك الذرية الصالحة الذين يحملونه الخيرة بعد الخيرة ، و تلك الامة التي يباركها الله بالقرآن و العترة ، ان كل ذلك كوثر أعطاه الله لمصطفاه الكريم محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله - ومن يملك هذا الامتداد الميمون كيف يكون أبترا ؟!

انما الأبتر الذي يشنأ محمدا ، و ينقطع حسبه و نسبه ، و تباد جاهليته ، كما ظلام الليل يتبدد مع بزوغ الفجر.

و شكرا لنعمة الكوثر و استزاده منه يصلي الرسول لربه و ينحر ، و نصلي و ننحر.

إنا أعطيناك الكوثر

بينات من الآيات

[1]لقد حبى الله و رسوله الكوثر ، ذلك الخير العظيم الذي جعله رحمه مهداة الى العالمين ، و وسيلة بركات الله على المؤمنين.

]إنا أعطيناك الكوثر[

قالوا :ان الكوثر مشتق من الكثير ، على صيغة فوعل ، كما لفظة النوفل المشتقة من النفل ، و الجوهر المشتقة من الجهر ، و هكذا عبرت العرب عن كل شيء كثير من الكمية ، عظيم في النوعية بالكوثر.

قالوا في تأويل كلمة الكوثر أقوالا شتى يجمعها القول : بان الله قد حبى نبيه خيرا كثيرا يتسع لكل حقول الخير ، ولكل أبعاد حياته ، من الرسالة المباركة ، الى الذرية الطاهرة ، الى الامة الشاهدة ، الى الذكر الحسن ، الى الشفاعة عند الله ، والبالحوض الذي يستقبل ضيوف الرحمن قبل دخولهم الجنة.

بيد ان أعظم تأويلات الكوثر هو الكتاب و العترة ، لأنهما الثقلان اللذان خلفهما الرسول من بعده لامته ، و أمرهم بالتمسك بهما ، و أضاف : " إنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض. "

و هكذا يكون حوض الكوثر في الجنة او على مداخلها تجسيدا للكوثر في الدنيا المتمثل بالكتاب و العترة.

و يتناسب هذا التفسير مع سياق السورة حيث تنعت شانىء الرسول بأنه الأبتر ، و مفهومه ان الرسول تمتد عترته و ذريته من بعده ، بعكس العاص بن وائل السهمي الذي قيل ان السورة نزلت بعد ان قال عن الرسول أنه أبتر.

و هكذا جاء في سبب نزول السورة : ان رسول الله - صلى الله عليه وآله - دخل من باب الصفا ، و خرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي ، فرجع العاص الى قريش ، فقالت له قريش : من استقبلك يا أبا عمرو آنفا ؟ قال ذلك الأبتر ، يريد به النبي - صلى الله عليه وآله - حتى أنزل الله هذه السورة (١. (

و نجد في النصوص التي تفسر هذه الكلمة إشارة الى أهل بيت النبي ، و كيف يذاد عن حوض الكوثر من ظلمهم من بعده .

فقد أخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : قد أعطيت الكوثر " فقلت : يا رسول الله ! ما الكوثر ؟ قال " : نهر في الجنة عرضه و طوله ما بين المشرق و المغرب ، لا يشرب منه أحد فيظمأ ، ولا يتوضأ منه أحد فينشعث أبدا ، لا يشرب منه من أخفر

(1)الدر المنشور / ج ٦ -ص ٤٠١.

ذمتي ، ولا من قتل أهل بيتي " (١(

و من هنا ذكر الفخر الرازي هذا القول و أيده ببعض الشواهد . فقال : القول الثالث : الكوثر أولاده ، لان هذه السورة إنما نزلت على من عابه - عليه السلام - بعدم الأولاد ، فالمعنى : انه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالممتلىء منهم ، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به ، ثم أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم و الرضا - عليهم السلام - و النفس الزكية و أمثالهم (٢. (

و يبقى سؤال : هل الكوثر في القيامة حوض كبير في مدخل الجنة أم نهر كريم في عرصاتها ؟

لعل الكوثر نهر يفيض خيره الى مداخل الجنة و يصب في حوض عظيم.

دعنا - في خاتمة الحديث عن الكوثر - نذكر بعض الأحاديث في صفة ذلك النهر و الحوض.

جاء في حديث مسند الى ابن عباس انه قال : لما نزل على رسول الله : " إنا أعطيناك الكوثر " قال له علي بن أبي طالب : " ماهو الكوثر يا رسول الله ؟ ""قال نهر أكرمني الله به " قال علي : " ان هذا النهر شريف فانعته لنا يا رسول الله ؟ " قال : " نعم يا علي ؟ الكوثر نهر يجري تحت العرش ، ماؤه أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل ، و ألين من الزبد ، حصاه الزبرجد و الياقوت و المرجان ، حشيشه الزعفران ، ترابه المسك الاذفر ، قواعده تحت عرش الله(١) المصدر / ص ٤٠٢.

(2)التفسير الكبير /ج ٣٢ - ص ١٢٤.

عز وجل " ثم ضرب رسول الله على جنب أمير المؤمنين و قال : " يا علي ! هذا النهر لي و لك و لمحبيك من بعدي " (١. (

و اورد مسلم في صحيحه عن أنس انه قال : بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى أغفاة ، ثم رفع رأسه مبستما ، فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : " أنزلت علي آنفا سورة " فقرأ سورة الكوثر ، ثم قال : " أتدرون ما الكوثر ؟ " قلنا : الله و رسوله أعلم ، قال : " فانه نهر وعدنيه ربي ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يــوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، فيختلج القرن منهم فأقول : يا رب ! أمتي ، فيقال : انك لا تدري ما احدثوا بعدك " (٢. (

[2]لا يبلغ العبد كمال الانتفاع بنعم ربه إلا بمعرفة الله . و التقرب اليه زلفــى . أرأيت الذي أسبغ الله عليه نعمة الأمن و العافية و الغنى ، و لكنه يجحد ربه كيف يفسد تلك النعم بكفرانها ؟! فيستغل الأمن في إشاعة الفساد ، و العافية في اتباع الشهوات ،و الغنى في الطغيان ! كما يفسد النعم بالحرص و الطمع و القلق و القنوط و سوء الخلق.

و أعظم نعم الله على الانسان الرسالة لانها تهديه الى سبل السلام و تعينه في تسخير الحياة ، و ترشده الى العيش الافضل ، و لكن الرسالة بدورها لا يحتملها إلا من عرف الله ، و شكره عليها بالعمل و الاداء.

و الصلاة و الزكاة هما عمودا الرسالة الإلهية ، لان الصلاة توصل الانسان بنور ربه ، و الزكاة تطهر قلبه من

الشح و الإستئثار و عبادة الدنيا .. و هكذا أمر الله بهما بعد بيان نعمة الكوثر ، فقال:

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٨٣.

(2)المصدر / ص ٦٨١.

]فصل لربك و انحر[

فكلما ازداد الانسان يقينا بربه - عبر الصلاة و الزكاة - كلما ازداد هدى و فوزا و انتفاعا بنعم الله و بالذات بنعمة الكوثر ، التي هي كتاب الله و عترة رسول الله.

و أنى كانت الصلاة : صلاة العيد في اليوم العاشر من ذي الحجة ، او صلاة الصبح في المزدلفة ، او كل صلاة فريضة ، فانها بالتالي الشكر المناسب لنعمة الكوثر.

و كذلك النحر سواء كان الأضحية في يوم العيد بمنى او أية أضحية و أي نسك ، فإنه يقوم بدوره في تطهير القلب.

وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية كما في الآية السابقة على أقوال شتى ، يمكن جمعها في معنى عام واحد ، بيناه آنفا.

بيد ان هناك نصوصا تصرح بان النحر هنا رفع الأيدي باتجاه القبلة عند الصلاة .. اليك بعضها.

جاء عن الامام الصادق - عليه السلام - أنه سئل عن الآية : فقال بيده هكذا ، يعني استقبل بيده حذاء و جهة القبلة في افتتاح الصلاة (١. (

و أخرج البيهقي في سننه و غيره عن علي ابن أبي طالب - عليه السلام - قال : " لما نزلت هذه السورة على النبي - صلى الله عليه وآله - " إنا أعطيناك الكوثر " قال النبي لجبرئيل : ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال أنها ليست(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٨٣.

بنحيرة ، و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فانها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، و ان لكل شيء زينة و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة " (١. (

و اني لم أصل الى معنى جامع يستوعب هذا التفسير و التفسير السابق الذي ورد بعض النصوص تؤكده ايضا ، بلى . قد نقول : ان رفع اليد علامة الاستعداد للتضحية بالنفس كأن الانسان يشير الى نحره ، و انه يقدمه قربانا لربه ، بينما نحر البدن في منى هو المعنى الحقيقي للكلمة.

و أنى كان فقد روي عن سعيد بن جبير انه قال : كانت هذه الآية يوم الحديبية ، عندما صالح النبي قريشا ، أتاه جبرئيل فقال : انحر و ارجع (٢. (

و جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - ان معنى النحر الاستعداد في القيام قال " : النحر الاعتدال في القيام ، ان يقيم صلبه و نحره " (٣. (

والى هذا ذهب طائفة من المفسرين حيث قالوا : " انحر " : بمعنى ابدأ النحر ، و لا يبدأ النحر إلا عند الاعتدال ، و قالوا ان منه التناحر بمعنى التقابل ، و لكن يبدو ان المعنى الأول ينسجم مع ظاهرة قرآنية : فلا يذكر الصلاة إلا مقرونة بالزكاة أو الانفاق.

[3]من إعجاز القرآن أنه بشر رسوله بالكوثر ، يوم كانت عصابات قريش تحاصره ، و تعذب أنصاره ، و تكاد تقضي عليه ، و اليوم أصبح دين الاسلام ظاهرا في(١) الدر المنشور / ج ٦ - ص ٤٠٣.

(2)المصدر.

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٨٤.

الارض ، و الرسول أعظم شخصية عبر العصور وفي كل الآفاق .. بينما انقطع نسل شانئيه ، و أصبحوا أحاديث و عبر ، كما قال ربنا سبحانه.

]ان شانئك هو الأبتر[

لقد قطع ذكره إلا باللعنة و البراءة.

سواء كان هذا الشانىء هو العاص بن وائل أو أبو جهل او عقبة بن أبي معيط او غيرهم ، و سواء كانت مناسبة حديثهم عن الرسول بموت القاسم ابن رسول الله في مكة ، او إبراهيم ابنه في المدينة فإن الأمـر لا يختلف ، إذ ان ذلك الخط الجاهلي قد إنقطع و انبتر ، و بقي خط النبي يضيء عبر العصور.

و الشانىء : هو العدو الحاقد ، و الأبتر : من البتر بمعنى القطع ، و كانت العرب تسمي الذي لا ولد له بالأبتر ، و قيل : اتهم النبي بهذه الصفة لانه تركهم و انبتر عنهم و خالفهم ، و لكنهم هم الذين انبتروا و أصبحوا شذاذا.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - : " من قرأ " قل يا أيها الكافرون " و " قل هو الله احد " في فريضة من الفرائض غفر الله له و لوالديه وما ولد ، و ان كان شقيا محي من ديوان الاشقياء ، و أثبت في ديوانالسعداء ، و أحياه الله سعيدا ، و أماته شهيدا ، و بعثه شهيدا "نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٧٠

الإطار العام

هل تدري لماذا اعتبر الرسول الأكرم - حسب رواية معروفة - سورة الكافرين ربع القرآن ؟ ربما لان نصف القرآن أو يزيد يهدي الى حقائق التوحيد ، و التوحيد -بدوره - يتشكل من جزئين : الايمان بالله ، و نفي الشركاء ، و نجد في هذه السورة عصارة رفض الشركاء في ربع القرآن.

و تتكرر في هذه السورة كلمات البراءة مما يعبد المشركون ، و ان الرسول لن يؤمـــن بما يؤمنون به من الاصنام ، لينفصل و بوضوح خط التوحيد عن خط الشرك.

لكم دينكم ولي دين

بينات من الآيات

[1]هناك حقائق تكفينا معرفتها و وعيها و العمل بها ، بينما لا يكفي ذلك في حقائق أخرى مثل نفي الشركاء إذ لابد في مثلها من البراءة عنهم ، والكفر الصريح بهم ، و تحدي سلطانهم الثقافي و

السياسي و الاجتماعي حتى يخلص ايمان لعبد ، و لذلك جاءت بعض آيات التوحيد متوجة بكلمة " قل " التي تطالبنا بموقف واضح فاصل حاسم من الشركاء ، اي من القوى الجاهلية التي تتسلط على رقاب العباد ، و من القيم الفاسدة التي تتحس في النفس ، و من السلوك الفاسد الذي يصبغ حياة الناس.

]قل[

بكل وضوح ، لان كلمة الرفض قد تكون أشد من الرفض ذاته ، لانها تشجع الآخرين عليه ، الا ترى كيف ان الكثيرين قد يعارضون حكومة جبار في السر ،و لكن القليل منهم يعلنون لافضهم له إعلانا . و الله يأمرنا بإعلان الرفض وفي صيغة خطاب موجه الى الكافرين جميعا ، الغائبين منهم و الحاضرين.

]يآ أيها الكافرون[

انها الشهادة التي أمرنا بها ، و التي نرددها من أعلى المنابر ، في مواقيت الصلاة و عند خواتيم الفرائض ، الشهادة بالتوحيد التي تعني صراحة رفض الانداد و الشركاء ، كما تعني الحضور في ساحة المواجهة ضد هؤلاء الشركاء ثم الصراع الشامل معهم ، ذلك ان الشركاءليسوا اشباحا أو نظريات ، أنهم حقائق ثقيلة تمشي على الارض بالجبروت و الفساد ، فالشهادة على رفضهم تعني الحضور في سوح الصراع معهم.

[2]و رفض المجتمع الجاهلي ، و هدم كيانه الظالم لا يكون إلا برفض مقدساته و قيمه ، وما يعبدونه من دون الله ، رفض تقديس الآباء الذي يعني الجمود و التقليد و الاسترسال ، رفض تقديس الارض و المصالح العشائرية و الطائفية و الحزبية و الاقليمية و القومية ، رفض الثقافات و الشرائع الباطلة التي اضفوا عليها القداسة . كلا..

]لا أعبد ما تعبدون[

ذكر الرواة : ان سادة قريش لقوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقالوا :يا محمد ! هلم فلنعبد ما تعبد ، و نشترك نحن و أنت في أمرنا كله ، فان كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه و أخذنا بحظنا منه ، وان كان الذي بأيدينا خيرا ممابيدك كنت قد شركتنا في أمرنا و أخذت بحظك منه ، فأنزل الله عز و جل " قل يا أيها الكافرون " (١) و أضيف - في رواية أخرى - فيئسوا منه ،(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ٢٢٥.

و آذوه و آذوا أصحابه.

و معروف : ان الآية أوسع دلالة من تلك الواقعة ، فان نفي عبادة الرسول لما يعبدون يشمل تحديه لمجمل قيهمه الجاهلية ، و كياناتهم الظالمة.

و كلمة " ما " في قوله : " ما تعبدون " يشمل كل شيء يعبد من دون الله ، سواء تمثل في أشخاص أو أصنام أو قيم وهكذا كان نفي " ما " أشد وضوحا و أشمل من نفي " من " و تدل على غير العاقل.

[3]هل يشترك الكافرون في أمر العبادة مع المؤمنين شيئا ؟ كلا .. انهم يعبدون إلها يختلف كليا عن رب العالمين الذي يعبده المؤمنون . أولئك يعبدون ربا عاجزا أمام قوة الشركاء ، محتاجا الى دعم الأنداد ، لا يهيمن على تدبير الكائنات ، بينما المؤمنون يعبدون ربا قويا مقتدرا ، لا يعجزه شيء ، ربا جبارا مهيمنا مدبرا.

فليس ما يعبده الكافرون هو ما يعبده المؤمنون ، بل إنه لمختلف جدا.

]ولا أنتم عابدون ما أعبد[

و أنى لقلب واحد ان يجتمع فيه معرفة الله المتكبر الجبار مع الايمان بالجبت و الطاغوت ، أو هل يجتمع

النور و الظلام ؟!

[4]و الذي يعبد الجبت و الطاغوت و لا يتحدى سلطة المستكبرين ، و قيم الجاهلين لا يكون عابدا لله ، و حاشا رسول الله و لمن اتبع هداه ان يختاروا الكفر بعد الايمان ، و الضلال بعد الهدى ، حتى لو تعرضوا الألوان العذاب.

]ولا أنا عابد ما عبدتم[

ان من علامة صدق الايمان ، وأنه وقر مستقر في فؤاد صاحبه أنه يعقد عزمات قلبه على تحدي كل الضغوط في سبيله حتى يأتيه اليقين ، فيلقى ربه بايمان لا ظلم فيه ، و اسلام لا استكبار معه.

و إلا فان كل الناس حتى أسوأ الجاحدين يمرون عادة بلحظات ايمانية ، أوليسوا يولدون على فطرة الايمان ، أو لا ترى كيف يجأرون الى ربهم في البأساء و الضراء ؟ بلى . و لكنهم سرعان ما يشركون بربهم بسبب الشهوات ، أو ضغط الطغاة و المجتمع الفاسد.

[5]و كذلك يتمايز خط الايمان و الشرك و لن يلتقيا على محور واحد ، فلا ترى أحدا من الكفار بالله أبدا عابدا له ، كيف وأن أول ما يأمر به الله هو الكفر الطاغوت و مقاومة الجبت.

]و لا أنتم عابدون ما أعبد [

أي أنهم حال شركهم بالله ليسوا من الله في شيء ، لأن الشرك حجاب بين الانسان و ربه ، حجاب في القلب و حجاب في السلوك ، و إنما تتجلى قيمة الايمان في كبح جماح التكبر في النفس ، و كبح جماح المستكبرين في المجتمع ، ليتحرر الانسان من الجبت و الطاغوت ، و يعود الى نور عقله و صفاء فطرته ، و يمضي قدما في تسخير الطبيعة في الدنيا ، و ابتغاء مرضاة الله و نعيم الجنة.

أما المستسلم للضغوط ، المسترسل مع شهوات النفس و أهواء المتجبرين ، فإنه ليس بمؤمن بالله.

أوليس الايمان بالله يعطي الانسان بصيرة و عزما ، و حكمة و شجاعة ، عقلاو توكلا ؟ و هل يمكن لمن أوتي تلك الصفات المثلى ان يتبع هواه و يطيع الطغاة ؟

[6]و هكذا استبان طريق الضلال عن سبيل الله ، و دين الكفار عن دين الحق.

]لكم دينكم ولي دين[

و الدين هو المنهج المتكامل الذي يلتزم به الانسان في حياته ، و لا يجتمع منهج الله مع منهج الشرك ، و قال بعضهم : الدين هنا بمعنى الجزاء ، فمعناه :أن لكل شخص جزاء عمله و عبادته . أن خيرا فخير وأن شرا فشر . و المعنى الأول أوفق مع السياق ؛ لأن جوهر الدين العبادة ، فمن عبد الله دان بدينه ، و من عبد الشركاء دان بدينهم.

و هذه البراءة الصريحة من دين الشرك هي التـي ميزت دين الله عن دين الأدعياء ، و ميزت عباد الله عن عبد الطاغوت ، و ميزت خط الرسالة الأصيل عن سبل الضلال.

ان المشركين و المستكبرين و المترفين حاولوا عبر التاريخ التقاطع مع المؤمنين الصادقين بالترغيب و الترهيب فلم يفلحوا ، و كان هدفهم استخدام اسم الدين و شعاراته لتمرير فسادهم و ظلمهم ، و إضفاء الشرعية على تجبرهم و استغلالهم ، ولقد بقي رجال الله المخلصون صامدين أمام تلك المحاولات بتوفيق الله ، و بالرغم من تعرضهم لشتى الوان الأذى.

و جاءت هذه السورة التي استفاضت على أهميتها النصوص الشرعية ، وثيقة براءة من المشركين ، و سدا منيعا أمام محاولاتهم التأثير في التجمع الايماني.

و انما تكررت آيات النفي لتأكيد هذه البراءة و ذلك الفصل ، و من عادة العرب التكرار للتأكيد و أنشدوا للشاعر:

يــا أقرع بن جامس يا أقرع إنــك إن يصــرع أخــوك تصــرعو هكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - عن سبب نزولها و تكرارها : " ان قريشا قالت لرسول الله تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة ، و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة فأجابهم الله بمثل ما قالوا ، فقال قالوا : تعبد آلهتنا سنة " قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون " . و فيما قالوا : نعبد إلهك سنة : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " و فيما قالوا تعبد آلهتنا سنة : " ولا أنا عابد ما عبدتم " و فيمــا قالوا : و نعبد إلهك سنة " : ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٨٨.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من قرأ " إذا جاء نصر الله و الفتح " في نافلة أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه ، و جاء يوم القيامة و معه كتاب ينطق ، قد أخرجه الله من جوف قبره ، فيه أمان من جسر جهنم و من النار و من زفير جهنم ، فلا يمر على شيء يوم القيامة إلا بشره و أخبره بكل خير حتى يدخل الجنة ، و يفتح له في الدنيا من أسباب الخير مالم يتمن ولم يخطر على قلبه. "

نور الثقلين / ج ٦ - ص ٦٨٩

الإطار العام

بعد جهاد دائب ، و انتظار طويل يأتي نصر الله و الفتح ، الذي لا يبتغي المؤمنون من ورائه سوى هداية الناس الى الحق .. وهكذا تراهم فرحين حين يجدون الناس يدخلون في دين الله أفواجا .. انها بشارة عظمى ولكنها لن تدعوهم الى الغرور ، بل يتخذونها معراجا روحيالنفوسهم الوالهة بحب الله ، فيسبحونه و يحمدونه و يستغفرونه.

و التسبيح سبيل معرفة الله و التقرب اليه و الحمد وسيلة منع الغرور و الكبر عن النفس ، و الاستغفار طريق تكميل النواقص .. وهكذا توجز هذه السورة الكريمة برنامج المؤمن عند النصر و عند أي فضل يصيبه من عند الله.

سبح بحمد ربك و استغفره

بينات من الآيات

[1]و تتظاهر القوى السياسية و الاقتصادية و الاعلامية ضد الرسالة و يحاصرونهم من كل صوب ، و تضيق بهم السبل ، و يلقي الشيطان وساوسه في أفئدتهم ، و يظنون بالله الظنون ، و يطول ليل الانتظار ، و ينادي الجميع : متى نصر الله ؟

و جاء نصر الله ، يسعى اليهم من ضمير الغيب ، حيث يعرف المؤمنون بوعيهم السياسي و الحركي ، و ببصائر قلوبهم العارفة أنهم كانوا أعجز من اقتناص النصر بقواهم الذاتية ، و انما هو نصر الله الذي هزم عدوهم بالرعب ، و أيدهم بالثبات و الاستقامة ، و ألف بين قلوبهم بالايمان.

و أتبع الله النصر بنصر آخر ، و تلاحقت الانتصارات حتى جاءهم الفتح المبين ، هناك بلغ المؤمنون أعظم

أمانيهم ، حيث رأوا الناس يدخلون في دين اللهأفواجا.

ثم يعاني الداعية حين يرى الناس في ضلال مبين ، و يجد القوى الجاهلية تقف حاجزا دون انتشار هدى الدين الى القلوب المظلمة ، و ربما بلغ الحزن ببعض الدعاة ان يموتوا كمدا ، و لهذا ينهى الله رسوله من ذلك بقوله سبحانه : " فلعلك باخع نفسك على آثارهم انلم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " (١. (

و اليوم يعمهم الفرح حين يرون كيف تساقطت الحواجز و انتشر نور الهدى.

]إذا جآء نصر الله و الفتح [

قالوا عن هذا النصر : إنه نصر الله رسوله على قريش في المعارك التي دارت بينهم ، و قيل : بل نصره على سائر الكفار ، أما الفتح ، فقالوا : أنه فتح مكة ، وهذا يتناسب وما جاء في وقت نزول السورة ، حيث روي : أنها نزلت بعد فتح مكة ، و ذكر في حديث آخر : انها آخر سورة نزلت على الرسول ، فقد جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " أول ما نزل على رسول الله " بسم الله الرحمن الرحيم * إقرأ باسم ربك " و آخره " إذا جاء نصره الله " (٢) و قيل : إنها نزلت بمنى في حجةالوداع (٣. (

و قد كانت تسمى هذه السورة بسورة التوديع لانها - حسب الرواية التالية - نعت الى الرسول نفسه ، هكذا يقول ابن عباس : لما نزلت " إذا جاء نصر الله و الفتح " قال - صلى الله عليه وآله - نعيت الي نفسي بأنها مقبوضة في هذه السنة . (٤)(١) الكهف / ٦

(2)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٦٦٠.

(3)المصدر نقلا عن تفسير علي بن ابراهيم.

(4)المصدر / ص ٦٨٩.

و ربما السبب في ذلك ان السورة قد أوحت اليه ان مسؤولية الرسول كمبلغ و داعية الى الله قد أكملت ، لذلك كان عليه ان يستعد للرحيل.

[2]النصر أو الفتح ليسا هدفا بذاتهما عند المؤمنين ، انما وسيلة الى هدف أسمى هو هداية الناس الى نور الرسالة.

]و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا[

فعندما تهاوت حجب الضلال و رأى النـــاس نور الدين فوجدوه دين الفطرة و العقل ، دين الحكمة و السماحة دخلوا فيه فوجا بعـد فوج ، يقود كل فوج إمامهم و داعيتهم ، و السابق منهم اليه ، و قد قال المفسرون : انها نزلت في أهل اليمن الذين توافدوا على النبي - صلى الله عليـه و آله - افواجا ، تقـول الروايـة المأثورة عن ابن عباس : ان النبي - صلى الله عليه وآله -قرأ " إذا جاء نصر الله و الفتح " و جاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم ، لينة طباعهم ، سخية قلوبهم ، عظيمة خشيتهم ، فدخلوا في دين الله أفواجا)
. (1

و هكذا انتشر نور الاسلام بعد فتح مكة في كافة أرجاء الجزيرة العربية ، و بدأ المسلمون يتحفزون للإنبعاث الكبير في أرجاء الارض.

و تهدينا بصائر هذه السورة و هدى سيرة النبي و عبر تاريخ الحركات الدينية : أن علينا ان نعقد العزم على تحطيم قلاع الكفر المتقدمة قبل نشر الرسالة ، فما دامت تلك القلاع تدافع عن قيم الجهل و التخلف ، و تمنع الناس بالترهيب و التضليل و الترغيب عن التغييرو الاصلاح ، لا ينفع التبليغ و التبشير

كثيرا ، ومن أجل هذا قاتل كثير من الأنبياء و الربانيون ، ومن أجل هذا جاهد الرسول الأكرم ، و من(١) القرطبي / ج ٢٠ - ص ٢٣٠.

أجل هذا ينبغي ان يجاهد و يقاتل كل مبلغ و داعية من يقف دون انتشار الدين.

[3]لان النصر من عند الله ينبغي ان نشكر الله عليه ، و نسبحه و نقدسه ، و نطهر بذلك أفئدتنا من تلك الوساوس الشيطانية التي أصابتها أيام المحنة ، فزعم البعض : ان الله تعالى قد أخلف وعده ، أو انه سبحانه لم يقدر على النصر أو ما أشبه ، مما يعبر عنه القرآن الكريم بالزلزلة حيث يقول : " و زلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب " (١. (

وها هـــو النصر قد أقدم ، فلنغسل بمياهه المتدفقة آثار الهزيمة ، و لنسبح الله.

ثم ان للنصر كما للهزيمة آثارا سلبية كالغرور و التكبر و التعالي و التطرف ، و عبر الايمان بالله ، و المزيد من اليقين يمكن السيطرة على تلك الصفات .. من هنا أمر الله بالتسبيح و الحمد و قال:

]فسبح بحمد ربك[

ثم ان المؤمن يتخذ من كل حادثة أو ظاهرة معراجا لروحه ، و وسيلة لتكامل نفسه ، و تنامي صفات الخير فيها ، و النصر واحد من أشد الحوادث أثرا في النفس البشرية ، و لذلك يتخذه المؤمن وسيلة للتعرف على ربه ، و التقرب إليه.

و التسبيح تقديس الله عن صفات المخلوقين وعن إحاطة علمهم به ، بينما الحمد نعت لله بالأسماء الحسنى وما فيها من صفات الجلال و الجمال ، و يقدم التسبيح على الحمد لان إثبات صفة لله قد يوحي ببعض آثاره السلبية ، فاثبات القدرة قد توحي بالظلم ، و إثبات الرحمة قد توحي بتجاوز الحكمة ، بينما ربنا مقتدر عدل و رحيم حكيم.

(1)البقرة / ٢١٤.

]و استغفره إنه كان توابا[

و يبقى طريق الكمال مفتوحا أمام الانسان ، و تبقى تطلعاته الى التسامي مشروعة ، و الاستغفار أقرب وسيلة الى تحقيقها ؛ لانه يوقف الانسان على نقاط ضعفه ، و مواقع عجزه ، و يحسسه من جهة بمدى حاجته الى الكمال . ومن جهة أخرى بإمكانية ذلك.

و حينما يحس الانسان بضعفه و عجزه و درجات قصوره و تقصيره يعتريه شعور عميــق باليأس من إصلاح نفسه لولا التوجه الى الله ، و التذكر بأنه تواب رحيم.

و حينما يستغفر المنتصر ربه لا يخضع لحب الانتقام من أعدائه الذين انتصر عليهم ، بل يتحلى بروح التسامح و العفو ، أوليس يطلب الغفران من ربه و العفو ، إذا فليعفو و ليغفر للمذنبين حتى يعفو عنه الله و يغفر له.

سورة المسد
الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد قطع رحمه و خان ، وكان عليه أن يدافع عن ابن أخيه في عرف العرب و قيمهم ، قطع الله يديه و قطعه ، و أهلكهما و أهلكه.

فهل نفعته أموالــه التي من أجلهــا خرج على أعراف العرب و قيم بني هاشـم . كلا ..كان يدعى أبا لهب ، فأمسى يصلى لهبا ، وهكذا امرأته التي مشت بالنميمة و اشعلت نيران الفتنة و كان عنقها محاطا بحبل من مسد ومن ليف النخل.

تبت يدا أبي لهب و تب
بينات من الآيات

[1]كان من أشراف قريش ، انتقلت اليه زعامة بني هاشم بعد أخيه الراحل أبي طالب -عليه السلام - و كان عليه أن يجسد قيم آبائه و عشيرته الذين ورثوا حنفية إبراهيم الخليل - عليه السلام - و ان يدافع عن ابن أخيه حسب أعراف العرب العشائرية.

ولكنه - فيما يبدو - تحالف مع العشيرة المناوئة من بني أمية ، و ربما بسبب زوجته أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب ، او لانه كان ذا ثروة طائلة ، فمال الى الطبقة الأثرى في قريش ، أو لأي سبب آخر فقطع رحمه ، و انسلخ عن حسبه ، و عادى النبي بأشد ما تكون العداوة.

كان يمشي في طرقات مكة وراء النبي و يحذر الناس منه و مما يزعم .. انه ساحر ، و كان الناس يعلمون انه كبير بني هاشم و انه يصدق في أمرهم فيرجعونااليه ، و لكنه كان يخون موقعه ، و يتهم النبي بالكذب حينا و بالسحر حينا ، وقد يفحش له في القول و يقول : تبا له.

يقول بعض المفسرين : كان إذا وفد على النبي - صلى الله عليه وآله - وفد انطلق اليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - و يقولون له : أنت أعلم به منا ، فيقول لهم أبو لهب : انه كذاب ساحر ، فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتى وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه و نسمع كلامه ، فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه ، فتبا له و تعسا.

و كان هو و زوجته ينشدون شعرا بذيئا ضد النبي ، و يقولون:

مذمما عصينا و أمره أبينا و دينه قليناو في يوم الدار حيث جمع النبي عشيرته الأقربين لينذرهم حسب أمر الله له ، فلما طعموا و شربوا ، قال أبو لهب : سحركم محمد - صلى الله عليه وآله - إن أحدنا ليأكل الجذعة (ولد الشاة فــي السنة الثانيـة) و يشرب العس (القدح الكبير) من اللبن فلا يشبع ، وإن محمدا قد أشبعكم من فخذ شاة و أرواكم من عس لبن.

و في يوم الإنذار العام ، حينما صعد النبي - صلى الله عليه وآله - الصفا ، فهتف يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعــوا اليه ، فقال لهم : " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ " قالوا : ماجربنا عليك كذبا ، قال : " فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب ، تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا ، ثــم قــام . هكذا أصبح عم النبي من أشد الناس عداوة له ، و أكثرهم إيذاء ، أوليس الناس يزعمون أنه أعرف بالنبي من غيره باعتباره عم النبي وسيد عشيرته ؟

و هكذا نزلت السورة الكريمة في شأنه أولا ليفصح للناس مدى عداوته للنبي ، فلا يعتبرونه خبيرا بشأنــه ، بل حسودا كنودا و عدوا لدودا ، و لا يأبهون بكلامه في حق النبي ، و ثانيا : لكي لا يزعم أحد ان قرابته للنبي تمنحه البراءة من النار ، و التحلل عن مسؤوليات الشريعــة ، فهذا عم النبي يختص بالتقريع ، و تنزل في ذمه سورة باسمه مما لا نجده في حق أي من أعداء النبي المعاصرين له.

]تبت يدا أبي لهب[

قالوا : تبت : أي هلكت ، أو خسرت ، أو خابت ، أو صغرت ، أو قطعت ، ولا بأس بتصور معنى جامع للكلمة تشتمل كل هذه المعاني.

و قالوا في كنية الرجل أنها كانت بديلا عن اسمه ، فلم يكن ذكر كنيته شرفا له بل ذما ، لأن اللهب يعني شرر النار ، و نعت أحد به لا يشرفه ، وقد جعله الله عليه لهبا يوم القيامة ، ثم ان اسمه كان عبد العزى ، و لم يكن مناسبا ذكر هذا الاسم في كتاب ربنا ، الذي يفيض بنور التوحيد و الحنفية الطاهرة.

]و تب[

هلك الرجل و خاب و خسر.

قالوا :الكلمة الأولى دعاء عليه ، و ذكر اليد إشارة الى الشخص ذاته ، و هكذا تكني العرب عن الشيء بجزء ، فتقول مثلا يد الرزايا ، أو يد الدهر ، أو ما أشبه ، قال الشاعر:

و لقد مررت على ديارهم أطلالها بيد البلا نهبأما الكلمة الثانية " و تب " فهي خبر ، أي أن أبا لهب قد هلك فعلا ، و بذلكوقعت اللعنة المتوقعة عليه.

و يبدو لي ان الكلمة الأولى دعاء على صفقة يديه و ما تكسبه من فعل ، و الثانية عليه شخصيا ، او ان الثانية توضيح و تاكيد للاولى ، ذلك ان سبب هلاك الانسان ما تجنيه يده ، فاللعنة تتوجه اليها ، ثم اليه لانه المسؤول عن فعلهما ، و لعل في الآية الثانية إشارة الى ذلك.

[2]أبو لهب - كما سائر المستكبرين و المعاندين - يتكلون على أموالهم و إمكاناتهم في مواجهة الحق ، و لكن عندما يحين ميعاد الجزاء العادل لا يغني عنهم ذلك شيئا.

]مآ أغنى عنه ماله وما كسب [

فلا ثروته تغينه عن الله شيئا ، ولا ما اكتسبه بها و بغيرها من جاه و قوة ، و مكانة اجتماعية.

و هكذا يكون ما كسب أعم من المال ، لأن المال بدوره من مكاسب الفرد ، و قيل : ان " ما كسب " هو أولاده ، و لعل الولد يعتبر مما يكتسبه الانسان.

[3]كلا .. الناس تنتظره و سيصلاها ، ليتحسس مباشرة حرها و ألمها ، وإذا كان أبواه قد وجدوا في وجنتيه لهبا اجتذبهم حتى كنياه بأبي لهب ، فإن هذا الجمال الظاهري لم ينفعه ، بل تحول في العقبى الى نار لاهبة تحرقه.

]سيصلى نارا ذات لهب[

[4]و امرأة أبي لهب كانت أخت ابي سفيان ، و عمة معاوية ، و كانت - حسب الروايات - عوراء و لكنها سميت أم جميل ، و كانت بذيئة اللسان ،متكبرة ، و شديدة العداء للرسول و لدعوته ، كعداء أخيها أبي سفيان.

قالوا : أنها كانت بالغة الثراء ، و لكنها من بخلها و شحها كانت تحمل الحطب و لا تشتريه ، و ربما ألقت الأشواك في طريق النبي و سائر المسلمين إيذاءا لهم ، وهكذا ألحقها الله بزوجها.

]و امرأته حمالة الحطب[

و جاءت كلمة " حمالة الحطب " منصوبة للدلالة على ذمها ، وقد اختلفوا في تفسير الكلمة : هل نعتت بالبخل ، و كيف إنها تدعي الشرف ، و تحمل الحطب ؟ أو أنها ذمت لإلقائها الأشواك في طريق النبي ؟ أو لأنها كانت تمشي بالنميمة ، و العرب تسمي من يفعل ذلك بحامل الحطب لأنه يشعل نار الفتنة بين الناس ؟ و أنشدوا:

أن بني الادرم حمالوا الحطب هم الوشاة في الرضا و في الغضبو روي ان حمالة الحطب لما سمعت بنزول هذه السورة فيها و في زوجها ، قدمت على المسجد الحرام تقصد النبي الذي كان جالسا و معه

ابن بكر بن أبي قحافة ، فقال : يا رسول الله ! هـــذه أم جميل محفظة (أي مغضبة) تريدك ، و معها حجر تريد ان ترميك به ، فقال - صلىالله عليه وآله " : -انها لا تراني " فقالت لأبي بكر : أين صاحبك قال : حيث شاء الله ، قالت جئته ولو أراه لرميته ، فانه هجاني ، و اللات و العزى إني لشاعرة (و في رواية : إني لسيدة) فقال أبو بكر : يا رسول الله ! لم ترك ؟ قال " : لا . ضرب الله بيني و بينها حجاب " (١. (

[5]وإن الفتاة لتتزين بقلادة من الدر و اللؤلؤ و سائر الأحجار الكريمة ، ولكنها(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٨٩.

قد جعلت في عنقها حبلا من ليف النخل حينما احتملت حطبا و ألقته في طريق الرسول ، فهل يدل ذلك إلا على الخسة و الدناءة.

]في جيدها حبل من مسد[

قالــوا : الجيد : العنق ، و المسد : الليف ، و أنشدوا : ما مسد الخوص تعوذ مني.

و قال البعض : ان ذلك عذاب ، أوعدها الله أن يجعل في جيدها حبلا من ليف يوم القيامة ، لأنها أنفقت قلادة لها من جواهر في محاربة النبي.

سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبـــد اللــه - عليـه السلام - قال : " من مضى به يوم واحد فصلى فيه خمس صلوات ولم يقرأ بـ " قل هو الله أحد " قيل له : يا عبد الله لست من المصلين. "

- 2وعن أمير المؤمنين - عليه السلام - قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - من قرأ " قل هو الله أحد " مائة مرة حين يأخذ مضجعة غفر الله له ذنوب خمسين سنة. "

وعنه - عليه السلام - قال : " من قرأ " قل هو الله أحد " عشر مرات في دبر الفجر لم يتبعه في ذلك اليوم ذنب ، وإن رغم أنف الشيطان. "

- 3وعن أبي الحسن الامام الرضا - عليه السلام - قال : " من قرأ " قل هو الله أحد " بينه و بين جبار منعه الله منه بقراءته بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيره و منعه شره. "

- 4وعن أبي عبد الله - عليه السلام - قال : " من آوى الى فراشه فقرأ " قل هو الله أحد " إحدى عشرة مرة حفظ في داره وفي دويرات حوله. "

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٦٩٩

الإطار العام

هل لله نسب ، وماذا أعد الكتاب للعلماء المتعمقين في حقل التوحيد ؟ و كيف تختصر بضع كلمات بصائر الوحي في معرفة الرب ، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.

بلى .ان سورة الاخلاص تنسب ربنا الى التوحيد النقي ، الذي يروي غليل المتعمقين في آخر الزمان ، و تختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.

إنها تأمرنا بأن نقولها صريحة و نقية : الله أحد.

وماذا تعني الأحدية ؟ تقول السورة : " الله الصمد " الذي لا جوف له ولا أجزاء ، و نتساءل عن تأويل الصمد ؟ فتقول الآية التالية : " لم يلد ولم يولد " فلا تدخله أجزاء من خارجه سبحانه ، ولا تخرج منه أجزاء الى الخارج سبحانه ، و تستفهم: ما حقيقة أحديته و صمديته ، و تعاليه عن التناسل ، و تقول الآية الخاتمة ، حقيقة ذلك : انه لا شبيه له و لا نظير ، و لو كان والدا لكان ولده شبيهه و كفوه ، وكذلك لو كان مولودا لكان والده أعلى منه أو مساويا له . سبحانه عن مجانسة مخلوقاته.

قل هو الله أحد

بينات من الآيات

[1]لا تستطيع الخروج من ظلمة الشرك لو لم تخرج من سجن الذات ، و معتقل هوى النفس ، وإذا أمعنت النظر لرأيت جذر كل كفر و شرك و عصيان حب النفس وهواها ، و حتى الذي يعبد الطغاة او الاصنام فانما يعبد هواه في صورة الطغاة ، و شهواته في هيكل الاصنام.

فاذا خرجت من حب الذات ، و تحديث ظلمات الهوى فانك تنطلق في رحاب التوحيد بإذن الله ، بلا قيود و بلا حدود.

كيف تخرج - إذا - من سجن الذات ؟ انما بتحدي إرهاب الطغاة ، و ضلالات المجتمع ، و خرافات الغابرين و ما لديهم من مقدسات زائفة.

و تاريخ الموحدين يختصر الصراع المرير بينهم و بين دعاة الشرك و الضلال .. ألم تقرأ نبأ النبيين و الصديقين كيف تحدوا ظلمات عصورهم بنور التوحيد .. كل ذلكالتاريخ الحافل تختصره في هذه السورة كلمة واحدة هي كلمة:

]قل[

ومن دون الاستجابة لهذا الأمر الصريح لن تستطيع التعالي في سماء التوحيد ، لان التوحيد ذاته كسر قيود الشرك ، و فك أغلال الضلال ، لابد ان تنهض إرادتك في ضميرك ، و تتبلور روح التحدي في عقلك ، و تنبعث فطرتك النقية الأولى من تحت ركام الجهل و الغفلة و النسيان ، لابد لك من ذلك كله إذا أردت معرفته ، و الزلفى اليه و رضوانه ، و جنته.

]هو[

انه الغيب الذي لا ولن تحيط به علما ، يكفيك من شعاع نوره قبس يغمر وجودك ثم لا تكاد تتحمله . انه الله الذي احتار فيه قلبك ، فهو قريب منه يراه في كل شيء ، و لكنه في ذات الوقت بعيد لا يعرف ذاته.

و جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر - عليه السلام - في معنى " هو " قال : " اسم مشار ، و مكنى الى غائب ، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت ، و الواو إشارة الى الغائب عن الحواس ، كما أن قولك " هذا " إشارة الى الشاهد عند الحواس " (١(

أنه الذي تهفوا اليه نفوسنا ، و تتعلق بحبه أفئدتنا و يهفوا الجميع الى قبسات وجهه الكريم ، و يتعطشون الى كأس محبته ، و ورد قربه.

أنه بكلمة واحدة " هو "نشير اليه دون أن نحدده أو نقيده ، أو ندعي معرفة(١) موسوعة بحار الانوار / ج ٣ - ص ٢٢١.

ذاته ، أو توهم إنيته و مائيته.

وقد روي أن عليا - عليه السلام - رأى خضرا - عليه السلام - في منامه قبل بدر بليلة يقول : " فقلت له : علمني شيئا أنصر به على الأعداء ، فقال : قل : يا هو ! يا من لا هو إلا هو ، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله ، فقال لي :يا علي ! علمت الاسم الأعظم ، وكان على لساني يوم بدر " و أضافت الرواية :أن أمير المؤمنين - عليه السلام - قرأ " قل هـو الله أحـد " فلما فرغ قال : : يا هو ! يا من لا هو إلا هو ! إغفر لي ، و انصرني على القوم الكافرين " (١. (

]الله[

و كفى . الإله : المعبود الذي تسبح له السموات و الارض ، الذي يتحير فيه المتحيرون ، و يلجأ اليه المستجيرون.

و هكذا جاء في الحديث المأثور عن الامام علي - عليه السلام - : " الله معناه :المعبود الذي يأله فيه الخلق ، و يؤله اليه ، و الله هو المستور عن درك الأبصار ، المحجوب عن الأوهام و الخطرات. "

و روي عن الامام الباقر - عليه السلام - : " الله معناه : المعبود الذي إله الخلق عن درك مائيته ، و الاحاطة بكيفيته ، و يقول العرب : إله الرجل إذا تحير في الشـــيء فلـم يحط به علما ، و وله : إذا فزع الى شيء مما يحذره و يخافه "و أضاف : " فالإله هو المستور عن حواس الخلق " (٢. (

و هكذا تكون كلمة " الله " حسب هذه الرواية مشتقة من إله ، التي تجمع(١) المصدر / ص ٢٢٢.

(2)المصدر.

معاني المعبود ، الذي يتحير فيه الناس ، و يلجأ اليه المتحيرون.

]أحد[

بالرغم من أن كلمة " أحد " مشتقة من واحد كما قالوا ، إلا أنها أبلغ دلالة على معنى الوحدانية ، و انه سبحانه لا نظير له و لا شريك ، ولا أعضاء فيه ولا أجزاء ، لا في الواقع و لا في العقل و الوهم سبحانه ، و ليس معنى الأحد و الواحد أنه ثاني اثنين ، او أنه نوع من الأنواع ، كلا .. إنه الواحد بلا عدد ، الأحد بلا مثل ولا شبه.

هكذا جاء في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - عندما سأله اعرابي في يوم الجمل عن معنى واحد ، فحمل الناس عليه و قالوا : يا إعرابي ! أما ترى فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب - أي تشتته - فقال أمير المؤمنين : " دعوه ، فإن الذي يريده الإعرابي هو الذي نريده من القوم " (من توحيد الله و معرفته حقا المراد ، من القوم اعداؤه) ثم قال:

"ان القول في ان الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منها لا يجوز أن على الله - عز وجل - و وجهان يثبتان فيه ، فأما اللذان لا يجوز ان عليه فقول القائل : واحد يقصد به باب الأعداد ، فهذا ما لا يجوز ، لان ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد ، اماإنه كفر من قال : أنه ثالث ثلاثة ، و قول القائل : هو واحد من الناس ، يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز ، لأن تشبيه ، وجل ربنا و تعالى عن ذلك ، وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه : فقول القائل : انه عز وجل أحدي المعنى ، يعني به : انه لا ينقسم في وجود ، ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عز وجل (1)(1) " المصدر / ص ٢٠٧.

وهكذا تشترك الكلمة بيننا و بين ربنا ، فنقول : هذا واحد من الناس ، و نقول : الله واحد ، و لكن هيهات ما بينهما التقاء ، فأحدية ربنا ليست كخلقه . إنها أحدية شاملة ، بينما خلقه متكثر متشابه ، تعال نستمع في توضيح هذه البصيرة الى حديث عن الامام أبي الحسن - عليه السلام - وهو يحدد التشابه المستحيل . انه في المعاني لا في الأسماء فانها مشتركة ، قال:

"انما التشبيه في المعاني ، فأما في الأسماء فهي واحدة ، وهي دلالة على المسمى ، و ذلك ان الانسان و ان قيل واحد فانه يخبر انه جثة واحدة وليس بإثنين ، و الانسان نفسه ليس بواحد لان أعضاءه مختلفة ، و ألوانه مختلفة ، ومن ألوانه مختلفة غير واحد ، وهو أجزاء مجزأة ليست بسواء ، دمه غير لحمه ، و لحمه غير دمه ، و عصبه غير عروقه ، و شعره غير بشره ، و سواده غير بياضه ، و كذلك سائر جميع الخلق ، فالانسان واحد في الاسم و لا واحد في المعنى ، و الله جل جلاله هو واحد لا واحد غيره ، لا اختلاف فيه ، ولا تفاوت، ولا زيادة ، ولا نقصان ، فأما الانسان المخلوق المصنوع المؤلف من أجزاء مختلفة و جواهر شتى ، غير أنه بالاجتماع شيء واحد " (١)و تتجلى أحدية الله في معرفة هيمنته الشاملة على كل شيء ، وأنه الفعال لما يريد ، و ان له العبادة ، وأن ما يعبد من دونه ليس بشيء.

أما خرافات الجاهلية التي تزعم : أن هناك قوة أخرى مستقلة غير قوة الخالق فهي ناشئة من الجهل بالله ، وبأن خالق الكائنات يستحيل عليه العجز ، و الحد ، و القيد ، فكيف يكون ربنا مثلا عاجزا عن التخلص من ابليس - حتى أنه أنما خلق الخلق حتى يتخلص من الطينة الخبيثة التي لا زالت معه منذ الأزل ، والتي هي طينة ابليس ؟ ! كلا .. انه سبحانه هو خالق ابليس ، و مهيمن عليه ، فلا يجوز لنا عقلا(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٧١٠.

عبادة ابليس واحدا من إلهين.

و اسطورة النور و الظلمة ، و أنهما إلهان قديمان ، وإن الظلمة دخلت في النور ، او ان النور دخلها و جاء هذا الخلق من تركيبهما كما تقول المانوية . انها هي الأخرى ناشئة من الجهل بالله و بقدرته التي لا تحد و لا تقيد ، وكيف يعجز رب يوصف بالقدرة ، و تتجلى قدرته في هذه الكائنات العجيبة ، كيف يعجز عن السيطرة على الظلام سبحانه ؟! بل هو الذي جعل النور و الظلمات بقدرته ؟

و هكذا الأساطير التي كانت وراء عبادة غير الله ، و التي دخلت في الديانات السماوية ايضا مثل : الاعتقاد بأن للكائنات آلهة صغارا ولدها الإله الأكبر ، هم بمثابة أبنائه و بناته سبحانه ، بعضهم أقرب اليه من بعض ، وان على الناس التقرب اليهم ، و اقامة تماثيل لهم ، و لتحل فيها ارواحهم ، وهذه هي منشأ خرافة عبادة الاصنام منذ كانت والى عصرنا الحالي.

ان كل هذه الأساطير نشأت من الجهل بمقام الألوهية وان خالق السموات و الارض ، وما فيهن و ما بينهن لن يكون عاجزا أو محدودا سبحانه!

و انه لو كانت معه طينة أبدية لكانت تلك هي الأخرى في مقام الربوبية ، مقتدرة عالمة ، ولكن كيف تجتمع قدرتان مطلقتان متضادتان ، لا تستطيع احداهما القضاء على الثانية.

و بالتفكر في صنع الله و عظيم قدرته تتلاشى هذه الأساطير الزائفة ، و تتجلى للانسان قدرة الله غير المحدودة ، التي تظهر في خلقه و في النظام الذي أجراه في العالم ، كما يظهر بوضوح ان هذا النظام و هذا الخلق ليسا بالإلهين من دونه ، يعبدان ، كما فعلت الجاهلية الحديثة التي استسلمت و عبدت المادة و قوانينها ، وهما من خلقالله ، و تتجلى بهما عظمته و قدرته سبحانه.

[2]ومن مظاهر الأحدية ، الصمدية التي تشير الى حقائق شتى تجمعها بصيرة واحدة هي ان الله بلا أعضاء و أجزاء ، ولا حالات تطرأ عليه سبحانه:

]الله الصمد[

هكذا فسر الامام الحسين بن علي - عليهمـــا الســـلام - كلمة الصمد حيث قال : " الصمد : الذي لا جوف له ، و الصمد : الذي قد انتهى سوددہ ، و الصمد : الذي لا يأكل و لا يشرب ، و الصمد : الذي لا ينام ، و الصمد : الدائم الذي لم يزل ولا يزال. (1) "

و روي عـــن الامـام الباقـــر - عليه السلام - انه قال " : كان محمد بن الحنفية - رضي الله عنه - يقول : الصمد : القائم بنفسـه ، الغني عن غيره " (٢. (

وقـــد ذكـر لكلمة الصمد زهاء عشرين معنى : إلا أن أمثلها الذي ترجع اليه سائرها : المصمت ، الذي لا جوف له ، و منه الصمود و الصامد ، ولأن السيد العظيم يوصف بالشجاعة فانه يسمى بالصمد لأنه لا يتزلزل.

و لان صفات الدوام و الأحدية وما أشبه ناشئة من صفة الصمد ؛ فانها ذكرت من معاني الصمد ، كما جاء في حديث مأثور عن الامام زين العابدين - عليه السلام - حينما سئل عن معنى الصمد فقال : " الذي لا شريك له ، ولا يؤوده حفظ شيء ، ولا يعزب عنه شيء "(٣. (

(1)موسوعة بحار الأنوار /ج ٣ - ص ٢٢٣.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

و صفة الصمدية تتجلى ايضا في أنه لم يلد ولم يولد ، إذ ولادته دليل إضافة جزء اليه لم يكن فيه ، او انفصال جزء منه كان فيه ، و الصمد الذي لا أجزاء له ، لا يتصور فيه زيادة (بالتولد) و لا نقيصة (بالإيلاد (.

من هنا فسر الامام الحسين - عليه السلام معنى الصمد في السورة بالآية التالية فقال : " الله أحد ، الله الصمد " ثم فسره فقال : " لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفـوا أحـد " " لم يلد " لم يخرج منه شيء كثيف كالولد و سائر الاشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين ، ولا شيء لطيف كالنفس ولا يتشعب منه البداوات (١) كالسنة و النوم ، و الخطرة و الهم ، و الحزن و البهجة ، و الضحك و البكاء ، و الخوف و الرجاء ، و الرغبة و السآمة ، و الجوع و الشبع ، تعالى ان يخرج منه شيء ، و ان يتولد منه شيء كثيف أو لطيف.

"و لم يولد " لم يتولد من شيء و لم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشيء من الشيء ، و الدابة من الدابة ، و النبات من الارض ، و الماء من الينابيع ، و الثمار من الأشجار ، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر منالعين ، و السمع من الأذن ، و الشم من الأنف ، و الذوق من الفم ، و الكلام من اللسان ، و المعرفة و التمييز من القلب ، و كالنار من الحجر.

لا . بل هو الله الصمد ، الذي لا من شيء ، ولا في شيء ، ولا على شيء ، مبدع الأشياء و خالقها ، و منشئ الأشياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ، و يبقى ما خلق للبقاء بعلمه.

فذلكم الله الصمد ، الذي لم يلد و لـم يولد ، عالم الغيب و الشهادة ، الكبير المتعال ، و لم يكن له كفوا أحد . (2) "

(1)لعل معناها الطوارئ من الحالات المختلفة.

(2)المصدر / ص ٢٢٤.

و هكذا استوحى الامام الحسين - عليه السلام - من كلمة الصمد معان لطيفة في التوحيد ، ولو تدبرنا في معنى الصمد اللغوي الذي قلنا : بأنه المصمت الذي لا جوف له عرفنا كيف أنها صفة يتمايز فيها الخلق عن الخالق ، فلا شيء من الخلق إلا وهو مركب من أجزاء في الواقع ، وفي العقل ، وفي الوهم ، و التصور إلا الله الذي جل عن تركيب الصفات في أي أفق من تلك الآفاق.

اننا حسب معلوماتنا المحدودة عن الجسم نعرف أن كل شيء مركب من ذرات صغيرة ، وأن في هذه الذرات فراغات هائلة ، بحيث لو تصورنا طنا من الخشب يقع في مساحة عدة أمتار مربعة ، ثم افترضنا اننا أعدمنا الفراغات في ذراتها لأصبحت في حجم صغير لا يقاس مع حجمها السابق ، ولكنها سوف تحتفظ بوزنها السابق أي ألف كيلو غرام ، و يدل على ذلك ان المواد الثقيلة كاليورانيوم تحتوي على مثل ذرات الخشب و القطن إلا أن هذه الفراغات تردم ، فتثقل المعادن حتى أن ما مقدار عشرين سانتيمترا مكعبا من اليورانيوم يقدر وزنه بطن . و محدودايضا بأنه ليس بنافذ في كل أبعاد الشيء أليس كذلك ؟

بينما رب العزة لا يزيد أو ينقص لانه كامل ، ولو افترضنا فيه نقصا إذا ما الفرق بينه و بين الكائنات التي خلقها ، وإذا تساوى الخالق و المخلوق فلماذا أساسا نبحث عن خالق ؟ أليس أنما هدانا العقل الى الخالق لما رأينا من النقص و الحاجة في المخلوقين ، و أظهر مصاديق النقص : التركيب و التأليف ، و الزيادة و النقصان . فكيف نزعم وجود ذلك ايضا في الخالق ؟

من هنا ذكر الامام الباقر - عليه السلام - معاني عديدة استوحاها من كلمة الصمد ثم قال : " لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله - عز وجل - حملة لنشرت التوحيد و الاسلام و الايمان و الدين و الشرائع من الصمد " (١. (

(1)المصدر / ص ٢٢٥.

و نختم حديثنا عن الصمد برواية شريفة عن الامام علي - عليه السلام - جمعت الكثير من معاني الصمد قال:

"تأويل الصمد : لا اسم ولا جسم ، ولا مثل ولا شبه ، ولا صورة ولا تمثال ، لا حد ولا حدود ، ولا موضع ولا مكان ، ولا كيف ولا أين ، ولا هنا ولا ثمة ، ولا ملاء ولا خـلاء ، ولا قيام ولا قعود ، ولا سكون ولا حركة ، ولا ظلماني ولا نوراني ، ولا روحانيولا نفساني ، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع ، ولا على لون ولا على خطر قلب ، ولا على شم رائحة ، منفي عنه هذه الأشياء " (١. (

[3]حين عرفنا استحالة التركيب في خالق السموات و الارض ، و اهتدينا الى استحالة تولد شيء منه ، و كيف ينفصل عنه جزء وهو صمد لا يتصور فيه التأليف و التركيب و الأجزاء و الأعضاء ؟!

وإذا عرفنا أنه لم يلد ، نعرف أنه لم يولد ، أليس الذي ينقص منه شيء ، و يحتاج الى تكميله بجزء يضاف اليه ، و ربنا تعالى غني عن الإضافة فكيف بالولادة من غيره ؟!

]لم يلد ولم يولد[

لم يلد كما تلد الكائنات المخلوقة ، الكثيفة منها و اللطيفة ، وقد سبق توضيح ذلك آنفا في حديث الامام الحسين عليه السلام.

وهذه الآية تنسف أسس الخرافات الجاهلية التي تمثلت و بصور شتى في المذاهب و المبادىء المختلفة ، فانما تأسست على تصور ولادة الكائنات من رحم خالقها سبحانه ، فقال بعضهم : ان الخالق تأذى من طينة خبيثة ملازمة له فدخل(١ (المصدر / ص ٢٣٠.

فيها و تكونت من امتزاجها الخلائق ؟ و قال آخرون : بل ان إبليس (او الظلمة) قفزت الى النور (أي الله في ظنهم (فأراد النور التخلص منها ، فكان كمن دخل الوحل كلما أراد الخروج منها ارتطم فيها أكثر ، فكانت الكائنات من تداخلهما.

و تطورت هذه الفلسفة عند البعض فقالوا : إن الخالق تنزل من عرشه فأصبح المخلوقات ، و قال بعضهم : ان الله سبحانه فاض بوجوده فكانت الكائنات و هكذا رققوا العبارات و لكنهم لم يغيروا من جوهر النظرية شيئا.

ان كل هذه الفلسفات قائمة على أساس التولد يقتضي تطورا في ذات الشيء و هو يتنافى و تعاليه سبحانه.

ولا فرق إذا أن تكون الولادة كثيفة كما الثمر من الشجر أم لطيفة كولادة الفكر من القلـــب ، أليس القلب تطور حتى يفرز الفكر ، كما ينفعل الشجر حتى يخرج الثمر ؟ كلا . أن الخالق سبحانه قد أنشأ الكائنات من دون كيفية ولا تعب ولا معالجة ولا تفاعلات في ذاته أو تطورات سبحانه ، و حين ينتفي التولد منه ينتفي تولده من غيره ، لأن ما لا ينقص لا يزيد ، او قل : لا يحتاج الى زيادة.

و نفي الولادة بكل جوانبها و معانيها يضع المخلوق في موقع العبودية المطلقة و ينفي أضفاء أي نوع من القداسة الذاتية على أي شيء أو شخص من خلق الله إلا قيم الوحي الناشئة من دين الله ، و هكذا يتساوى الخلق أمام الخالق ، و أمام دين الخالق ولا يجوز لأحد أنيتعالى على غيره بزعم أنه أقرب الى القدوس ذاتيا ، و تبطل كل المذاهب العنصرية الظاهرة منها و الخفية.

[4]وإذا اهتدينا الى أن الله صمد لا جزء له ، و لا تطور ، و لا ولادة ، فقد ارتفع الحجاب الأكبر الذي بيننا و بين الله ، حجاب التشبيه الذي ينشأ من جهل الانسانو نقص مداركه.

فلأن الانسان لا يرى إلا نفسه و المخلوقات ، يقيس خالقه بنفسه طورا ، و الكائنات أطوارا . غافلا على أن هذا القياس يتنافى و الاعتقاد بالخالق أصلا.

اما إذا تذكر الانسان هذه الحقيقة فان الشبهات تنماث من ضميره حتى يتطهر من أدرانها ، و يتهيأ قلبه لاستقبال نور المعرفة . و يبدو ان كلمات الذكر الاساسية تذكرنا بهذه الحقيقة ، أوليس التكبير هو تعظيم الله من الوصف . " الله اكبر من ان يوصف " والتسبيح هو تقديسه عما يخطر ببال البشر . من نقص و عجز ، و شبه و نظير ، و كذلك التهليل : نفي الشريك له ، و هكذا يقول ربنا في ختام سورة الاخلاص:

]ولم يكن له كفوا أحد[

فاذا أردت معرفته أسقط عن نفسك قياسه بخلقه ، و تسامى عن دائرة المخلوق الى أفق الخالق ، ومن محيط الشهادة الى أفق الغيب ، ومن البحث عن الذات الى تلقي نور الأسماء.

و نفي المثيل و النظير نفي لكل صفة عجز و حد و نقص في الخالق ، كما قال الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - عندما سأله بعضهم عن معاني سورة الاخلاص قال : " قل هو الله أحد بلا تأويل عدد ، الصمد بلا تبعيض بدد ، لم يلد فيكون موروثا هالكا ، ولم يولدفيكون إلها مشاركا ، ولم يكن له من خلقه كفوا أحد " (١. (

و قال - عليه السلام - وهو يصف ربه لمن سأله عن ذلك و قال أين المعبود فأجابه عليه السلام:

"لا يقال له : أين ؟ لانه أين الأينية ، ولا يقال له : كيف ؟ لأنه كيف(١) مجمع البيان / ج ١٠ -ص ٥٦٦.

الكيفية ، ولا يقال له : ما هو ؟ لأنه خلق الماهية ، سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمــواج عظمته ، و حصرت الألباب عن ذكر أزليته ، و تحيرت العقول في أفلاك ملكوته " (١. (

وقال عليه السلام " اتقوا ان تمثلوا بالرب الذي لا مثل له ، أو تشبهوه من خلقه ، أو تلقوا عليه الأوهام ، أو تعملوا فيه الفكر ، و تضربوا له الأمثال ، أو تنعتوه بنعوت المخلوقين ، فان لمن فعل ذلك نارا " (٢. (

(1)موسوعة بحار الانوار / ج ٣ - ص ٢٩٨.

(2)المصدر.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال عن أبي جعفر (ع) قال : " من أوتر بالمعوذتين ، و قل هو الله أحد ، قيل له : يا عبد الله ! أبشر ، فقد قبل الله وترك. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٧٢٤

الإطار العام

عندما تتزاحم الوساوس و المخاوف على فؤاد الانسان ، و يحتاج الى جرعة شجاعة ، و ومضة عزيمة ، هنالك يقرأ سورة الفلق ، لتشيع بصائرنا روح السكينة في روعه ، و نور العزيمة في قلبه ، ليستعيذ عبرها بالله خالق كل شيء من شر كل ذي شر ، ومن شر طارق الليل حين يقتحم ، و نافثة العقد حين تبث الفساد و الشر بكلماتها المسمومة ، و أفكارها السلبية ، و سهام سحرها ، و عينها الناضلة .و أخيرا من شر الحسد حين يعتمل في فكر الحاسد.

قل أعوذ برب الفلق

بينات من الآيات

[1]كلمات نطلقها و نتعامل معها و لكنها تبقى غامضة لو لم نتخيل معانيها الخارجية و مصاديقها الواقعية ، أليست العبارات جسور المعاني ، و الكلمات إشارات الى الحقائق ، و كلمة الإستعاذة واحدة منها ، فمتى يستعيذ الانسان بشيء ؟ عندما يفقد ثقته بنفسه في مواجهة خطر داهم ، و يظن ان ما يستعيذ به قادر على أان ينجيه مما هو فيه ، فيلجأ اليه كما يلجأ الذي يطارده الوحش الى كهف أو حصن منيع.

و قد تكون الأخطار التي يخشى منها الناس مجرد أوهام و ظنون و وساوس شيطانية ، وقد دفعت الحاجة البشر الى التعوذ بالجن و السحر و الأصنام ، وكان عليهم الإستعاذة بالله الخالق كل شيء.

وهكذا أمر الله بأن نستعيذ بالله وحده ، نرفض الإلتجاء بالانداد و الشركاء ،و نعلن ذلك صراحة ، و قال:

]قل[

إذا كنتم أيها الكافرون تستعيذون بالناس و بالانداد ، بالسحرة و الكهنة و الجن وما أشبه ، فانني[أعوذ برب الفلق[

و نتساءل أولا : ماهي مفردات الإستعاذة و شروطها ؟ ثانيا : ما هو الفلق ؟ الإستعاذة حالة نفسية ، قوامها الخشية من الخطر ، و الثقة بمن يستعاذ به ، و هي الى ذلك ممارسة عملية بابتغاء مرضاة من نستعيذ به ، و هي - فوق ذلك - الثقة بأنه وحده القادر على درء الخطر ، و إنقاذ الانسان.

أما الفلق فقد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا ، فمن قائل : أنه بئر في جهنم تحترق جهنم بناره . - أعوذ بالله منه - الى قائل : بأنه الصبح ، أو ما اطمأن من الأرض ، أو الجبال و الصخور و لكن القول الأمثل هو القول

الأشمل الذي يقول :أن الفلق هو كل ما خلق الله، لأن الله يقول : " أولم ير الذين كفروا ان السموات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما " (١. (

و رب الفلق : هو الذي فلق الحبة ، و فلق الصباح ، و فلق الجبال بأنهر ، و فلق السموات و الأرض و كل شيء.

[2]هل ما خلق الله خير مطلق أم شر مطلق ، أم في كل شيء نسبة من هذا و ذاك ؟

(1)الأنبياء / ٣٠.

قال بعضهم : كيف يخلق الله شرا و هو سبحانه خير واسع ؟!

و قال آخرون : الوجود حالة غضب إلهي فهو شر مطلق ! و كلا القولين هراء ، يخالف وجداننا و فطرتنا.

صحيح ان الله سبحانه خلق الكائنات برحمته و خلق البشر ليرحمه ، و لكن المخلوق يبقى ذاته عدما و عجزا و نقصا ، و من ذلك العجز تعزيز السلبيات ، و لكن يبقى جانب الخير ، حيث تتعلق به تجليات الرب و عطاءه يبقى غالبا جانب الشر ، لأن رحمة الله أوسع من غضبه ،و فضله أعظم من عدله سبحانه.

و قد زود الله كل حي بما يجعله يختار جانب الخير ، و يحاذر جانب الشر من نفسه و من الخلق المحيط به ، و الانسان بدوره مزود بالوحي و العقل و الغريزة لكي يتجنب الشر ، و الإستعاذة بالله صورة من صور الحذر من الشرور.

]من شر ما خلق[

ولا ريب ان تنفيذ واجبات الشريعة أحد أهم و أبرز صور الفرار من الشر ، لأنها تهدينا الى سبل السلام و وسائل النجاة.

[3]الليل يهبط بظلامه و وسواسه و طوارقه ، و يتحرك في جنحه الهوام و بعض الوحوش ، و ينشط المجرمـــون و الكائدون ، و يستولي المرض و الهم على البعض ، و تشتد الغرائز و الشهوات في غيبة من الرقابة الاجتماعية ، و يحتاج الانسان الى مضاء عزيمة و ثقة ، حتى يتغلب عليه وعلى أخطاره ، و هكذا يستعيذ بالله منه.

]ومن شر غاسق إذا وقب[

قالوا : الغسق : شدة الظلام ، و الغاسق : هو الليل او من يتحرك في جوفه ،و الوقب : الدخول.

و قال بعضهم : الليل غاسق لانه أبرد من النهار ، و لان في الليل تخرج السباع من آجامها ، و الهوام من أماكنها ، و ينبعث أهل الشر على العبث و الفساد.

[4]هل للسحر حقيقة و ما حقيقته ؟ يبدو ان للسحر حقيقة ، و ان حقيقته غير معروفة تماما بالرغم من عوامل مختلفة تتداخل فيه مثلا بعض القوانين الطبيعية غير المعروفة للناس ، قد يكن وسيلة السحر تماما ، كالزئبق الذي وضعه سحرة فرعون فيما يشبه الحبال فتحركت بحرارة الشمس ، و قد تكون حقيقته قوة الروح عند الساحر ، او استخدامه للأرواح الشريرة ، و أنى كان فان الاستسلام للسحر و لتأثيراته لا يجوز ، بل ينبغي تحديه بالتوكل على الله و الإستعاذة منه.

]ومن شر النفاثات في العقد [

قديما كانت العجائز يمتهن السحر ، و يخدعن الناس و بالذات النساء ، و كانت هذه الحالة تبعث الخشية

في نفوس الكثير مما اقتضى الإستعاذة بالله منهن.

و قد قال بعض المفسرين : ان المراد بالنفاثات في العقد : اللاتي ينفثن بأفكارهن السلبية في عقد العزيمة للرجال .

إلا أن أكثر المفسرين رأوا ان المراد بها الساحرات ، و هذا قريب من سبب النزول المذكور لهذه السورة ، على ان ما ورد من روايات في ذلك غير مؤكدة ، لأنها تخالف نزول السورة في مكة ، كما أنها تخالف عصمة الرسول ، وأنه بريء من السحر.

[5]قد تكون للأخطار التي تتوجه الى الانسان أسباب معقولة لو تنبه لها استطاع ان يتجنبها ، إلا الحسد فإن سببه حالة في نفس صاحبه ، و من الصعب تجنبهفي الوقت الذي يشكل سببا رئيسيا لمشاكل الانسان و للأخطار التي تحدق به ، ولكن هل يعني ذلك التراجع عن العمل وعن الانتفاع بنعم الله و التقدم و الرقي لمجرد أن هناك من يحسدني . كلا .. بل ينبغي الإستعاذة بالله سبحانه و تعالى من الحاسد و بالذات عندما يحسد.

]ومن شر حاسد إذا حسد[

فقد يصرف الله الحاسد عن تحويل حسده الى عمل عدائي ، لان الحسد مرفوع عن الانسان إن لم يظهره بقول او بفعل ولا يخلو الانسان من حسد ، إلا أن أغلب الناس ينصرفون عن الحسد الى الغبطة والتنافس لما يعلمونه من ضرر الحسد على أنفسهم قبل من يحسدون ، حتى قيل : " ما رأيت ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد " (١)وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " إذا حسدت فلا تبغ " (٢)و الحسد كان سبب رفض إبليس السجود لادم ، كما أنه كان سبب أول جريمة وقعت على الارض إذ قتل قابيل أخاه هابيل حسدا.

نستعيذ الله من شره و شر من يحمله.

(1)وهو مضمون رواية.

(2)القرطبي / ج ٢٠ - ص . 259

سورة الناس
الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحمن

ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيذ بالله من شر الخلق ، و تذكرنا هذه السورة الكريمة التي يختم بها القرآن الكريم كيف نستعيذ الله من الضلالة.

فالشر - في الأولى - شر مادي فيما يبدو ، و الشر هنا معنوي ، يؤدي الى ألوان من الشر في الدنيا و الآخرة ، ذلك الخطر يتمثل في الوسواس الخناس ، الذي يفقد الانسان عزيمته و حكمته ، و الذي قد يكون نابعا من الجن و الشيطان ، الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم، او من الناس الذين يتأثرون بإلقاءات الشيطان.

قل أعوذ برب الناس
بينات من الآيات

[1]لكي يدرء الانسان الخطر العظيم الذي يهدده خطر وساوس الشيطان الجني أو الإنسي ، لابد ان يعقد عزماته وان يتحدى سلطان الشيطان ، فيصرح علنا بأنه مخالف له ، هكذا أمرنا الرب بان نقول ذلك

قولا:

]قل أعوذ برب الناس[

و الإستعاذة كما سبق حالة نفسية تنبعث من الاحساس بالحاجة من جهة و الثقة بمن يستعاذ به من جهة ثانية ، وحينما تكون الإستعاذة بالله الذي خلق الناس طورا بعد طور ، و شملهم برعايته و رباهم فان ذلك يعني أمرين:

اولا :لان الله ربي أنا الذي استعيذ به فهو أولى بالتوكل عليه ، و الثقة به ، أليس هو الذي خلقني نطفة ، ثم جعل النطفة علقة ، و جعل العلقة مضغة ... و هكذا ، أنشأني خلقا بعد خلق ، و حفظني من الأخطار و الأضرار التي لن أحصيهاعددا ، حتى جعلني بشرا سويا ، فهو الذي أستجير به الآن ليحفظني من خظر الضلال ؟

ثانيا : لان الله رب الذي أستعيذ منه ، و مهيمن عليه وعلى أفعاله ، فهو قادر على درء شره عني.

[2]وإذا كان الناس يجأرون الى أصحاب القوة و الملك فان الله أعظم ملكا ، و أوسع سلطة . دعنا نستعيذ به و نجأر اليه.

]ملك الناس[

و الملك هو صاحب السلطة الحالية.

[3]و حينما يصيب الناس الضر ضل من يدعون سواه فاليه يألهون ، و يتضرعون ، و به يستغيثون.

]إله الناس[

فهو الذي ربى و ملك ، و اليه يجأر عند الخطوب أفلا نستعيذ به ؟!

[4]الإستعاذة بالله من شر الأفكار الضالة ، و الكلمات الموهنة للعزائم ، و الإيحاءات المنحرفة.

]من شر الوسواس الخناس[

قالوا :الوسوسة : حديث النفس ، و أصله الهمس ، و يقال لهمس الصائد و أصوات الحلي : وسواس ، و يقال لإلقاءات الشيطان في النفس ، و إيحاءاته وسوسة ، لأنها تشبه حديث النفس ، و قالوا : أنما سمي الشيطان بالوسواس لأنهصاحب وسوسة ، و ربما كان الوسواس بمعنى الموسوس أما " الخناس " فقالوا : أنه من الخنوس ، و هو بمعنى الاختفاء و منه قوله سبحانه : " فلا أقسم بالخنس " سميت النجوم به لاختفائها بعد ظهورها ، و لعل معنى الخنوس : التردد بين الظهور و الكمون، أو بين التقدم و التأخر ، فالنجوم تظهر و تختفي ، و لذلك قال بعضهم : الخنوس بمعنى : الرجوع ، و أنشدوا:

و صاحب يمتعس امتعاسا يزداد إن حييته خناساو على هذا تكون تسمية الشيطان بالخناس ، لانه دائم التردد ، كلما طردته عاد إليك ، فإذا ذكرت الله اختفى ، وإذا غفلت عاد ، من هنا حكي عن ابن عباس انه قال في تفسير الآية وجهين : أحدهما : أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى ، الثاني : أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

[5]و يقوم الشيطان بإلقاءاته الضالة في القلب ، مركز العزم و اتخاذ القرار.

]الذي يوسوس في صدور الناس [

ولا يترك أحدا إلا و ألقي في صدره وساوسه لولا اعتصامه بالله دوما.

[6]و الوسواس من الجن ، و ذرية إبليس الذي لعنه الله و أبعده ، والى على نفسه اغواء بني آدم و تضليلهم ، وقد يكون من الإنس الذين أضلهم إبليس.

]من الجنة و الناس[

و روي عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه قال لرجل : هل تعوذت بالله من شياطين الإنس ، فقال : أو من الإنس شياطين ؟ قال : نعم لقوله تعالى:

"و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس و الجن " (١)أتدري ما هي الحكمة في الإستعاذة التي أمرنا بها عند تلاوة الكتاب ، حيث قال ربنا " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " (٢) ؟

أوتدري ما هي الحكمة في ان ختام القرآن الإستعاذة بالله من شر الوسواس الخناس ؟ دعنا للاجابة نذكر الحقائق التالية : أولا : قلب الانسان يتعرض لموجتين متقابلتين ، فمن اليمين تتنزل عليه موجة رحمة إلهية ، تتمثل في ملائكة الله ، ومن اليسار تعصف به موجة غضب و نقمة الشيطان ، تتمثل في جنود إبليس أبعده الله.

هكذا روي عن الامام الصادق - عليه السلام - ، انه قال " :ما من مؤمن إلا و لقلبه أذنان في جوفه : أذن ينفث فيها الوسواس الخناس ، و أذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، و ذلك قوله : " و أيدهم بروح منه " (٣)روي عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال : " ما من قلب إلا و له أذنان ، على أحدهما ملك مرشد ، وعلى الآخر شيطان مفتر ، هذا يأمره و هذا يزجره ، و كذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي ، كما يحمل الشيطان من الجن " (٤)ثانيا : و قلب الانسان بيت مظلم متهاوي ، سراجه العقل ، و عماده الايمان ، و نور العقل من نور الله ، كما ان روح الايمان من ذكر الله ، وإذا غفل القلب عن الله عاث الشيطان فيه فسادا . لماذا ؟ لان طبيعة الانسان الأولية هي الجهل(١) الانعام / الاية ١١٢.

(2)النحل / ٩٨.

(3)موسوعة بحار الانوار / ج ٧٠ - ص ٤٧.

(4)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٧٢٥.

والضعف ، أولم يقل ربنا سبحانه : " خلق الانسان من عجل " و قال : " هو الذي خلقكم من ضعف " و قال : " ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الخير منوعا * وإذا مسه الشر جزوعا " و قال : " و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . "

أوليس بنوا آدم من تراب و طبيعة التراب العجز و الضعف ، و الجهل و الغفلة.

فان لم يتصل القلب بنور الله لحظة بلحظة كيف يبصر الحقائق ، وقد قال ربنا " و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور. "

وما لم يستمد العزيمة من الله بروح الايمان أنى له تجاوز ضعفه و عجزه ، و تحدي الشهوات و الضغوط.

ثالثا : من هنا يجـأر المؤمنـون الى ربهم ألا يتركهم و شأنهم لحظة و يقولون : " ربنا لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين أبدا. "

لان في تلك اللحظة الخاطفة قد تقع الواقعة ، ألم يترك الله نبيه يونس بن متى و شأنه ساعة ، فدعا على قومه ، و ابتلي بالسجن في بطن الحوت.

و أظن ان ما صدر من الأنبياء من ترك الأولى انما كان في اللحظات التي أوكلهم الله الى أنفسهم ، فغفلوا و نسوا ، و سمى الله ما صدر منهم عصيانا ، ثم تاب عليهم لكي لا يزعم أحد أنهم آلهة ، ولكي يزدادوا يقينا و اطمئنانا.

وهكذا روي عن النبي - صلى الله عليه وآله - : " ان الشيطان واضع خطمه (١) على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا نسي التقم ، فذلك(١) الخطم : أنف الانسان ، مقدم أنف الدابة.

الوسواس الخناس. (1) "

و هكذا ندب الاسلام مداومة الذكر فقال ربنا سبحانه : " و اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (٢) و قال تعالى : " و اذكر ربك كثيرا و سبح بالعشي و الأبكار " (٣)و جاء في الحديث : عن الامام الصادق - عليه السلام - : " ما أبتلي المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث يحرمها قيل : و ما هن ؟ قال : المواساة في ذات الله ، و الانصاف من نفسه ، و ذكر الله كثيرا ، اما و إني لا أقول لكم : سبحان الله ، و الحمد لله ، ولا اله الا الله ، و الله اكبر ، و لكن ذكر الله عندما أحل له . و ذكر الله عندما حرم عليه " (٤)و اعتبر الامام الباقر - عليه السلام - ذكر الله صلاة : فقال : " لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله قائما كان او جالسا او مضطجعا ، ان الله تعالى يقول : " الذين يذكرون الله قياما و قعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " (٥. (

و روي عن النبي - صلى الله عليه وآله - انه قال " : قال الله سبحانه : إذا علمت ان الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي و مناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه و بين أن يسهو ، أولئك أوليائي حقا ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت ان أهلك الارض عقوبة

(1)نور الثقلين / ج ٥ -ص ٧٢٤.

(2)الجمعة / ١٠.

(3)آل عمران / ٤١.

(4)موسوعة بحار الانوار / ج ٩٣ - ص ١٥١.

(5)المصدر / ص ١٥٣.

زويتها عنهم من أجل اولئك الأبطال " (١(

بلى .ولكن إذا ترك المؤمن ذكر الله فإنه ليس يتعرض فقط لغواية الشيطان و السقوط في اشراكه ، بل و ايضا قد يتعرض لأخطار مادية . كذلك جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - : " يموت المؤمن غرقا ، و يموت بالهدم ، و يبتلى بالسبع ، ويموت بالصاعقة و لا يصيب ذاكرا لله " وفي رواية أخرى : " لا يصيبه وهو يذكر الله " (٢)رابعا : و تذكر الله و سلطانه و قوته و رحمته ، و التوكل و الإستعاذة بقوته و بتأييده لعباده ، و وعي أسمائه الحسنى كل ذلك يقطع سياق الاسترسال مع وساوس النفس ، وهمزات الشيطان ، فتكون قرارات الانسان خاضعة لمحاكمة عقله و مقاييس فطرته ، دون أهوائه و تمنياته.

إن أغلب الناس يتخذون قراراتهم بلا وعي منهم لأسبابها ، حيث تنضج القرارات فيها سمي العقل بالباطن ، ثم يبررونها لأنفسهم بشتى التبريرات ، بينما المؤمن يمرر قراراته على منظار عقله ، فيمحصها تمحيصا دقيقا ، كل ذلك بفضل ذكر الله الذي يزيد من يقظة الذات ،و توهج العقل ، و استنارة الفطرة.

خامسا : ومن أبرز فوائد الإستعاذة بالله تجنب تفسير كتاب الله و نصوص الشريعة حسب الهوى و الرأي

مما يسبب في تبديل كلمات الله عن مواضعها.

إن أكثر الناس يتخذون مواقف مسبقة من القرآن ، فترى الشيطان يوسوس في صدورهم ، فيقول لهم مثلا : الآية هذه تعني أعدائك ، و تلك الآية نزلت أساسا في(١) المصدر / ١٦٢.

(2)المصدر.

الغابرين ، أو أنها تخص الفئة الكذائية ، المهم أنه يبعدك عن دائرة تطبيق الآية ، فلا يدعك تنتفع بها.

و ربما أمرنا بالإستعاذة من الشيطان قبل تلاوة الذكر ، و جاءت السورة الأخيرة من القرآن تأمرنا بالإستعاذة منه لكي لا نفسر آياته بالرأي ، و لا نؤولها تأويلا خاطئا ، و لا نتبع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة ، و نترك المحكمات.

سادسا : كيف نستعيذ بالله من وساوس الشيطان ؟

الف : بالتزود ببصائر الوحي في المعرفة ، و مناهج الدين في العلم و التعلم وهي كثير و مبثوثة في النصوص المختلفة.

باء : باستقبال المواعظ من أهلها ، و ذلك بمعاشرة العلماء الربانيين ، و الدعاة المجاهدين ، و عباد الله الصالحين.

جيم :بتجنب دعايات أهل الضلال ، و مقاطعة مجالسهم و كتبهم و أعلامهم ، فان من عرض نفسه للإنحراف بالإستماع الى أبواق الشيطان ثم انحرف و ضل فلا يلومن إلا نفسه.

دال : بالتفكر المستمر في أمور الدين ، و التدبر في كتاب الله ، و التحري عن الخط السليم ، و عدم الإستعجال في الحكم على شيء.

هاء : و أهم من كل ذلك بالدعاء الى الله أن يهديه الى الصراط المستقيم ، و ألا يكله الى نفسه لحظة.

وهذا ما ندعو الله به في خاتمة تفسيرنا لهذه السورة الكريمة ، و نسأل الله أن يتقبل من عبده العاصي هذا اليسير من الجهد ، وأن يجعله ذخرا له ليوم فاقته ، وأن يغفر لهتقصيره في أداء حق كتابه ، وأن يجعل القرآن و العترة شفيعا له يوم القيامة . انه سميع الدعاء ، و الحمد لله رب العالمين.

طهران / 9ذي القعدة الحرام / ١٤٠٩ هـ

محمد تقي المدرسي